شرق الغربيين

رحالة رومانطيقيون

يوميات ومشاهدات

فلسطين والأردن في كتابات فرنسية
في القرن التاسع عشر

ترجمة: د. مي عبد الكريم

Twitter: @alqareah
18.5.2016

ارتياد الآفاق

سلسلة شرق الغربيين

رحالة رومانطيقيون

يوميات ومشاهدات

«فلسطين والأردن في كتابات فرنسية في القرن التاسع عشر»

ترجمة: د. مي عبد الكريم

Twitter: @alqareah

سلسلة شرق الغربيين

رحالة رومانطيقيون

من يوميات الرحالة الأوروبيين

ترجمة: د. مي عبد الكريم

الطبعة الأولى: 2005

حقوق الطبع محفوظة

دار السويدي للنشر والتوزيع

أبو ظبي، ص.ب: 44480

الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6322079 ، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت

الصف الضوئي: القرية الإلكترونية – أبو ظبي

دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية – دمشق ، ص.ب : 30249

هاتف: 5141441 ، فاكس : 2716103

الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر

الإشراف الفني: د. مجد حيدر

التوزيع: دار ورد، هاتف: 5141441

All rights reseved . No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the puplisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @alqareah

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجرّاح

مستشار التحرير:

علي كنعان

أمانة التحرير:

محسن خالد

أيمن حجازي

الإشراف الفني:

ناصر بخيت

التنضيد والتنسيق:

علاء البيوك

Twitter: @alqareah

استهلال

يصدر هذا الكتاب في إطار خطة متكاملة لتحقيق وترجمة ونشر مجموعة مختارة من أعمال الرحالة والحجاج والأدباء الأوروبيين إلى الشرق، وذلك منذ أقدم الرحلات إلى هذه الديار وحتى الرحلات التي قام بها الأدباء والحجاج والسفراء والسائحون في مطلع القرن العشرين.

بما يشكل موسوعة معرفية متكاملة تكشف عن جغرافيا الشرق كما تمثلتها عبر العصور يوميات المسافرين الأوروبيين.

يسجل لأدب الرحلة الغربي إلى الشرق محاولته اكتشاف عالم مختلف ونقل الانطباعات عن هذا العالم لكن هذا الأدب كان في جانب منه قائماً على تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم، بوساطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والإيروسيِّ والعجائبيِّ.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتبٍ الرحلات هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على

Twitter: @alqareah

هذا الصعيد، يشكّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

والواقع أنه لا يمكن قراءة نصوص السفر الغربية إلى الديار المقدسة في فلسطين والأردن، أو إلى المناطق والأقاليم المجاورة، والشرق بصفة عامة، بمعزلٍ عن جملة التطورات التي شهدها التاريخ الأوروبي في علاقته بالعرب والشرقيين عبر محطات كبرى (الحروب الصليبية، سقوط القسطنطينية، سقوط الأندلس، نشأة الاستعمار الحديث) وبالتالي فهي نصوص تأسرها النظرة الغربية المسبقة إلى الشرق والشرقيين. ولا يجوز عزل هذه النظرة أيضاً عن استراتيجيات دول المركزية الغربية في التطلع نحو أراضٍ وأسواق واستثمارات في الشرق، وذلك في ظل حراك اجتماعي، سياسي، علمي، اقتصادي، عسكري، إمبراطوري الطابع، ومن ثم حركة دؤوبة للبرجوازية الوليدة في مجتمعات دخلت عصور الصناعة الثقيلة وتحولت إلى مراجل أكول لم يكن ليكفيها ما تملكه من ثروة خاصة بها، فراحت عينها تتسع أكثر فأكثر على ثروات الشرق، وقد رافقها في الرحلة إليه وصّافو الشرق من رسامين، ومستكشفين، ومغامرين عبر المدن والصحارى والجبال والسواحل قريبة وبعيدة عن عواصم الشرق.

بمتعةٍ وحبٍّ اكتشافٍ للنظرة المختلفة يمكن قراءة جزء من نصوص الرحالين الغربيين إلى الشرق والديار المقدسة، وبتحفظ

Twitter: @alqareah

وتنبه لما في السطور وبين السطور ووراء السطور يجب قراءة بقية الأجزاء. من دون إغفال أهمية هذه النصوص كوثائق عن رؤية الآخر لنا.

لم يقع اختيارنا على نصوص هذه السلسلة ترجمة ونشراً من باب تبني ما جاء فيها، وبعضه قبيح، أو مجافٍ للحقائق، إنما بصفتها وثائق أدبية وفكرية تعكس نظرة النخب الغربية المثقفة نحو الشرق وأهله وثقافاته، فهو هنا شرق الغربيين وليس شرق الشرقيين. وهي، غالباً، نصوص تكشف بجلاء، وأحياناً بشكل فاضح، عن تلك الاستعلائية الغربية الصادرة عن ثقافة متمركزة على ذاتها، ومطمئنة إلى مقاييسها. لكن الاطلاع على هذه النصوص واستكشاف ما فيها يبدو لنا فعلاً مهماً لابد لقراء العربية، على اختلاف مستوياتهم ومرجعياتهم ومشاربهم، أن يباشروه ليمكنهم أن يبلوروا فكرة أوضح عن نظرة الغرب إلى عالمهم، ليس فقط من باب الوعي بالأشياء، وإنما من باب تحديد قيمتها أيضاً.

بإنجاز هذا المشروع بشقيه الورقي والإلكتروني تتوافر المكتبة العربية على كنز فكري وأدبي أنتجته الأمم عبر قرون وما يزال أغلبه في مخطوطات، أو طبعات قديمة صارت خارج التداول، وبالتالي نتطلع إلى أن تكون هذه الموسوعة بمثابة ذخيرة للثقافة العربية تمكن من وضع شرق الرحالة بصورة موسوعية في متناول وعي الأجيال المقبلة.

محمد أحمد السويدي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

إشارة

النصوص المترجمة في هذا الكتاب بالجزء المخصص لفلسطين والأردن في أنطولوجية الرحلة إلى بلاد المشرق لكلود برشيه، وهناك ما يعود منها إلى غوستاف فلوبير ولامارتين.

* Berchet Jean Claude - Le Voyage en Orienti anthologie des voyageurs fransais dans Le Levant au XIX siécle - Laffont - Paris - 1982.

* Flaubert Gustave - Voyages - Présentés par René Dumesnil - Societe des belles Lettres - Paris - 1948.

* Lamartine Alphonce - Voyage en Orient - Librairie Hachette - 1910.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المقدمة

شهدت الفترة التي تلت عصر النهضة الأوروبية عادة الحج إلى الأراضي المقدسة فجاءها الرحالة: حجاج، شعراء، جنود، تجار، روائيون، فلاسفة، مغامرون، مبشرون، عشاق فاشلون، سياسيون، وعدد ضخم من السياح الذين أججتهم الروح الرومانطيقية أو دفعهم الفضول الرومانطيقي لرؤية الديكورات الشرقية، والسلوك والعادات الشرقية، والوقائع الحياتية الشرقية، أو الذين دفعتهم الموضة والتقليعة الأدبية لتصفح ألوان براقة وملونة من الغرائبية والحكايات المثيرة عن قطاع الطرق، والانكشارية البشعة، والباشوات العاشقين(*).

وقد كتب غوبينو ساخراً عن السياح الذين تطردهم الموضة كل ربيع من إسطبلاتها ليحققوا رحلة إلى الشرق! ثم يعودون إلى أوروبا دون أن يكونوا أكثر حكمة مما كانوا عليه قبل زيارتهم للشرق(**)، وكان غوبينو ذاته قد توله بالشرق من خلال مطالعته كتب الرحالة، وكان يحلم بالمساجد والمنائر، بل كان مستعداً أن يلتزم بالزهد ولا يأكل إلا البيلو ومربيات الورد، وكان يروي قصصاً عجائبية فيرغم

(*) انظر: Henri Bordeaux, Voyageurs d'Orient Paris, Plon, 1962.

(**) وقد كتب غوبينو: «إنه لمجد لامتناه لهذا الجبروت، ولهذه الحكمة والطيبة التي لم تشأ أن تكون بإمكان هؤلاء الخبثاء وهؤلاء الحمقى، أن يلاحظوا كمالها وأن يقيسوا عذوبتها». انظر بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق، رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، ترجمة د. مي عبد الكريم وعلي بدر، دار الأهالي، دمشق، 2000. ص 19 ـ 20.

Twitter: @alqareah

أصدقاءه على الجلوس على الطريقة الشرقية وهم يصغون له، وكان فلوبير وماكسيم دوكومب يصغون للفارس جوبير الذي نصحهم بالذهاب إلى الشرق وهو يقول:

(اذهبوا هناك واجتازوا المتوسط وحلوا أنى شئتم في مصر وسوريا وآسيا الصغرى، لا يهم سوى أن تتابعوا الرحيل)(*).

وهكذا كانت الرومانطيقية تتابع الرحيل إلى الشرق، بعد أن كانت الكلاسيكية قد سبقتها بكثير، فقد استمدت قوتها وسلطتها - أي الكلاسيكية - من الرحلات التبشيرية والإرساليات الدينية، وطواف الآباء الكبوشيين من أتباع الأب جوزيف الذين كانوا يبحثون عن التراث البيزنطي الذي قامت على جغرافيته الإمبراطورية العثمانية. ومن القصص والحكايات التي استمدت مسرحها من ديكور الشرق وعاداته وسلوكه، مثل الرسائل الفارسية لمونتسيكيو، ورواية صادق لفولتير، ورواية صفية لكريون، ومذكرات السراي لدوشامب، وحاجي بابا لمونتريون، ورقصة علي خان لمسترو دولاتور، كما كانت هنالك على المستوى الدولي متطلبات الحياة السياسية والحربية في أوروبا وذلك باختلاق المشكلة العثمانية، وكانت هنالك أيضاً متطلبات التجارة العالمية والتي يطلق عليها (سياسة كوبرت).

ومنذ ذلك الحين قامت أكبر ثورة شرقية في الثقافة الغربية كانت لها معاييرها وتراثها، وقد أفادت كثيراً من فلسفة عصر الأنوار ومن متنوري القرن الثامن عشر بدءاً من فولتير حتى مونتسيكيو. واستمدت هذه الفلسفة التواقة إلى كل ما يمت بصلة للمعارف الانثروبولوجية والإثنوغرافية والطبيعية ومصادرها من الرحلات إلى الشرق. إذ أنها عززت من خلال هذه الرحلات نظرياتها حول التعصب الديني، ونظريات الاستبداد السياسي، ومفاهيم العقلانية والتنوير واليوتوبيا، والمفاهيم التي كانت تطالب بها الأنتلجنسيا الغربية في إطار نشوئها الثقافي والسياسي والاجتماعي.

(*) المصدر السابق. ص 20 - 21.

Twitter: @alqareah

أما من جهة المصطلح ونشوئه وتكونه، ففي الواقع لم يستقر مصطلح (الرحلة إلى الشرق voyage en Orient) إلا في القرن التاسع عشر ومع الرومانطيقيين حصراً، وكان أول من استخدم هذا المصطلح هو لامارتين في رحلته إلى الشرق(*).

وقد خصص المعجم العالمي للقرن التاسع عشر لمؤلفه (بيير لاروس) عاموداً كاملاً للمعنى الجغرافي، وينتهي إلى القول بأنه من الصعب تحديد البقعة التي نطلق عليها الشرق. وفي الواقع إن هذه العبارة الغائمة، كانت نتاجاً استيهامياً صدر عن التمركز العرقي الأوروبي أكثر مما هو حقيقة موضوعية(**).

كما أن الرحلة إلى الشرق لم تكن ظاهرة سياحية حسب، إنما كانت الظاهرة السياحية واحدة من نتائجها، بل هي ظاهرة تتضمن الحلم والاستيهام والتمثل والكتابة والرسم والموسيقى والثقافة الاجتماعية والعادات والسلوك، فضلاً عن أنها كانت مادة للصالونات الأدبية كما حدد ذلك ريمون شواب(***) في كتابه المثير (النهضة الشرقية). وكان لها سمة التكرار والتعاقب حتى صارت لازمة، ولهذا شغل السراب الشرقي - وهي العبارة التي أطلقها لويس برترون - مكاناً بالغ الأهمية في الوعي الأوروبي في القرن التاسع عشر، هذا السراب الذي يكشف عن مخيال محكوم عليه

(*) كانت مفردة شرق نسبة إلى الأنسكلوبيديين الفرنسيين تشير إلى مفاهيم فلكية، أكثر مما تشير إلى مفاهيم أنتروبولوجية، وكانت كلمة شرق ملتبسة بحق، أما استخدام هذا المصطلح فقد مر عبر تطورات مختلفة في الثقافة الغربية. وقد قمنا بتفصيل تأريخ المصطلح في ترجمتنا لكتاب بيير جوردا، انظر: المصدر السابق، مقدمة الترجمة العربية، الصفحات: 13 - 14 - 15.

(**) Jean - Claud Berchet, Le Voyage en Orient, Anthologie voyageurs francais dans le levant au XIX siecle, Robert Laffont, Paris, 1985, P7.

(***) في تتبع شيف لريمون شواب في كتابه النهضة الشرقية يبين تأثير كوفيه على الصالونات الأدبية التي يرتادها أوان ذاك، وتأثير مفردة الشرق الساحرة على الأدباء الذين كانوا يرتادون هذه الصالونات:

Raymond Schwab, La Renaissance Orientale, Paris, 1950. P150.

Twitter: @alqareah

أن يعيد إنتاج الآخر بلا انقطاع. وكان هنالك جمهور بأكمله في أوروبا يبحث عن الرحلة إلى الشرق وهو جالس على الأريكة. كان يريد أن يجول في الشرق وهو غارق في أحلامه في منزل منعزل في أوروبا، فلم يكن بإمكان الجميع الرحلة إلى الشرق، إنما بقيت مقصورة على الطبقات البرجوازية التي صاغت مفهومها الخاص بها عن الشرق. فالطبقة السياسية والاجتماعية لم تكن متحررة من انشباكها السياسي والتصوري للعالم، لذلك بقيت هذه التصورات التي حكمت قروناً بأكملها مصاغة ومصنوعة من قبل طبقة واحدة، وتحت تصور ديني وثقافي واحد(*).

ومن الجدير بالذكر هنالك تمييز واضح بين نوعين من الرحلات، فهنالك الرحلة العلمية الخالية من الادعاءات الأدبية، ينشغل الرحالة فيها بشكل خاص بالوصف الاثنوغرافي والمناخي والنباتي والحيواني والمعدني والآثاري والاجتماعي. وكانت هنالك الرحلة الأدبية، وهي نوع من الخطاب الأدبي الذي يرتكز على مفاهيم استشراقية مصاغة بأسلوب سردي وبلاغي وشعري، وقد شهد القرن التاسع عشر تطوراً معاكساً للرحلة العلمية بوساطة الرحلة التي قام بها الأدباء، فالأدباء لم يذهبوا بعيداً جداً عن مسارات محددة لرحلتهم، ولم يجازفوا بالخروج عن الطرق المعهودة التي شقها الجنرال غورو فيما بعد، لأن لهم غاياتهم الثقافية والأدبية الخاصة بهم، ولم تكن المعرفة العلمية والانتروبولوجية تعنيهم على وجه الخصوص، وإن ارتكزت كتاباتهم على الوصف الاثنوغرافي، والوصف الجغرافي، والعناية بتكون المجتمعات والتاريخ والأساطير، فكان وجود هذا الأمر قائماً لتعزيز الوقائع السردية والسّيرية لرحلتهم، ولم يقصد منها

(*) لقد حلل تيري هنتش هذه المادة على نحو ممتاز، انظر كتابه:
L'Orient Imaginaire, Thierry Hentsch, Editions de Minuit Paris, 1988, P132 - 143.

Twitter: @alqareah

المعرفة المباشرة، ولكن المفارقة في الأمر هي أن هذه الرحلات التي ترتبط بالخيال في أحيان كثيرة كانت تستخدم في الخطاب السياسي الكولونيالي، وفي صياغة مفهوم الشرق - الآخر في أوروبا على نحو واسع(*).

لقد استقرت الرحلة في القرن التاسع عشر حول عدد من المدن الكبرى فضلاً عن المنطقة المحيطة ببحر الشمال، مثل: استنبول، القاهرة، بغداد، دمشق، القدس... الخ، فالرحالة - العالِم في القرن السابع عشر (نيبور مثلاً) كان قد ألف حياة القوافل وترك نفسه إلى الصدفة التي تقوده في تتبعه لطرق مختلفة، ومسارب متنوعة من المجاهل الشرقية، مما كان يؤدي بذلك إلى انحرافه، وضياعه أحياناً في الصحارى والجبال، بحيث يجعله هذا الأمر مكتشفاً لمجاهل لولا المصادفة ما كان له الحصول عليها، وهو ما يطلق عليه الاكتشاف العلمي، بينما كان الرحالة الأدباء يزورون المناطق ذاتها، والأماكن ذاتها، فتوافرت لدينا مجموعة هائلة من الملاحظات المختلفة، التي تخص رحالة مختلفين، لكنها تدور في أماكن واحدة.

وعند منتصف القرن التاسع عشر قدَّمت رحلة فلوبير ومكسيم دو كامب على العكس من ذلك أنموذجاً للمسار التالي: مصر - فلسطين - لبنان - آسيا الوسطى - استنبول - أثينا اليونان. إنه المسار الدائري الذي ابتدعه شاتوبريان والذي استعاده بلا انقطاع الرحالة الذين جاؤوا بعده مع بعض التنويعات(**).

(*) Ibid., P 133

(**) في الواقع كان حسن النوتي أول من بين أهمية رحلات الأدباء الفرنسيين إلى الشرق، وبيّن الطابع الرومانطيقي للرحلات الفرنسية على خلاف الرحلات العلمية ذات الطابع التجريبي، وقد اعتمد إدوارد سعيد اعتماداً كاملاً في كتاب الاستشراق على حسن النوتي في تحليله للفصلات الأدبية والاستيهامية في عمل الأدباء الرحالة، وللتوسع في هذا الأمر انظر:

Hassan al - Nouty, Le Proche - Orient dans la literature francaise de Nerval a Barres, Paris: Nizet 1858, P166 - 234.

Twitter: @alqareah

وهنالك دليل كان يتقيد به الرحالة يطلق عليه دليل جوان(*) حيث يقوم جميع الرحالة بتتبعه، فظهر أدلاء محترفون، وخبراء عارفون بطرق الحج، ووكلاء رسميون يقودون الرحالة من مكان إلى مكان، وهو الخط نفسه الذي يرتاده جميع الرحالة في زيارتهم للشرق، وتقع الأماكن المقدسة في القدس والجليل وبيت لحم في المقدمة.

ومن هنا نرى تشابهاً عاماً بين جميع الرحلات التي تدور في فضاء الأراضي المقدسة، بل حتى في المواقيت الدينية، من عيد الفصح إلى الأعياد الأخرى، لأنهم يذهبون هناك من عام إلى عام في المواقيت ذاتها، ويمكننا أن نميز بطبيعة الأمر معالجات مختلفة كانت تسم كل رحلة من الرحلات، فالفروق الظلية واضحة، ولكن الشيء الثابت هو أننا سنلتقي في جميع الرحلات بالفضاءات ذاتها، وسنجد أنها تتضمن أماكن واحدة، وأحياناً نعثر على الشخصيات ذاتها من رحلة إلى رحلة، أما المتغير فهو أسلوب المعالجة بين رحالة وآخر، وقد تكشف المعالجة عن مستويات عدة: أيديولوجية، سياسية، دينية ثقافية، فهنالك اختلاف بطبيعة الأمر بين الكاثوليكي والبروتستانتي، بين الملكي والجمهوري، بين الرومانطيقي وبين الذي يريد أن يشفى من الروح الرومانطيقية(**)، بين الذي يرسم خططاً استعمارية فوق الأماكن التي كرستها الكتب السماوية، وبين من يريد أن يستعيد ذكرى الصليبيين على هذه الأراضي، فقد كانت الكتب المقدسة تثير في نفوس هؤلاء الرحالة الباحثين عن المصادر الأصلية لثقافتهم، الانفعال، والذي يشتد عند عثورهم على صور

(*) يتضمن هذا الدليل مساراً واحداً ويقترح تقويماً مناسباً هو (البقاء شتاء في مصر، قضاء عيد الفصح في القدس، التحرك نحو جرش والبحر الميت شرق الأردن، ثم العودة إلى القدس والذهاب إلى سوريا في الصيف، ثم العودة إلى مصر). انظر:
Jean - Dlaud Berchet, op. cit., p13.

(**) صنع إدوارد سعيد تمييزاً رائعاً بين الرحالة الفرنسيين، لامارتين، شاتوبريان، فلوبير، طبقاً إلى النزوع الأيديولوجي والديني لكل منهم، انظر:
Edward W Said, L'Orientalisme, L'Orient créé par l'Occident, Seuil, Paris, 1997, P183 - 272.

Twitter: @alqareah

الحكايات المقدسة لطفولتهم، أي ذكرى تنشئتهم الطفولية، فإن كانت مدام دو غاسبران تنقل تحت تأثير الحماس الديني البروتستانتي صورة النعم العظيمة في إشراقة نهار يوم الأحد في عيد الفصح في القدس، وترى التوراة بلا إضافات أو اقتطاعات إنما مفتوحة على موضعها الأصلي، نرى الرحالة الكاثوليك يجدون في الشرق ذكرى الصليبيين، وسر اللغز العظيم في ضياء الشرق، هذا الضياء الذي كان يقول عنه لامارتين إنه الحياة الحقة، لقد ولدت هذه الحياة الحقّة من التصور الديني لأرض النبوءات، بعيداً عن المتروبولات الكبيرة التي طغى عليها اللون الأسود بكل أشكاله ـ الفحم والدخان والسخام والطين، وحتى الأعياد، فإن الرجل الغربي لا يرتدي فيها إلا اللون الأسود، ـ لقد ولد هذا الاستيهام من الرغبة الجديدة في الارتواء الحسّي والحاجة إلى تفتح جسدي جديد، وهي واحدة من الأسباب التي دفعت الرحالة إلى أرض المعجزات(*).

في الواقع إن أدب الرحلات ليس جنساً بالمعنى الشكلي أو الأسلوبي للجنس الأدبي كالرواية والشعر والدراما، إنما هو جنس أدبي بالموضوعية، فلم تكن هناك محددات شكلية أو أسلوبية لكتابة

(*) يؤشر كاستيلان في مقدمة كتابه الصادر في العام 1811 (مكثنا في القسطنطنية في نهاية الربيع، ففي هذا الفصل الجميل يعيش الشعب التركي منهمكاً بالألعاب والأعياد فقط، ويتمتع بلا هم بكل ملذات المناخ السعيد).

L. Castillan, Lettres sur les Moree, et Constatinople, second edition, Neveu, Paris, 1820, p12.

وقد سجل مكسيم دو كامب هذه الملاحظة: (يا لها من حياة جميلة هي حياة الأتراك، إنهم سعداء تحت سمائهم الصافية، فهم يدخنون التبغ الفاخر في غلايين تتضوع منها العطور، ويحتسون القهوة الشذية، ويفكرون بالحريم الغامض الذي تضمها مقصوراتهم، ويبحثون في الظل عن بقعة ليناموا فيها، يضطجعون في الليل، ويستيقظون في النهار، فحيث يكون التركي تراه يمسك شبوقه بيد وفنجان القهوة في اليد الأخرى، ويظل نائماً في أحلامه اللذيذة التي يوفرها له بعض الأحيان الحشيش الممزوج بالتبغ). وكتب نرفال: (سعيدون هم الأتراك حيث يرتاحون أبداً في موقع خلصائهم المتوفين، يجلسون في ظل الشجرة التي أحبوها، وعلى طرف التيار الجاري الذي سحرهم بهمسه، تزورهم الحمائم التي كانوا يغذونها في حياتهم، وتعطرهم النباتات التي زرعوها). انظر بيير جوردا رحلة إلى الشرق، مصدر ورد ذكره. ص 93 ـ 04 ـ 34.

Twitter: @alqareah

الرحلة، بل استخدم الكتاب - الرحالة جميع محددات الأجناس الأدبية، فاستعاروا التقنيات السردية والوصفية من الرواية، الاستعارات الشعرية والبلاغية من النظم، كما أنهم أفادوا من أدب الرسائل واليوميات والبورتريه والتأملات الغنائية، والقاسم المشترك بينهم هو أنهم حجاج، رحالة، أدباء، اتبعوا خطى شاتوبريان في كتابه (من باريس إلى القدس)، وساروا على نهج من أعلن متباهياً أول مسار للحج إلى القدس، إذ أنه بدأ رحلة حجه إلى الأراضي المقدسة في العام 1801. وقد كرس لرحلته ما يقرب الألف فرنك فرنسي آنذاك، ويروي شاتوبريان: إن أحد بواعث رحلة حجه هي أن ذويه قد نذروه وهو في عامه السابع في أحد أديرة بريتون إلى كنيسة عذراء الناصرة، وبأنه قد ذهب إلى هناك بحثاً عن الصور لا غير، وحينما كان في السفينة انتابته مشاعر الخشوع والإجلال:

(إذ كنت على وشك الهبوط على أرض المعجزات، وعلى منابع الشعراء الأكثر إدهاشاً، وعند الموضع الذي شهد الحدث الذي غير وجه العالم إلى الأبد، وأقصد به مجيء المسيح).

وأول ما يلاحظه شاتوبريان عند نزوله هو مغالاة على من سبقوه في تصوير انفعالات الحجاج، وما تولده هذه الأماكن لديهم من مشاعر:

(لم يصدر عن هذا الجمع من العجائز والرجال والنساء والأطفال عند هبوطهم على الأرض المقدسة، تلك التصرفات، والبكاء، وذلك النحيب الذي أراد بعضهم أن يصنعوا له رسوماً وهمية مضحكة، فقد كنا في غاية الهدوء، وكنت من بين كل الحجيج الأكثر انفعالاً بالتأكيد).

لقد كانت رحلة شاتوبريان جد شاعرية، إلا أنها لم تكن تنفلت من الطابع المفكك الذي وسم جميع الرحلات التي تلته، والتي حاولت الحفاظ على الطابع المعاش للرحلة، وحاولت أن توهم بشكل كبير بالصدق الواقعي، وكان البعد السّيري يظهر من خلال تفككها،

Twitter: @alqareah

وعفويتها، وطلاقتها. فقد كان الرحالة يحرص على تقديم المادة الكتابية دون عناية، لكي يستطيع الحصول على أكبر قدر ممكن من إيهام القارئ، وإقناعه بأن ما كتبه كان مرتجلاً، حتى أصبح الكاتب يكتب من خياله أكثر مما كان يشاهده حقيقة. وقد اكتشف الجيل التالي هذه الخدعة الرومانطيقية، بعد أن توافدوا إلى الشرق، وعرفوا مقدار الوهم الكبير الذي صنعه الكتاب في الشرق، وهم من أطلق عليهم بيير لوتي بـ (المبرئين من السحر)، وقد نقل برشيه عن موريس بارس الملاحظة التالية:

(بعد ثلاثين ساعة قضيناها في البحر، وصلنا بيروت هذا الصباح، لم يكن هناك سوى الضباب السميك الكوني المثقل بالمطر، لم يكن هناك أي لبنان! كان ينبغي البحث على اليمين، على اليسار، أو فوق رؤوسنا.

تصوروا خيبة الأمل التي أصابتني عندما وجدت ستارة مسدلة على أول عجيبة واجهتني في رحلتي، وخيبتي أمام ما يذكره الرقم الأول في كراسي المثالي والذي يحمل عنوان «منظر لبنان من البحر، كما يصفه لامارتين»)(*).

في الواقع إن خيبة الأمل هذه التي شعر بها أغلب الرحالة، هي بسبب المبالغات التي حملها تصوير الشرق من الجيل الأول إلى الجيل الثاني، ويقصد بيير لوتي بكتابه الذي أطلق عليه (المبرؤون من السحر) انقشاع الوهم عند أول رحلة للشرق، نسبة إلى الجيل الذي تلا شاتوبريان ولامارتين.

في الواقع، تشترك جميع الرحلات بذلك الميل المضطرد لمعالجة الواقع الشرقي بوصفه لوحة شعبية من الدرجة الثانية. إن تعبير بارس عن لا مارتين وعن هذا الشعور بانقشاع الوهم الذي يتحدث عنه بيير لوتي، طالما كتب عنه الرومانطيقيون. وسنجد ما

(*) Jean Claude Berchet, op. cit., P21

Twitter: @alqareah

يماثله لدى أغلب الرحالة الذين حملوا تصوراتهم من أوروبا عن الشرق، ووجدوا صوراً مناقضة لها بالكامل، بل إن ما قاله شاتوبريان عن الرسامين، يشبه ما قاله بارس عن لامارتين، ويشبه ما قاله نرفال إلى تيوفيل غوتييه:

(آه يا صديق، كم رأينا نحن الاثنين خرافة الرجل الذي يجري وراء الثروة وهو على سريره) ثم يسترسل في سرد شفائه من الوهم:

(فأنت ما زلت تعتقد بطائر أبي منجل، وزهرة اللوتس الحمراء القانية، والنيل الأصفر، وتؤمن بنخلة الزمرد، والصبار الهندي، والجمل وحيد السنام... ولكن للأسف فطائر أبي منجل هو طير بري، والنخلة بهيئة منفضة الريش الهزيلة، والصبار الهندي ليس سوى صبار بري، ولا يوجد بعير إلا وهو في هيئة وحيد السنام، والعالمات هن أشبه بالذكور، أما ما يخص النساء الحقيقيات، فأنت سعيد لأنك لم تلتقِ بهن...).

وبعد ذلك يقول نرفال إلى تيوفيل غوتييه:

(آه كم هي جميلة القاهرة... ولكن من باريس...)(*).

ومن خلال وصف تصويري بارع تعبّر الكونتيسة غاسبران عن امتعاضها مما رأته خلال زيارتها لضريح السيد المسيح من أفعال تقوم بها الجموع المحتشدة هناك من حركات مبتذلة وجنونية، فجاءت صفحاتها معبرة للغاية عن هذا الانغماس الجماهيري في هذه (الحيوانية الشرسة) وانجرافها في تلك التموجات الجبارة التي تدعك آلافاً من الكائنات البشرية التي تحملها، وهي تقفز على الرؤوس وتنطمس ويتصاعد زعيقها، وكأنه قذائف من الزبد، وكانت تتساءل عن وجه الصلة بين هذا السعار في تأدية الطقوس وبين الإيمان الحقيقي:

(*) انظر: Gerard de Nerval, Oeuvres completes, Tome II, Voyage en Orient, Pleiade, Paris, 1956, P327,

Twitter: @alqareah

(لقد أجازوا هنا وأمام قبر المسيح وباسم المسيح القيام بأكثر الأعمال جنونية وفظاظة، إنه السعار والهستيريا والتشنج).

كما أن فلوبير(*) الذي كان الحج بتقديره مناسبة لاختبار صدق مشاعره الدينية وقوة إيمانه، يعبر بعد انقضاء اليوم الثالث على وجوده في القدس، بأنه لم يحصل بعد على أي من الانفعالات المتوقعة مقدماً، فلا حماسة دينية، ولا إثارة في الخيال، ولا حقد على الكهنة. وقد أحس أن كل ما رآه لم يكن سوى وهم، وأنه كان أكثر خواء من برميل، أفيكون مرد ذلك إلى كل الذين عادوا من رحلة حجهم محملين بصور وأوهام لا أساس لها من الصحة؟ أكان كل زوار الشرق هم من الكذابين؟ لقد دعا فلوبير إلى تصديق المثل العربي القائل: (لا تصدق الحجي)!

انطلاقاً من هذه الثيمات تحددت في أدب الرحلات مواقف وأحكام متعددة ومتنوعة، لأن الرحالة كان يعتمد اعتماداً كلياً على الملاحظة المباشرة، فكان منهم من أصابه الخوف من الأتراك مثل شاتوبريان وكينيه وفوغويه وجيد وموريس بارس، وكان منهم من يتعاطف بشكل لا محدود مع المسلمين مثل لامارتين ونيرفال ولوتي، وكانت لكل واحد منهم أسبابه، ولكن ما يهم هنا ليست تفاصيل المواقف بقدر ما تهم البنية الشاملة للرحلة، فبالنسبة لفرنسا التي طغت عليها شعارات الثورة كان وعي كتابها يعيش على المستوى المادي والاجتماعي أشد التغيرات عمقاً في تاريخها، وبدأ الشرق يجسد حلماً دائماً لا يتغير، فهو يديم الماضي دون أن يغيره لأنه ساكن ومستمر في وجوده دون أن يتحول، وبالتالي فهو يرضي حنيناً بدائياً لدى الرحالة الغربي الذي سيشعر فيه باستمرار على ما وقعت عليه عيناه في الكتب سلفاً. إنه وهم استعادي يحول أصغر حمل إلى وليمة هوميرية، وأصغر بدوي إلى صورة بطريركية وأصغر فتاة شابة إلى ربيكا.

(*) Pierre Jourda, L'exotisme dans la litterature francaise, presses universitaires de france, Paris, 1848.

Twitter: @alqareah

إذن يرتبط الشرق بالماضي على نحو مضاعف وعضوي، طالما أنه يحفظ واقع هذا الماضي حياً على شكل نماذج بشرية وسلوكيات وملامح تشكيلية يحرص الرحالة على جمعها كما لو كانت صور ألبوم العائلة.

وقد استخلص فوغويه من هذه الرحلات الملاحظة التالية:

(إن السفر إلى الشرق يعني أن نعيش من جديد في الحاضر المراحل المتنوعة لتطورنا نحن، إنها تجربة متزامنة لم يعد بمقدورنا استيعابها إلا تعاقبياً).

وهذا يعني بالخلاصة أن زيارة القدس أو القاهرة كانت توفر فائدة لفهم العصر الوسيط أكبر من كتاب لمشليه، وهكذا فالعالم الشرقي يبدو وكأنه أوقف الزمن فبعد لامارتين انسحر نيرفال عندما رأى لبنان وقال:

(إن عصراً انطباعياً ما زال موجوداً بكل مؤسساته مثل حجارة الحصن).

وهكذا كانت النظرة إلى الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم، فهنالك على الدوام صور الكتاب المقدس مثل دليل الحاج، حيث يقوم الرحالة بالنظر إلى القدس أو الخليل أو بيت لحم أو الناصرة، أو البحر الميت وجبال أريحا وكأنه يريد أن يرى الحياة البدائية الأولى لحياة المسيح. وكلما وصلوا إلى صورة تذكرهم بالتوراة أو الإنجيل فإنهم سرعان ما يضعون الشخصية الدينية أو التاريخية حاضرة، فهذا إبراهيم وهو يتلقى الوعد، وهذه هاجر وهي تطبخ تحت الرماد، وهذه مريم عند النبع، وبنات مدين وسليمان الحكيم وموسى والخ...

الرحالة والعودة إلى الأصل

في الواقع كان هنالك هوس بكل ما هو شرقي، هذا الهوس الذي شمل الحضارة الغربية بأكملها، حتى تحول إلى سلطة غالبة

Twitter: @alqareah

فرضت نفسها على طقم كامل من التصورات النظرية والفكرية والمنهجيات السياسية والاجتماعية، فجاءت الرحلة إما لتدمير هذه الوساوس، أو لإشعالها بوساطة فرض نظام تصوري كامل على الفضاء الذي تدور فيه الرحلة. فقد اتخذت الرحلة في القرن التاسع عشر سمة الاحتفالات الطقسية الجماعية، لأنها تحتوي على قيمة أسرارية اجتماعية غايتها التأكيد على النظام الثقافي الغربي، فقد كانت نوعاً من التمثل للمصدر الأساس الذي نشأت على ضوئه الحضارة الغربية، لأن الثقافة الغربية طارت بجناحين جناح التراث الإغريقي من جهة، وجناح اليهومسيحي من جهة أخرى، وكان الشرق وهو الجغرافيا التي وقعت عليها جميع أحداث التوراة، يمثل للرحالة في ذلك العصر طقساً لاجتياز أمثل، واحتياز أمثل، ذلك لأنها كانت تسمح بالعودة إلى أصول الثقافة الغربية ومصادرها الحقيقية والاحتياز عليها. إنها عودة إلى ما يسميه بالانش مهد الحضارة الغربية النشوكوني، وقال برشيه بحق:

(لكي يبلغ القرن التاسع عشر الأوروبي التركيبة الكونية التي قدر أن من واجبه تحقيقها، فقد أحس بالحاجة إلى العودة إلى الأصل)(*).

في الواقع هنالك ربط واضح بين الاستشراق وهو عمل تأريخي فقه لغوي، وبين الرحلات التي جاءت تمثل هذا الاحتياز الأمثل للجغرافيا التي تشكل مادة التوراة والكتب المقدسة الأخرى، فقد كان علم تحقيق النصوص التراثية، والبحث عن الجغرافية التوراتية، والتحرك نحو الشرق وهو في الشق الأعظم البحث عن الآثار المطمورة، والتنقيب عن اللقى، وإماطة اللثام عن الحضارات القديمة، وتفكيك الشفرة، والترميم، يتوافق مع نزوع ثقافي كامل في

(*) انظر: Jean Claude - Berchet, op, cit., P22.

Twitter: @alqareah

الثقافة الغربية بحثاً عن الرحم الأول بوساطة الرحلات، لقد أكمل الرحالة الديكور الذي كانت الأبحاث العلمية والفقه لغوية بحاجة إليه، وهي الوقائع الحية والمتحركة للمسرح الذي دارت عليه أحداث الزحف الغربي.

لقد ازدهرت في الفضاء الرومانطيقي آليات التأويل والهرميونطيقيا بالتوافق مع تطور منظومة الاستشراق بوصفها المعرفة الخابرة بالشرق ووصفه وتمثيله. وكانت آلية التأويل التي مارسها الاستشراق بشكل كامل في صناعته وتكوينه لصورة الشرق بوصفها نوعاً من الامتلاك والاحتياز، تكمن في محاولة إضفاء معنى أوروبي محدد على الشرق، ومحاولة اختزال تعددية معانيه واختلافاته، وبالتالي يتحول الشرق إلى مخطوطة لا يعرف قراءتها إلا الغرب، ومن ثم ستكون له الشرعية بامتلاكه(*).

إن إحدى الصور الأثيرة التي كانت لدى الرومانطيقي هي المخطوطة، وكانت عملية البحث عن المخطوطات تشكل واحدة من أهم الأعمال التي يقوم بها الرحالة المستشرق لاستجلاء التاريخ الثقافي والفكري لمهد الديانات السماوية، وكانت العلامة الممحوة في المخطوطة التي تجعل المعنى غامضاً هي الهدف الأساس في عملية البحث والاستجلاء، وهي التي مهدت الطريق لظهور فقه العلم المقارن من جهة، والهرميونطيقيا الغربية من جهة أخرى. وكان الهدف هو إزالة الغموض عن الكتابات الموجودة على السطح كي تبعث الماضي الذي شكل الرحم الأول للحضارة الغربية وقال برشيه:

(إن العلامة الموجودة على الطرس تجعل المعنى غامضاً، بيد

(*) في مقالة سجالية رصد علي بدر الفضاء الرومانطيقي الذي انتعش فيه التأويل وفقه اللغة المقارن والاستشراق في الثقافة الغربية، وقد ربط بين عملية الاحتياز على الثقافة الشرقية من خلال التأويل، وبين الزحف الكولونيالي على الشرق. انظر: علي بدر، الاستشراق الأدبي وحدود التأويل في الهرمنيوطيقيا الغربية، مجلة الأديب المعاصر، العدد 49، بغداد، 1998، ص 47.

Twitter: @alqareah

أنه من الممكن الوصول إليها، لأنها في الواقع موجودة على الطرس في الخلف أو تحت، ويكفينا إزالة الكتابات عن السطح، ونكف عن رؤيتها كي تبعث ماضينا وصلاحنا. إن تصور الشرق كالطرس يعني أن نجرد الإسلام المغتصب من قيمته، واعتباره بين معترضة تاريخية عند ذلك نسترجع إرثنا)(*).

في الواقع كان البحث عن الأماكن المقدسة في الشرق وزيارتها يشبه البحث عن الكأس المقدسة في العصور الوسطى، لقد كان هنالك هاجس لدى الرحالة يقوده للبحث تحت هذه الأنقاض المطمورة عن سر ما، سر يمكنه أن يستجليه في حقيقة ثقافته الغربية وحضارته، في الواقع كان هنالك نوع من البحث عن العودة الرمزية إلى البلد الأصل(**)، حتى تحول هذا البحث إلى مشروع كولونيالي.

إن الظروف التي كانت تحيط برحلة لامارتين لم تعد خافية على أحد، بدءاً بالقصيدة التي ألقاها قبل مغادرته مارسيليا، والتي أعلن فيها عن معنى حياته، ومعنى وجوده، وأعلن فيها عن القوة التي ينطوي عليها الشرق ببعث الحياة الأولى من جديد، وعن الروح التي يمكننا أن نجليها تحت الشمس والسماء وأرض المعجزات، وانتهاء بخطبة السيد هيبولت دو فيلينيف الذي يسميه تييري هنتش بـ (نذير الحرب في الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب والفنون في مارسيليا)(***) إذ قال موجهاً كلامه إلى الشرق:

(استقبلتِ في الماضي أبناء المحاربين، وفي الأمس القريب طبع الرجل العظيم الذي هز العالم على جبينك ببصمته الدامغة، وتعرفت على الأكثر شهرة من بين كتابنا. وها أنت تستقبل اليوم

(*) Op. cit., p23.

(**) الأرض الأم عبارة استخدمها نرفال في رحلته إلى الشرق، الرحم الأول استخدمها لامارتين، وكانت الصحراء تشكل لدى بيير لوتي نوعاً من الوطن الأصلي.

(***) Thierry Hentsch, op, cit., p273.

Twitter: @alqareah

الشاعر الأكثر شهرة وشعبية من بين شعرائنا. ونحن إنما تركناك تملي النظر من كل رجالنا العظام، فذلك لأننا أردنا تحقيق حربنا الصليبية الجديدة)(*).

لقد كان الشرق بالنسبة إلى لامارتين نوعاً من الوثوب الحيوي، والتعميد المحسوس، وترك الالتزامات العبثية لوجوده الدنيوي، لينفذ إلى وتيرة حية جديدة وفي طبيعة تذكره بالعظمة البدائية للخليقة، فلم تكن الرحلة هي حياة الحرية والأحلام التي يحلمها فوق الجواد والمخيم والسماء المرصعة بالنجوم ومتعة النظر والجسد المتوافقة مع الكون، إنما هذه جبال السامرة التي حلم بتشييد مستعمرة عليها:

(كم من المواضع اخترت من هناك في مخيلتي لأشيد عليه منزلاً أو قلعة زراعية وأسست عليه مستعمرة مع بعض الأصدقاء من أوروبا وبضعة مئات من هؤلاء الشبان المحرومين من كل مستقبل، والذين تمتلئ بهم أرضنا!

إن جمال الأماكن وجمال السماء والخصوبة السخية للتربة وتنوع محاصيل المناطق المعتدلة التي بالإمكان زراعتها في هذه الأرض، وسهولة الحصول على الأيدي العاملة الرخيصة هناك، والقرب من البحر الذي يسهل تصدير المنتجات، والأمان الذي بالإمكان الحصول عليه بيسر إزاء عرب نهر الأردن، وذلك بتشييد حصون قليلة عند منافذ هذه الروابي، كل هذه الأمور جعلتني أختار هذا الجزء من سوريا لأقوم بالمشروع الزراعي والحضاري الذي أوقفته منذ زمن).

لقد حاولت الرحلات إخراس الحقيقة الحية الحاضرة للمكان المنقول، وإخضاعه لأحلام الرحالة، إخراس الحقيقة الحية

(*) يقصد بابناء المحاربين هم الصليبيون، والرجل الذي هز العالم هو نابليون، والأكثر شهرة بين الكتاب هو شاتوبريان، والشاعر الأكثر شهرة وشعبية هو لامارتين. والذين استقبلهم الشرق على التوالي.

Twitter: @alqareah

الحاضرة للمكان المنقول، وإخضاعه لأحلام الرحالة وأهوائه ورغباته وثقافته، وحتى إلى وساوسه، وقد أرادت الرحلات أن تكشف تحت المكان المسكون، الحقيقة التي يبحث عنها الرحالة. لقد كان هنالك على الدوام نوع من العطش الدائب للتيهان على هذه الأرض المسحورة، وتذوق سعادة العيش داخل الحدود التي تمنحها الذاكرة أكثر مما تمنحها الواقعة على الأرض، لقد خضع الشرق إلى تحول حقيقي وتحرر أمام النشوة الحسية التي يريد الرحالة تنفيذها على الجغرافيا، لقد كان الشرق بالنسبة للرحالة الغربي صورة تتراءى في النظرات السكرى للدراويش، صورة مخلوقة في الفضاءات التي خلقتها أحلام الحشيش والكيف التي صورها الرحالة في كتاباتهم، صورة عن المتع الخالصة واللذائذ التي كان يتمتع بها الشرق على نحو حر، وهي في النهاية نوع من تذوق الانخراط السعيد في العالم.

لقد حفلت كتب الرحلات بهذا الحلم الجميل، الحلم الذي قادهم ودفعهم إلى المجاهل الشرقية من أجل الابتعاد عن حضارة الرفاه المادي، والانغماس في الطفولة البدائية للعالم. فكانوا يبحثون في الصحراء عن اللذات التي لا تنتهي، عن الليالي الهادئة، الليالي النقية للغاية، يبحثون عن السماء اللازوردية، وعن البحار اللامعة جداً، والعجائب الباذخة، وحرصوا على التمثيل السحري للأزمنة الغابرة، وذلك من خلال تصوير الخيمة، والجمال وحيدة السنام، والنار الخافتة حيث يركع العبيد على ركبهم، بينما كانت الانكشارية البشعة تمارس أنواع الاستبداد على مقربة منهم.

لقد أصبحت الأوهام حقيقة حاضرة، كما انبثقت الصور المكتوبة من بطون الكتب وارتسمت على الأرض، وفي كل هذه الرحلات يمكننا أن نرى الشرق لفظة ساحرة، مارست نوعاً من السلطة في توجيه الرغبة في القرن التاسع عشر بصورة ثابتة نحو موضوع مثقل بالمعنى، مثقل بالدلالة، نحو موضوع هيمن على

Twitter: @alqareah

الخيال والثقافة والسياسة والآداب بشكل كلي، وتحول من فضاء الجغرافيا إلى فضاء الأسطورة، وهو فضاء اخترقته اندفاعات متناقضة، وأهواء متناقضة، لها علاقة بالطبيعة والثقافة، والدين، والتاريخ، ثم تحولت إلى أرشيف، ونصوص، وخطابات، بل تحولت إلى منظومة خطابية كاملة، منشبكة بالتاريخ الغربي على نحو شامل.

وهذا ما نراه بشكل واسع في الرحلات إلى الأماكن المقدسة، فقد رحل شاتوبريان في العام 1896 وكتب كتاباً ممتعاً دشن مسار الرحلة. وما إن نشر كتابه حتى توافد الأدباء الرومانطيقيون إلى القدس وبيت لحم والناصرة وأريحا والبحر الميت ليكتبوا هم أيضاً تصوراتهم، ويعيشوا مغامراتهم، واتباعهم للعادات القديمة.

الرحلة إلى الأماكن المقدسة

في هذا الكتاب حاولنا أن نبين المكانة التي احتلتها الأماكن المقدسة في أعمال الرحالة الفرنسيين، وهي مهمة لنا في الزمن الحاضر كي نتعرف على الطبيعة الاجتماعية والاثنوغرافية والتاريخية للحياة العربية في القرن التاسع عشر، ويمكننا أن نرى من خلال هذه المقاطع الجذابة الأماكن المقدسة في فلسطين والأردن لما لها من أهمية ثقافية واجتماعية ودينية وسياسية في الزمن الحاضر.

كتب إدوارد سعيد عن المكان بوصفه المدى الذي يكون فيه فن الذاكرة للعالم الحديث شيئاً يمكن للمؤرخين والمواطنين العاديين والمؤسسات استعماله وإساءة استعماله وتوظيفه بدلاً من كونه شيئاً كامناً يمكن لأي شخص امتلاكه واحتواؤه.

كما يمكننا أن نعثر من خلال هذه الرحلات على رؤية الآخر لنا في القرن التاسع عشر، وعلى الرؤية التي ألفتها الثقافة الغربية لشرقنا العربي في ذلك الوقت، فقد اتصفت الرحلات بشكل عام بعرض الفصول المشوقة عن الأماكن المقدسة. وكان هنالك نوع من الحرص المتزايد على نقاء النظرة ينتهي بالرحالة إلى مسرحة

Twitter: @alqareah

القدس والأماكن المقدسة وتحويلها إلى موضع يدور التاريخ الحي فيه. وقد اشتملت على رسم للوحات السلوكيات والمؤسسات والأعراف، إلا أنها جعلت منها فسيفساء مشعشعة وقطعتها إلى مجاميع من الخرائط المكبرة الثابتة، نقوم نحن بتأطيرها تبعاً لشفرة الرسام ـ الرحالة:

فنحن نجد أولاً: الطريق إلى مدينة بيت المقدس.

حيث يقوم الرحالة بوصف عام يهيئنا للدخول إلى المشهد، ويحاول أن يستذكر جميع الفصول اللازمة لذلك، ومن ثم يقوم بوصف المكان من الخارج. وبعد ذلك ندخل معه إلى المكان مستخدماً الفعل المضارع، وهو يخاطب القارئ بأنه يرى المكان في اللحظة الحاضرة، كي يدخل في عملية القراءة المشاهدَ وهو على مسرح الأحداث.

وبعد ذلك يأتي الانتقال إلى مشاهد الطوائف والأديان وأماكن عبادتهم ووصف شخصياتهم، وفي الخلفية تصوير الجنود الأتراك، وأبهة الباشا، والبدو الرحل الذي يبيعون في المدينة أكوار الصوف والسمن والعسل.

وأخيراً ننتقل مع الرحالة إلى المشاهد الخارجية للأماكن المقدسة وهي الجبال المحيطة بالبحر الميت وأريحا ليكون المشهد كاملاً.

ويتابع الرحالة حركته وانتقاله على مدى صفحات من الوصف الشّيق للبدو الرحل، والحياة العربية، والخيام المنصوبة في العراء، والقوافل التي تلتجئ للخان. ويسرف في وصف نساء القدس والناصرة، والفتيات اللواتي يتجمعن عند النبع، وفي تصوير ملابس المسيحيين واليهود والمسلمين. ويكمل المشهد بوصف عارض للمتسول أو للحاج الذي يحتضر، أو للطفل المشرد، أو الجندي التركي الذي يضرب بعصاه الحجاج، أو الباشا في أبهته وترفه.

وهنالك المسرح الجغرافي على الدوام:

Twitter: @alqareah

جبل الزيتون، جبل السامرة، جبال أريحا، البحر الميت، بحيرة طبريا، نهر قدرون، ولا يفوت الرحالة أن يكمل المشهد الجغرافي بالحكايات الخطيرة والمغامرات، فقصة (أبو غوشة) في جبال أريحا، كانت لازمة في كل رحلة تقريباً.

فقبيلة (أبو غوشة) كانت هي المسؤولة عن مرور الحجاج إلى القدس، ومن هنا تأتي معاناة الرحالة أو مغامراتهم مع هذه الشخصية الأسطورية. لقد ذكر شاتوبريان في رحلته عن معركة وقعت بين رجاله والبدو بصورة حية، وقد صور إحدى الشخصيات العربية وهو علي آغا الذي يقوم بإنقاذه من موت محقق، ويغمر لامارتين بدخول القلعة الرومانية التي كان يسكن فيها أبو غوشة مع عشيرته، ويرسم لحظات الخوف والترقب حتى خروجه سالماً. وكان الوصف الذي قدمه بيير لوتي في خان القوافل للعائلات المسيحية العربية التي تلتجئ للخان وصفاً حياً، وقد صور الأدلاء العرب الذين يغازلون السائحات الأميركيات وهم يضعون العمائم على رؤوسهم ويتركون خصلة من الشعر على وجوههم.

وقد اتصف أغلب الرحالة بدقة الوصف الذي يقترب من اللوحة الفنية، فقد كانوا يجمعون الملاحظات الدقيقة والصور والمشاهد ويضعونها في ديكور الرحلة، حتى يخال لمن يقرأ هذا الوصف ويتابع دقائقه بأن الرحالة قد أمسك بقلمه كما يمسك الرسام ريشته لينقل جزئيات ما تراه عينه. وكان الرحالة على الدوام حريصاً على تسجيل المشهد بجميع أبعاده، وضبط ألوانه، ونقل كل حركة فيه، وكان يولي عناية كبرى إلى الانحناءات والتقوسات وأنصاف الألوان، وربما أبدع لامارتين في وصف تلك المرأة الجالسة على الأريكة وابنتها بالقرب منها، فقد كانوا متأثرين بفن استشراقي كامل ظهر في أوروبا من ديلاكروا وحتى كارلو دوليجه أو فرومنتان.

ويحرص الرحالة على نقاء النظرة، مع الارتقاء بنصه إلى

Twitter: @alqareah

مرتبة رفيعة، ومنها كان الرحالة الأوروبي يأتي في القرن التاسع عشر إلى الأرض المقدسة حاملاً في رأسه ذكريات وحكايات قرأها في طفولته وشبابه في الكتب السماوية، فيكتب مستوحياً أفكاره من قراءته للإنجيل، فقد جاء إلى أكثر أماكن الشرق قدماً، وهو شرق الذكريات والآثار الموحية والأسرار المنسية بحثاً عن موضع ليسوع، وهو يعلم أنه في هذا المكان يختفي سر اللغز المقدس.

بعد أن طاف لامارتين في الجليل Galilee وهو البلد الذي فضله المسيح على هذه «الأرض» وصل إلى القدس التي دمرها الطاعون، وساهم موت ابنته، الذي وقع بعد زمن قليل من عودته إلى بيروت، في إبراز اللون المأساوي لروايته للرحلة، والتي قابلت بين مسرح الغبطة des Beatitudes وطريق الآلام la Passion ولكن تأملات الشاعر بالقرب من القبر الخالي كانت دون أوهام. إذ كان جوابه الوحيد على أكثر الألغاز روعة، هو صمت المعاناة والشك.

لقد سلك لامارتين طريقاً تخللته شواخص من حياة المسيح، فهذه غابة الجسمانية التي كان ينعزل فيها، والمكان الذي كان يتعذب فيه، ويهرب إليه من اتباعه.

فلم تكن حكايات الكتاب المقدس ـ سواء بأماكنه أو بشخصياته أو تفاصيل حياته ـ تغيب عن ذهن الرحالة، إنما يكمن سعيه في إرجاع ما يراه من مشاهد إلى أصولها في الحكايات، وكان يبحث في المظهر العام للأماكن والعادات المحلية المستقرة، عن الملامح الأولية اللازمة لترميم أطر الحكاية الإنجيلية وفهمها على نحو أفضل، وعندما عسكر فوغويه عند مدخل المدينة، وجلس تحت أشجار الزيتون قرب الينبوع بعد زيارته للمعابد التي كرستها الأساطير الدينية، تأخر في الجلوس عند هذا المكان ليتأمل النساء اللواتي كن يأتين لينهلن الماء من الينبوع، فتجلت له مريم التي كانت تأتي إلى هذا المكان صباح كل يوم، واضعة برشاقة جرتها على رأسها، وهي ترتدي على غرار هذه الشابات الجميلات القميص

Twitter: @alqareah

الأبيض الطويل المفتوح عند الصدر، وتتحدث بلغة قريبة من لغتهن، بل ولها ملامح إحداهن.

وبالتالي فهو ما إن يرى هؤلاء النسوة، وينظر إلى الأرض التي ولدن عليها، حتى تنبعث الحكايات المؤثرة التي تعلمها في طفولته من جديد، وهي بكامل واقعها الحي. وحتى الخبز الذي كانت تطهوه النساء وهو خبز الشعير، هو الخبز البدائي الذي كان يؤكل في هذه المنطقة منذ زمن الأنبياء، ويذكره بما قاله النبي إبراهيم لسارة عند استقباله للملائكة:

(اطهي الخبز تحت الرماد).

غالباً ما كان يتعرض الرحالة في معايناته إلى أنماط حياة القوميات والطوائف والملل ومقارنتها ببعضها، فيقترب بذلك من المنهج الأثنوغرافي الوصفي. وكانوا يطلقون - رغم ادعائهم الموضوعية - أحكاماً تقويمية، ويبلورون انطباعات شخصية.

فيقارن شاتوبريان الذي سبق له أن سافر إلى أميركا بين العربي والأمريكي ويحكم على ما فيهما من طباع وحشية، بينما تتجلى وحشية العربي عند مستوى فمه، إذ ما إن يبدأ العربي بالكلام حتى تسمع لغة صاخبة وملفوظة بملء النفس، وتلحظ أسناناً طويلة فاتنة ببياضها كأسنان ابن آوى، أو النمر الأبيض، بينما تظهر ضراوة الأميركي في نظرة عينيه.

وبعد أن يشيد شاتوبريان بالعربي مقارنة بالأميركي يقول:

(إن ما يميز العرب عن شعوب العالم الجديد، هو أنك تشعر على الرغم من فظاظتهم بنوع من الرقة في سلوكياتهم، فالمرء يشعر بأنهم قد ولدوا في هذا الشرق الذي خرجت منه كل الفنون وكل العلوم، وكل الأديان. وهناك بين الأقوام المنحدرة من إسماعيل خدم وأسياد وحيوانات أليفة، وحرية تخضع إلى القوانين. أما إنسان الأقوام الأميركية فهو مايزال يعيش وحيداً للغاية مع استقلاليته

Twitter: @alqareah

الفخورة القاسية، وهو يأنف من التمر والرقي وحليب البعير، ويطلب ولائم من اللحم والدم).

ويخلص في حكمه إلى أن كل شيء لدى الأميركي يعلن عن البرّي الذي لم يصل بعد إلى حالة الحضارة، وكل شيء لدى العربي يدل على الرجل المتحضر الذي انتكس إلى الحالة البربرية.

وبقدر ما يشدد الرحالة على تعسف الأتراك، إلا أنهم يعترفون لهم بدورهم في منع الطوائف من الدخول في النزاعات الدينية. وغالباً ما يقف الرحالة على وصف الأحياء التي تسكنها الأديان الثلاثة: (الإسلامي، المسيحي، اليهودي)، ويقارن بين معابدها. فبعد أن يطوف لوتي في القدس يصف مسجد عمر، ثم يقوم بوصف الكنائس المسيحية في المدينة المقدسة، وتأخذه قدماه لزيارة الحي اليهودي، ويشدد على أن اليهود في المدينة المقدسة داخل الحي اليهودي هم مهاجرون بولونيون، جاؤوا من هناك وليس لهم ما يربطهم بهذه المدينة، ويسجل ملاحظاته حول ما رآه هناك من مظاهر سلوكية وأزيائيه وطقسية، ثم يغادر المكان الذي كان يشعر فيه رغماً عنه بهواجس سرقة وعيون شريرة وملعونة. ويحس بالراحة عندما يرى بدل الرؤوس المطأطأة لليهود الرؤوس العربية الجميلة، وبدلاً من الأثواب الضيقة، الأرواب الفضفاضة النبيلة.

ويمكننا أن نلاحظ في هذا الصدد هناك ما يشبه الإجماع لدى هؤلاء الرحالة على وصف اليهود بالقذرين والبشعين، وأنهم يعيشون حياة رذيلة حقيرة محتقرين من قبل الطائفتين المسلمة والمسيحية، تاركين أوطانهم في بولونيا وروسيا وأوروبا ليموتوا منساقين وراء أمل واهم وحلم، ويصف فوغويه هذا الحي بقوله:

«كان اليهود الغريبو الأطوار القذرون بملابسهم الأوروبية الرثة، يلتقون بالبدوي الذي يسير فخوراً عالي الرأس، وفوق هذه التعابير المشتركة بينهم جميعاً تقترن السمة العادية للطبقات

Twitter: @alqareah

الحقيرة في أوروبا ـ حيث كانوا يعيشون ـ بتعبير الرعب الدائم الذي يثيره النفور الذي يبديه لهم الشرق برمته».

ومما يلفت انتباه فوغويه لدى زيارته للمسجد الأقصى، هو نظام التعليم الديني فيه، وعثوره على قسمات مشتركة بين ما يراه في هذا النظام وبين ما كان موجوداً في بلاده من مؤسسات ونظم كهنوتية. ويشعر بأن الحاضر هنا قريب من الماضي، وطالماً بدا الشرق إزاء الذي يريد استنطاقه ساكناً، ونسخة حية، وتجلياً صادقاً لتاريخه هو، فلا يفوت الرحالة عند هذا الموضع، وانطلاقاً من مركزية عرقية، أن يلقي نظرة نحو الآخر من موقع أعلى، موقع أكثر تفوقاً، وأن يقارنه بذاته، فهذا الشرق ساكن لا يتحرك، بينما الغربي لم يألُ جهداً في البحث عن مصادر التقدم وتحقيقه. فإن حدث وأن لاحظ الرحالة في هذا الشرق ملمحاً إيجابياً، فإن خياله الجامع المتعجرف سيندفع إلى استحضار ماضيه، وأن يرى في هذه الإيجابية نسخة مطابقة لهذا الماضي الذي استطاع هو تجاوزه والتفوق عليه.

الشرق هو صورة متأخرة عن ماضي الغرب، وإن ما يثيره هذا الغربي ويدفع به إلى رؤيته هو هذا الماضي تحديداً، والذي يشبع في داخله حنيناً لماضٍ انقضى... ومن جهة أخرى فإن هذا الشرق الساكن وصورة ماضيه المتأخر، سيذكره بوضعه المتقدم الحالي، ويعزز من تفوقه عليه، ويعطيه بالتالي حق إخضاعه والسيطرة عليه، وهو يسير به إلى حالة التقدم كما يراها هو ويتخيلها.

ومن بين الرحالة من وجه عنايته للرسم المعماري الدقيق للأماكن المقدسة التي زارها، وقد كرَّس لوتي الصفحات العديدة لوصف مسجد عمر، هذا الصرح المدهش ذو الزرقة الرائعة النادرة، عجيبة الإسلام، فأعلن عن إعجابه به منذ دخوله إلى الساحة الفخمة التي استطاع العرب إبقاءها جول مسجدهم الأزرق، وتأمل بصفحات جذابة، بلاط أرضيته، ونباتات حدائقه، ومواد إنشائه

Twitter: @alqareah

المختلفة، من خشب ورخام وحجر، وتأمل كساء جدرانه من البسط والأقمشة، ووصف أنواره وزخارفه وأشكال حجراته الهندسية وقببه وأسواره، وحتى الطيور التي تحلق فوقه. ومما يثير الانتباه عند قراءة هذه النصوص للرحالة الحجاج وهم يطوفون بالمدينة المقدسة هو إحساسهم بتواجدهم على أرض معجزة، لأنها استطاعت أن تحتضن في حناياها كل هذه الأديان وكل القوميات على اختلافها، على غرار بابل التي جمعت مختلف اللغات في برجها، فكانت هذه الجملة التي صدرت عن بيير لوتي: آه أيتها المدينة المقدسة.

د. مي عبد الكريم محمود

بغداد

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

فرانسوا دو شاتوبريان

الطريق من باريس إلى مدينة بيت المقدس

1811

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

فرانسوا دو شاتوبريان

رحلة إلى مهد المسيحية

منذ العام 1803، فكر شاتوبريان بالقيام برحلة إلى اليونان، كان ذلك أثناء إقامته في روما كدبلوماسي، وعزز هذه الرغبة انكبابه وقتذاك على الكتابة الأولى لمؤلَّفِه (الشهداء)، بحجَّة أن تلك الرحلة ستسمح له بتصوير بعض مشاهد من الرواية، وأن يقوم بتعيين بعض هذه الأماكن.

لقد غادر من باريس في 13 تموز من العام 1803، ووصل إلى البندقية في 23 منها، وأقام في بيلوبويس ثم في أثينا ومر بسميرن، ثم اقترب شاتوبريان من آسيا الوسطى التي قطعها حتى وصل إلى القسطنطينية التي مكث فيها من 13 إلى 18 أيلول، ومن هناك وصل إلى فلسطين في مركب للحجاج بعد أن توقف المركب في رودس.

وصل شاتوبريان إلى يافا في الأول من أكتوبر، وعاد من هناك في الثالث عشر من أكتوبر، بعد أن قام بزيارة بيت لحم، والبحر الميت، والقدس، ثم عاد إلى ركوب البحر مرة أخرى متجهاً صوب الإسكندرية التي نزل فيها في الواحد والعشرين من أكتوبر، وصعد نهر النيل من القاهرة ـ التي بقي فيها أسبوعاً واحداً ـ مرة أخرى. وفي الثالث والعشرين من نوفمبر استقل المركب المتجه إلى تونس، وبعد رحلة شاقة تحتم عليه أن ينتظر المركب من الأول من كانون الثاني حتى التاسع من آذار، ليلتحق بعشيقته في إسبانيا، ثم عاد إلى باريس في بداية حزيران.

Twitter: @alqareah

لقد شهد القرن التاسع عشر ظهور عادة الحج إلى الأراضي المقدسة، وعادت جموع متزايدة من السيّاح إلى فلسطين يتبعون خطى شاتوبريان. لقد جسد شاتوبريان ولمدة قرن بأكمله نموذج الرحالة المتعجل، وقد تبعته حشود من الأدباء تزور الأراضي المقدسة وكتاب شاتوبريان بأيديهم.

Twitter: @alqareah

الوصول إلى المدينة المقدسة

كان الجو في غاية الجمال، وكان الهواء في غاية العذوبة مما دفع الرحالة إلى تمضية الليل على ظهر المركب، وأنا من جهتي كنت نازعت راهبين يونانيين ضخمين على مكان صغير يقع في المؤخرة، ولم يتخليا لي عنه، إلا بعد أن أبديا تذمرهما.

في ذلك المكان كنت نائماً، كان ذلك فجر الثلاثين من أيلول، عند الساعة السادسة، وعندما أفقت على ضجة غامضة، فتحت عيني كلتيهما، رأيت الحجيج ينظرون صوب مقدمة المركب، سألتهم عن السبب، فصاح بي أحدهم قائلاً: «يا سيدي إنه الكرمل! الكرمل!».

كانت الريح قد اشتدت في الليلة الماضية عند الساعة الثامنة مساء أو في الليل، وكنا قد وصلنا عند مشارف سوريا. ولأني رقدت بملابسي كاملة فإني سرعان ما نهضت واقفاً لأستفسر عن الجبل المقدس، فنهض الجميع مسرعين ليشيروا إليه بأيديهم، بيد أني لم أكن أتبينه بسبب شعاع الشمس التي بدأت تشرق من أمامنا.

كان قد نفذ إلينا في تلك اللحظة شيء من الرهبة والوقار، وظل الحجيج بأجمعهم صامتين، ممسكين المسابح بأيديهم، متخذين جميعهم هيئة واحدة، منتظرين انبلاج الأرض المقدسة.

كان رئيس (الباباس) يصلي بصوت عال، ولم نكن نسمع شيئاً سوى هذه الصلاة، وصوت سير المركب الذي كانت تدفع به الرياح التي تهب على البحر اللامع. وكانت ترتفع صرخة من مقدمة المركب،

Twitter: @alqareah

فقد عاد جبل الكرمل إلى الظهور، ورأيت أخيراً هذا الجبل كما لو كان بقعة دائرية تحت أشعة الشمس، فسجدت على الطريقة اللاتينية، ولم أشعر مطلقاً بذلك النوع من الاضطراب الذي ساورني عندما اكتشفت سواحل اليونان. بيد أن رؤية الأرض المقدسة وموطن المسيح غمرتني بالخشية والإجلال، وكنت على وشك الهبوط إلى أرض المعجزات، وعلى منابع الشعر الأكثر إدهاشاً، فقد حدث في هذه الأماكن من الناحية الإنسانية الحدث الذي غير وجه العالم إلى الأبد وأقصد به مجيء المسيح.

لقد كنت على وشك الاقتراب من تلك السواحل التي زارها مثلي (غودفروا دو بويون) و(رايمون دو سان جيل) و(تانكريد لو براف) و(هوج لو غراند) و(ريتشارد قلب الأسد)(*) وزارها أيضا (سان لوي)(**) الذي نالت فضائله إعجاب المؤمنين. فكيف كان لي أنا الحاج الباهت أن أجرؤ على أن أطأ أرضاً خلدها هذا الكم من الحجاج المعروفين؟

وكنا كلما تقدمنا وارتفعت الشمس في السماء، كشفت الأرض عن نفسها أمامنا، فكانت آخر نقطة لمحناها من بعيد على اليسار صوب الشمال، هي (صور)، ثم جاء بعدها (الرأس الأبيض) و(عكا) وجبل (الكرمل)، وعند أسفله (حيفا Caife) و(طرطورة) التي كانت تدعى في السابق (دور) و(قصر الحاج) و(القيصرية)، كما كان بالإمكان رؤية الأطلال القريبة من الجبل، وكان لابد أن تكون (يافا) أسفل مقدمة المركب، بيد أننا لم نكن نتبينها بعد على الإطلاق. ثم صار الساحل ينخفض على نحو غير محسوس حتى حلول منتصف النهار، عند ذاك تلاشى، وبدأت ضفتا فلسطين القديمة تنضم إلى ضفاف مصر التي كانت عند مستوى البحر. أما اليابسة التي كانت على بعد ثمانية أو عشرة فراسخ منها فقد بدت بيضاء عموماً مع

(*) فرسان الحروب الصليبية.

(**) قاد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة، ووصل إلى دمياط. أسر في معركة المنصورة 1250، ومات بالطاعون في تونس.

Twitter: @alqareah

تموجات ولدتها الظلال، ولم يكن هنالك ما يشكل نتوءاً على الخط المائل الذي كانت اليابسة تخطه من الشمال إلى الجنوب، وحتى جبل (الكرمل) ذاته لم يكن يتميز على خلفية هذا المشهد، فقد كان كل شيء موحداً مع عدم وضوح اللون، وكان المنظر في عمومه يشبه منظر جبال (البوربونة) إذا ما نظرنا إليها من ارتفاعات (تارار)، وثمة خيط من الغيوم البيض المزركشة تنبع من الأفق نحو الأرض، فبدت وكأنها تعيد رسم مظهرها في السماء.

كنا افتقدنا الريح عند الظهيرة، وها قد عادت من جديد عند الساعة الرابعة، غير أننا تجاوزنا نقطة الوصول بسبب جهل القبطان، فواصلنا المسير بكامل الأشرعة إلى (غزة) وعند ذاك لاحظ الحجاج عند تفحصهم الساحل الخطأ الذي وقع فيه قبطاننا الألماني، فتحتم عليه أن يدير المركب، مما أضاع الوقت علينا، ثم حلَّ الليل.

وفي تلك الأثناء كنا نقترب من (يافا) حتى أصبحنا نتبين أضواء المدينة، وعندها اشتدت الرياح الشمالية الغربية بقوة جديدة، تملك القبطان خوف، فلم يجرؤ على البحث عن مرسى في الليل، وأدار فجأة مقدمة المركب نحو عرض البحر، وعاد إلى مد البحر.

كنت متكئاً على مؤخرة المركب، أنظر بحزن حقيقي إلى ابتعاد اليابسة، وبعد نصف ساعة لاحظت على قمة إحدى السلاسل الجبلية ما يشبه انعكاساً بعيداً لحريق مندلع، كانت تلك سلسلة جبال (جبال يهوذا Judee). وقد أظهر القمر الذي بدا بهيئة مدهشة لي، قرصاً عريضاً محمراً فوق القدس، فبدا وكأن يد المعونة قد وضعت هذا الفنار على قمة صهيون، كي ترشدنا إلى المدينة المقدسة.

ولم نقتف ـ لسوء الحظ كما يفعل المجوس ـ الكوكب المنقذ، إذ لم يفدنا ضياؤه بشيء سوى الهرب من المرفأ الذي طالما تقنا إليه، وفي اليوم التالي الأربعاء، الأول من تشرين الثاني، أصبحنا عند الفجر قرب الساحل المقابل من (القيصرية) وتوجب على المركب عند

Twitter: @alqareah

الظهيرة العودة على امتداد اليابسة. ولحسن الحظ كانت الريح طيبة مع أنها كانت ضعيفة، وكان مرج جبال (جبال يهوذا) يرتفع من بعيد، وعند أسفل هذه الجبال يهبط سهل واسع حتى البحر، فكنا بالكاد نرى آثاراً للزراعة، وكان قصر (قوطيا) مهدماً تعلوه منارة متداعية مهجورة، ويمثل كل ما هنالك من سكن، وعند حافة البحر كانت اليابسة تنتهي بشاطئ صخري أصفر مموج بالسواد، يشرف على ساحل رملي، حيث كنا نرى ونسمع أمواج البحر تتكسر عليه.

وكان العربي الذي يتجول على هذا الساحل يتبعُ بنظرِهِ التوّاق المركبَ الذي يمرُّ في الأفق، لعلّه كان ينتظر جثةَ غريق عند الحافة بعينها، حيث أمر عيسى المسيح بإطعام الجياع وإكساء العراة.

وعند الساعة الثانية من بعد الظهر، عدنا أخيراً لرؤية (يافا) فلمحنا أحدهم في المدينة، فانطلق قارب من المرفأ وتقدم أمامنا، وانتهزت فرصة وجود هذا القارب لأرسل بخادمي (جون) إلى اليابسة، وسلمته التوصية التي منحني إياها أمناء الأراضي المقدسة في (استنبول)، والتي كانت موجهة إلى الآباء في (يافا)، كما كتبت في الوقت ذاته كلمة إلى هؤلاء الآباء، وبعد ساعة من رحيل (جون) ألقينا بالمرساة أمام مدينة (يافا)، فأصبحت المدينة في الجنوب الشرقي، وكانت منارة المسجد في الشرق من المربع الجنوبي الشرقي، ولجأت في هذا التحديد إلى البوصلة، وذلك لسبب مهم إلى حد ما، وهو أن السفن اللاتينية ترسو عادة بعيداً داخل البحر، فتكون عند ذاك على رصيف صخري بوسعه قطع الحبال، في حين أن المراكب اليونانية تصبح باقترابها من اليابسة فوق قاع أقل خطورة بين حوض (يافا) والرصيف الصخري.

يافا أرض المعجزات

لم تكن (يافا) تضم سوى كومة رديئة من المنازل المجتمعة على نحو دائري، وعلى شكل مدرج على منحدر إحدى السواحل المرتفعة، كما أن الكوارث العديدة التي عاشتها المدينة ضاعفت من

Twitter: @alqareah

وجود الأطلال فيها، وثمة جدار يؤدي طرفاه إلى البحر ويغلفها من جهة اليابسة، فيضعها بمنأى عن يد المساعدة.

وسرعان ما تقدمت الزوارق نحونا بحثاً عن الحجيج، وفي الحال كشفت لي ملابس وملامح وسحنة وجه قادة هذه الزوارق ولون بشرتهم عن العرق العربي وتخوم الصحراء، فنزل المسافرون دون ضجة على الرغم من تسارعهم المشروع، ولم يصدر عن هذا الجمع من العجائز والرجال والنساء والأطفال عند هبوطهم على الأرض المقدسة تلك الصرخات ولا ذلك البكاء أو النحيب الذي أراد بعضهم أن يؤديه برسوم وهمية ومضحكة، فقد كنا في غاية الهدوء، وكنت من بين رتل الحجيج الأكثر انفعالاً بالتأكيد.

وأخيراً رأيت قارباً وفيه خادمي اليوناني بصحبة ثلاثة رجال من رجال الدين، فتعرّفوا علي بفضل ملابسي الإفرنجية وصافحوني بودٍّ ظاهر، ثم سرعان ما وصلوا إلى مستوى سطح المركب، وعلى الرغم من أن هؤلاء الآباء كانوا من الإسبان ويتحدثون لغة إيطالية صعبة على الفهم، إلا أننا تصافحنا بالأيدي كما لو كنا من وطن واحد.

نزلت معهم إلى الزورق وولجنا المرفأ من خلال فتحة بين الصخور، كانت خطرة حتى بالنسبة إلى زورق صغير، وتقدم نحونا العرب الواقفون على الضفة داخل الماء وقد بلغ أحزمتهم، وذلك كي يحملونا على أكتافهم، فحدث آنذاك مشهد مسل، إذ أن خادمي (جون) كان يرتدي معطفاً يميل إلى البياض، وكان اللون الأبيض من الألوان ذات الحظوة لدى العرب، فظنُّوا خادمي هو الشيخ فأمسكوا به وحملوه بانتصار رغم معارضته، في حين أني وبسبب لباسي الأزرق حملت بلا اهتمام على ظهر متسوّلٍ رثّ الثياب.

ضيافة الآباء

ذهبنا إلى مكان ضيافة الآباء وكان عبارة عن منزل متواضع

Twitter: @alqareah

من الخشب مشيد على المرفأ، ويتمتع بمنظر جميل يطل على البحر، فقادني مضيفي إلى المصلى أولاً، وكان مضاء تماماً، وهناك حمدوا الله لأنه أرسل لهم شقيقاً. لقد كان هذا المكان مثيراً للإعجاب المسيحي حقاً، إذ تجد فيه أصدقاء ومعونات في البلاد الأكثر بربرية، وهي مؤسسات تحدثت عنها في مكان آخر ولم تنل الإعجاب الذي تستحقه، وعند خروجي من المصلى قادني الآباء إلى حجرتي التي كانت تشتمل على طاولة وسرير وحبر وورق وماء بارد وشراشف بيض، كان يجب على المرء أن يغادر مركباً يونانياً مؤلفاً من مائتي حاج كي يقدر قيمة كل هذه الأشياء.

وفي الساعة الثامنة مساء دخلنا إلى قاعة الطعام، فوجدنا فيها اثنين آخرين من الآباء جاؤوا من (رام لله)، متوجهين إلى استنبول وهما (الأب مانويل سانسيا) و(الأب فرانسوا مينور) فقرأنا جميعاً صلاة المائدة بعد أن سبقناهما مستذكرين بذلك الموت الذي تمزجه المسيحية مع كل أفعال الحياة، كي تجعل منه أكثر صرامة، كما كان الأقدمون يمزجونه مع ولائمهم، كيما يجعلوا متعهم أكثر إثارة، فقدموا لي على طاولة صغيرة نظيفة ومنعزلة الدجاج والسمك وفاكهة رائعة مثل الرمان والرقي والعنب والتمر، وكلها في باكورتها. وقدموا لي قنينة نبيذ قبرصي وقهوة مشرقية، وفي الوقت الذي غمروني فيه بأطايب الطعام كان الآباء يأكلون القليل من السمك الخالي من الملح والزيت. كانوا مرحين باعتدال غير متكلفين ولكن بأدب، ولم يطرحوا الأسئلة علي بلا جدوى، أو أسئلة متطفلة عابثة، وكان جل الحديث يدور حول رحلتي وعمّا يمكن اتخاذه من إجراءات، حتى أنجزها بأمان تام، فقد قالوا لي:

«نحن نجيب الآن نيابة عنك على وطنك»

وقد كانوا أرسلوا بخبر إلى شيخ العرب من (جبال يهوذا) وآخر إلى الأب الوكيل عن (رام الله)، وقال لي الأب (فرانسوا مينور):

«استقبلناك بقلب صاف ومرتاح».

Twitter: @alqareah

وكان من غير الضروري على هذا الأب الإسباني أن يؤكد على إخلاص مشاعره، فقد كان من السهل علي التنبؤ بها عند رؤيتي للصراحة الورعة لجبينه ونظراته.

إن هذا الاستقبال المسيحي للغاية والمحسن للغاية على الأرض التي شهدت ولادة المسيحية والإحسان، وإن هذه الضيافة البابوية في المكان الذي بشر فيه أول الحواريين بالإنجيل، أثارتا مشاعري حتى الصميم، وتذكرت بأن مبشرين آخرين قد خصوني بالحفاوة ذاتها عند استقبالي في صحراء أميركا. ولرجال الدين في الأرض المقدسة فضل خاص، وذلك لأنهم يجزلون على حجاج القدس الإحسان الذي كان ليسوع المسيح، واحتفظوا لأنفسهم بالصليب الذي نصب على هذه البقاع بعينها، ومما أكده لي هذا الأب ذو القلب الصافي المرتاح كذلك، هو أنه وجد الحياة التي عاشها منذ خمسين عاماً مثل الجنة، فهل بالإمكان معرفة ما عساها أن تكون هذه الجنة؟

ففي كل يوم يتعرضون للإهانة وإلى التهديد بضربات العصي وإلى السلاسل وإلى الموت، ففي أعياد الفصح الماضي غسل هؤلاء الآباء فرش الصومعة، فسال ماء الغسيل الممزوج بالنشاء خارج المضيف وطلى بالبياض الحجارة، فمر تركي، وشاهد هذه الحجارة، فذهب ليصرح إلى القاضي بأن الآباء قد رمموا منزلهم. فجاء القاضي إلى المكان وقرر أن الحجارة التي كانت سوداء قد أصبحت بيضاء، ودون أن يصغي إلى الآباء، أرغمهم على دفع عشر أكياس من النقود.

وفي عشية يوم وصولي إلى يافا تعرض الأب الوكيل عن المضيف إلى تهديد بشد وثاقه بالحبل من قبل خادم الآغا وبحضور الآغا نفسه، والذي اكتفى ببرم شاربه بهدوء ودون أن يكلف نفسه التفوه بكلمة لصالح الكلب.

هذه هي الجنة الحقيقية لهؤلاء الرهبان، والتي هي طبقاً لعدد

Twitter: @alqareah

من الرحالة عبارة عن بعض الذكريات الصغيرة عن الأرض المقدسة، وهم يتمتعون بشرف عظيم.

عند الساعة العاشرة مساء قادني مضيفي عبر ممر طويل إلى حجرتي، كانت الأمواج ترتطم بصخب بصخور المرفأ، ولما كانت النافذة مغلقة فإنك تخالها عاصفة، ولكنك عندما تفتح النافذة ترى السماء جميلة، والقمر ساكناً، والبحر هادئاً، وسفينة الحجاج راسية في عرض البحر.

ابتسمت من الدهشة التي أحدثها في نفسي هذا التعار.ض

وقضيت جزأ من الليل وأنا أتأمل بحر صور(*) الذي يسميه الكتاب السماوي البحر العظيم، وهو البحر الذي حمل أساطيل النبي - الملك(**)، عندما راحت لجلب أشجار أرز لبنان، والأرجوان من (صيدون)، هذا البحر حيث ترك (ليفاتان) Levithan آثاراً عليه كالفجوات، هذا البحر الذي منحه الرب حواجز وأبواباً، هذا البحر عندما رأى الرب تلاشى، لم يكن هذا البحر مثل محيط كندا المتوحش، ولا تشبه أمواجه أمواج اليونان الضاحكة، فعند الجنوب منه تنبسط مصر التي دخلها الرب على غيمة طفيفة ليجفف قنوات النيل، ويقلب الأصنام، وفي الشمال تنتصب ملكة المدن التي كان تجارها أمراء:

(اصرخي يا سفن البحر إذ أن قواك قد تهدمت، وسقطت مدينة الكبرياء، وأغلقت جميع المنازل ولم يعد بالمستطاع الدخول فيها وما تبقى فيها من رجال كانوا أشبه ببعض ثمار الزيتون الباقية على

(*) أقدم الممالك الفينيقية تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، من ملوكها حيرام الأول. هاجرت منها ديدون وأسست قرطاجة 813 ق.م، واشتهرت بمقاومتها لحصار الآشوريين والبابليين والاسكندر الكبير.

(**) يقصد الملك سليمان، وكان حيرام الملك الفينيقي يبعث لسليمان بالأرز. الملوك1، 5.

Twitter: @alqareah

الشجرة بعد الحصاد، أو بعض ثمار العنب المعلقة على الكرمة بعد القطاف).

لم يكن هذا كل ما هنالك، إذ أن البحر الذي كنت أتأمله يغمر على يميني أرياف (الجليل)، وعلى يساري سهل (عسقلان Escalon)، فكنت أجد في الأولى تقاليد الحياة البطريركية ومولد المخلص، وفي الثانية أستعيد ذكريات الحروب الصليبية وظلال أبطال القدس.

نحو مدينة بيت المقدس

كنت أنتظر بفارغ الصبر لحظة مغادرتي إلى القدس، وفي اليوم الثالث من تشرين الأول وفي الساعة الرابعة بعد الظهر، ارتدى خادمي عباءات من وبر الماعز، صنعت في دلتا مصر العليا كتلك التي يرتديها البدو، ووضعت فوق ملابسي ثوباً يشبه ثوب (جون وجوليان) وامتطينا جياداً صغيرة، واستخدمنا البرادع سروجاً لنا، وكانت أقدامنا موضوعة في حبال بدلاً من أن تكون في ركائب، وكان الرئيس المضيف يتقدمنا كما لو كان أخاً لنا، وثمة عربي شبه عارٍ يرينا الطريق، وعربي آخر يتبعنا يسوس حماراً محملاً بحقائبنا.

خرجنا من الجهة الخلفية للدير، ووصلنا إلى باب المدينة عند جهتها الجنوبية عبر أنقاض المنازل التي تهدمت أثناء الحصار الأخير. في البدء كنا نسلك الطريق بين الحدائق التي لا بد وأنها كانت جميلة في السابق، إذ كان كل من (الأب نيريه وفولني(*)) قد أثنيا عليها.

لقد تهدمت هذه الحدائق على يد أطراف عدة، كانت قد تنازعت على أطلال (يافا) إلا أنه ما زال فيها عدد من أشجار الرمان، وتين

(*) قسطنطين فرانسوا فولني، (1757 - 1820) رائد الرحلات إلى الشرق. سافر إلى الشرق 1783 ووصف أحواله في كتابه (رحلة إلى سوريا ومصر).

Twitter: @alqareah

فرعون، والليمون، وعدد من النخيل، وصبار الهند، وأشجار التفاح التي كانت تزرع كذلك في (غزة) وحتى في دير جبل (سيناء). أما الزهور التي كانت تغطي في الربيع هذا الريف العريق فهي الروز الأبيض والوردي، والنرجس، وشقائق النعمان، والزنبق الأبيض، والأصفر، والمنثور ونوع من الزهور الخالدة الفواحة للغاية، وقد كان السهل ينبسط على امتداد البحر من (غزة) في الجنوب حتى جبل (الكرمل) في الشمال.

وتحده من الشرق (جبال يهوذا) و(السامرة)، ولم يكن السهل عند مستوى واحد، إنما مكون من أربع هضاب يفصل بينها شريط الصخور العارية الجرداء، وأرضه رملية، كانت منبسطة، ناعمة، بيضاء وحمراء. وكانت تبدو في غاية الخصوبة رغم أنها رملية، ولكنها وبسبب الاستبداد الإسلامي لا تضم أطرافها سوى الشوك والأعشاب اليابسة الذابلة متشابكة مع مزروعات للقطن هزيلة، وكذلك الذرة والشعير والقمح. وتظهر لنا هنا وهناك بعض القرى المهدمة، وبعض من جموع أشجار الزيتون والجميز، وعند منتصف الطريق بين (رام الله) و(يافا) نجد بئراً معروفاً لدى جميع المسافرين. وقد قص علينا (القس ماري) حكايته، وذلك بدافع الرغبة منه في المقارنة بين جدوى ولي تركي، وعدم جدوى رجل الدين المسيحي، ونلاحظ قرب هذه البئر غابة للزيتون مغروسة على مخمسات جرت العادة على إرجاع أصلها إلى عهد (غودفروا دو بيون) ونكتشف في هذا المكان (راما) أو (رام الله) وهي تقع في مكان جذاب عند الطرف القصي لأحد الهضاب، وفي واحدة من خبايا السهل.

قبل أن ندخل هذه القرية تركنا الطريق إليها لنزور حوضاً للمياه يقال إنه من إنجازات والدة (قسطنطين) فنزلنا إليه من سلم ذي سبع وعشرين درجة، وتبلغ مساحته ثلاثاً وثلاثين خطوة طولاً، وثلاثين خطوة عرضاً. وكان مؤلفاً من أربع وعشرين قوساً، ويتلقى سيول الأمطار عبر أربع وعشرين فتحة. وبعد زيارتنا هذه قمنا،

Twitter: @alqareah

وعبر غابة من الصبار الهندي، بزيارة برج الأربعين شهيداً، والذي أصبح اليوم منارة لجامع مهجوَر، وكان في السابق برجاً لناقوس صومعة، ولم تبقَ منه سوى أطلال حسنة المنظر، تشتمل على أنواع من الأروقة الشبيهة بإسطبلات (ميسن Mecene)(*) في (تيبور Tibur) وهي مليئة بأشجار التين البري، ويقال إن يوسف والعذراء والطفل المسيح قد توقفوا في هذا المكان أثناء هربهما من مصر، وإن هذا المكان كان من الجاذبية ما يكفي لرسم راحة العائلة المقدسة. ويبدو أن موهبة (كلود لوران) قد تنبأت بهذا المشهد، وهذا ما تكشف لنا عنه لوحته الرائعة الموجودة في قصر (دوريا) في (روما).

نقرأ على باب البرج كتابة عربية يخبرنا عنها (دو فولني) وبالقرب من هناك واحدة من آثار القدماء والمعجزة التي وصفها (موراتوري)(**).

وبعد زيارة هذه الأطلال، مررنا بالقرب من طاحونة مهجورة يذكرها (دو فولني) بقوله إنها الوحيدة التي شاهدها في سوريا، وفي يومنا هذا يمكننا أن نجد العديد منها.

رام الله

هبطنا إلى (رام الله) ووصلنا إلى مضيف رهبان الأرض المقدسة، وكان هذا الدير قد تهدم قبل خمسة أعوام مضت، وأشار لي أحدهم إلى قبر أحد الأشقاء القساوسة الذي هلل في تلك الحادثة، وقد حصل رجال الدين مؤخراً وبعد جهد جهيد على رخصة للقيام بالإصلاحات اللازمة لصومعتهم.

وعند وصولي إلى (رام الله) كانت تنتظرني أخبار سارة، فقد وجدت فيها ترجمان دير القدس، الذي بعث به حارس الدير

(*) Mecene في القاموس روبير.

(**) لودفيكو أنطونيو موراتوري (1762 - 1750) كاهن ومؤرخ إيطالي، نشر وثيقة تحمل لائحة أسفار العهد الجديد المعترف بها، وله حوليات إيطاليا.

Twitter: @alqareah

لملاقاتي. وكان الرئيس العربي الذي أعلمه الآباء بوصولي والذي كان من المفترض أن يقوم بحراستي يتجول على مسافة من الريف، وذلك لأن آغا (رام الله) لم يكن يسمح للبدو بالدخول إلى المدينة، كما أن القبيلة الأكثر بأساً في (جبال يهوذا) كانت تقيم في قرية (أرميا) وقد كانت القرية تفتح وتغلق الطريق إلى القدس أمام المسافرين وقتما تشاء. وقد مات شيخ هذه القبيلة منذ وقت قريب، وترك ولده عثمان تحت وصاية عمه (أبو غوشة) الذي كان له شقيقان: (جابر) و(إبراهيم عبد الرحمن) وهما اللذان رافقاني في طريق عودتي.

وكان من المتفق أن أغادر عند منتصف الليل، لأن النهار لم يكن عند آخره، فقد تعشينا على سطح الدير، وكانت صومعات الأرض المقدسة تشبه قلاعاً حصينة مسطحة، ولا تذكر على الإطلاق بصومعات أوروبا، وكان المشهد الذي أمامنا خلاباً، إذ أن المنازل إما أن تكون أكواخاً من الجص تعلوها قبة صغيرة على غرار قبة المسجد أو تكون قبلاً للأولياء. ويبدو أن هذه الأكواخ قد شيدت داخل غابات الزيتون والتين والرمان، وكانت جميعها محاطة بأشجار الصبار الهندي الضخمة التي كانت تتخذ أشكالاً غريبة، وتزاحم أغصانها الشائكة بعضها البعض على نحو فوضوي وسط هذه المجموعة المشتبكة من الأشجار والبيوت، حيث يتعانق أجمل ما في (أدوميه) Idumee من نخيل. وكان هناك على الأخص واحة في حوش الدير، لم يكن بإمكاني تأملها، إذ كانت تصعد على نحو عامودي وعلى ارتفاع يزيد على ثلاثين قدماً، ومن ثم تنبسط أغصانها المعقوفة برشاقة، حيث يتدلى عند أسفلها التمر نصف الناضج مثل بلورات من المرجان

الخروج من رام الله

خرجنا من رام الله في اليوم الرابع من تشرين الأول عند منتصف الليل، وقادنا الأب الرئيس عبر طرق ملتوية، حيث كان (أبو غوشة) في انتظارنا، ومن ثم عاد إلى ديره. وكان ثمة رهط مؤلف

Twitter: @alqareah

من الرئيس العربي، وترجمان القدس، ومن خادمي ومن بدوي من يافا كان يقود الحمار المحمل بالمتاع. كنا ما زلنا نرتدي الثوب الواسع للحجاج اللاتين الفقراء، بيد أننا كنا نحمل السلاح تحت ملابسنا.

بعد أن سارت بنا الخيل لمدة ساعة على أرض غير مستوية، وصلنا إلى عدد من الأكواخ الواقعة على ربوة محصبة، وبعد أن اجتزنا إحدى نتوءات السهل، وبعد مسافة من المسير، وصلنا إلى عدد من التعرجات الأولى من (جبال يهوذا) ثم انعطفنا عبر وادٍ وعر حول تل معزول وقاحل، ومن على قمة هذه الربوة تبينَّا قرية مهدمة وأحجاراً مبعثرة لمقبرة مهجورة، وكانت هذه القرية تحمل اسم (اللطرون du Latron) وهي موطن المجرم الذي تاب على الصليب، والتي جعلت من المسيح يقوم بفعل الاسترحام الأخير. وبعد ثلاثة أميال دخلنا بين الجبال، وكنا نسلك مجرى لسيل جف، وكان القمر الذي تضاءل إلى النصف بالكاد يضيء خطواتنا داخل هذه الأعماق، وكنا نسمع من حولنا الخنازير البرية وهي تصدر صراخاً وحشياً إلى حد غريب. وأدركت عند رؤيتي للحزن البادي على هذه الأطراف، كيف أرادت (ابنة يفتاح Jephte[*]) البكاء على جبال يهوذا، ولماذا كان الرسل يذهبون للنواح فوق المرتفعات. وعند الصباح وجدنا أنفسنا وسط دهليز من الجبال ذات أشكال مخروطية تتشابه مع بعضها البعض ومتصلة الواحدة بالأخرى عند القاعدة، وكانت الطبقة الصخرية التي تشكل قاع هذه الجبال تثقب الأرض، فكانت أشرطتها أو منحدراتها المتوازية مصفوفة مثل مدرجات مسرح روماني، أو مثل تلك الجدران المدرجة التي تستند الكروم إليها في منطقة السافواي.

وعند كل مستوٍ صخري كانت تنمو مجاميع كثيفة من أشجار

(*) قدمها والدها ذبيحة وفاء لنذره في تضحية لأول من يأتيه مهنئا بعد انتصاره على الأمونيين.

Twitter: @alqareah

البلوط والبقس والغار الوردي اللون، وفي قاع الوديان تنتصب أشجار الزيتون، وفي بعض الأحيان تؤلف هذه الأشجار غابات بأكملها على سفح الجبال.

هنالك كنا نصغي إلى أصوات العصافير المختلفة، وأذكر منها أبو الزريق، وعند وصولنا إلى أعلى نقطة على هذه السلسلة الجبلية اكتشفنا خلفنا في الجنوب والغرب سهل صارون (saron) الممتد حتى يافا، عند أفق البحر حتى غزة، وانفتح أمام ناظرنا عند الشمال والشرق وادي القدس (أرميا)، وفي الاتجاه ذاته لمحنا عند أعلى إحدى الصخور بعيداً قلعة عتيقة تدعى قصر (ماشابه) Machabee يعتقد أن مؤلف المراثي قد ولد في القرية التي حملت اسمه وسط هذه الجبال. ومن المؤكد أن حزن هذه الأماكن قد ولد في مزامير (رسول) الآلام، بيد أننا وعند اقترابنا من النبي أرميا أدخل مشهد غير متوقع السلوى إلى أنفسنا، إذ رأينا قطعاناً من الماعز بآذان متدلية، وخرافاً بذيول عريضة، وحميراً يذكر جمالها بالحمير الوحشية المذكورة في الكتب السماوية، وهي تخرج من القرية عند الفجر، وثمة نساء عربيات يجففن العنب في العرائش، وبعضهن يغطين وجوههن بالحجاب، ويحملن على رؤوسهن جراراً مملوءة بالماء مثل فتيات (مدين). كان دخان القصبة يتصاعد بخاراً أبيض عند أول إشعاعات النهار، وكان هذا المشهد يشكل تعارضاً ممتعاً مع حزن المكان وذكريات الليل.

كان رئيسنا العربي قد حصل مسبقاً على حق من القبيلة بالسماح بمرور المسافرين، ولذا فقد مررنا دون اعتراض، وعلى حين غرّة دهشت لسماع هذه الكلمات وهي تلفظ بالفرنسية على نحو واضح:

(en avant marche إلى الأمام سر).

فأدرت رأسي، لاحظت مجموعة من الفتيان العرب العراة يؤدُّون تمارين عسكرية، ويحملون عصي النخيل، لا أدري أية ذكرى من

Twitter: @alqareah

شبابي ساورتني تلك اللحظة. إذ ما إن حدثني أحدهم عن الجندي الفرنسي حتى أخذ قلبي بالخفقان، ولكن رؤية فتيان من البدو في جبال يهوذا، وهم يقلدون التمارين العسكرية، ويصونون ذكرى قيمنا، وسماعهم يلفظون هذه الكلمات التي هي بمثابة شعارات لجيوشنا، وهي الوحيدة التي يعرفها رماة الرمانات لدينا، كان كفيلاً بأن يمس وجدان حتى من هو أقل مني حباً لمجد وطنه. وإني وإن لم أرتعب من هذا الأمر بقدر رعب روبنسن عندما سمع ببغاءه وهو يتحدث، ولكن لم أكن أقل افتتاناً من هذا الرحالة الشهير، فأعطيت عدداً من القروش إلى هذا الفوج الصغير، وصحت بهم:

(إلى الأمام سر) ولم يفتني أن أهتف بهم قائلاً (إن شاء الله إن شاء الله).

ومن وادي أرميا هبطنا إلى وادي (تربنتس Terebinthe) الذي كان أكثر عمقاً وأكثر ضيقاً من الأول، فرأينا فيه الكروم وبعض قصب الذرة، ووصلنا إلى السيل حيث أخذ الطفل داود الأحجار الخمسة التي ضرب بها العملاق (جوليات Goliath)(*) وعبرنا هذا السيل على جسر من الحجر، وهو الوحيد الذي صادفناه في هذه الأماكن المهجورة. وقد كان السيل ما يزال يحتفظ ببعض المياه الراكدة، وبالقرب من هناك جهة يدي اليسرى وفي الأسفل من قرية تدعى (كالوني) لاحظت بين الأطلال الأقرب عهداً، بقايا حطام لمشغل قديم، ونسب القس (ماريبي) هذا الأثر إلى راهب لا علم لي به.

وهذا خطأ فادح يصدر عن رحالة إيطالي، فإن لم تكن عمارة هذا الأثر عبرية فهي رومانية بالتأكيد، وذلك لأن انتصابها وحجم الصخور فيها لا يدعان مجالاً للشك أبداً. وبعد أن اجتزنا السيل عثرنا على قرية (لفتا)، وتقع على حافة سيل آخر كان قد جف، ويشبه طريقاً مترِبة واسعة فبانت لنا (البيرة El - bire)(*) من بعيد على

(*) جبار فلسطيني بارزه داود النبي وقتله بحجر من مقلاعه، وهو جالوت في القرآن.

Twitter: @alqareah

قمة جبلٍ عالٍ على طريق نابلس ونالوس ونابلوسا نيابوليس هيرودتس.

وواصلنا توغلنا في الصحراء حيث كانت أشجار التين البري المتناثرة تعرض أوراقها المسودة أمام ريح الجنوب، ثم أصبحت الأرض التي كانت مخضرة جرداء، واتسعت سفوح الجبال واتخذت هيئة قاحلة. وسرعان ما اختفى كل صنف من المزروعات، وحتى الطحالب كانت قد تلاشت، واصطبغت مدرجات الجبال بلون أحمر متقد.

تسلقنا لمدة ساعة هذه المناطق الحزينة لنبلغ ممراً حجرياً عالياً كنا رأيناه من قبل أمامنا، وعندما وصلنا إلى هذا الممر سرنا لمدة ساعة أخرى على هضبة عارية مرصَّعة بأحجار مدحرجة، وفجأة لاحظت عند الطرف القصي لهذه الهضبة صفّاً من الجدران القوطية محصنة بأبراج مربعة، وانتصب خلفها عدد من رؤوس الصروح، وعند أسفل هذه الجدران تجلى معسكر للخيالة الأتراك، وهو في كامل أبهته الشرقية. وصاح الدليل (المدينة المقدسة: مدينة بيت المقدس) وأخذ يعدو سريعاً بفرسه.

من بيت لحم إلى البحر الميت

عند الساعة العاشرة صباحاً امتطينا الجياد وغادرنا بيت لحم، وكان هنالك ستة من عرب بيت لحم يسيرون على الأقدام مسلحين بالخناجر والبنادق الطويلة ذات الأنصال، وهم موكب حراستنا وكنا قد أضفنا إلى خيولنا حماراً لحمل الماء والمؤونة. أخذنا الطريق إلى صومعة القديس سابا، ومن هناك كان علينا أن نهبط إلى البحر الميت والعودة عبر نهر الأردن.

اتبعنا أولاً وادي (بيت لحم) الذي يمتد إلى الشرق كما ذكرت، وعبرنا مجموعة من الجبال، كنا نرى من عليها كرمة غرست حديثاً،

(*) مدينة فلسطينية في الضفة الغربية شرق رام الله.

Twitter: @alqareah

وهو أمر نادر الحدوث في هذا البلد، ثم وصلنا إلى مغارة كانت تسمى مغارة الرعاة، ويسميها العرب قرية الرعاة، ومن الممكن أن إبراهيم كان يرعى قطعانه في هذا المكان، وأن رعاة جودي قد ورد إليهم في هذا المكان بالذات خبر مولد المخلص:

حينما كان الرعاة في الأطراف يمضون الليل في الحقول، ويسهر كل بدوره على حراسة قطعانهم، فجأة تجلى لهم ملاك الرب وأحاط بهم ضياء رباني غمرهم بخشية بالغة، وعند ذاك قال له الرب الملاك بأن لا تَخَفْ أبداً لأنه أتى إليه بنبأ سيكون مصدراً لفرح عارم للشعب برمته، وهو أن قد ولد له اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب، وهذه العلامة التي سيتعرف من خلالها عليه سيجد طفلاً مقمطاً ينام في مذود. وفي اللحظة ذاتها انضمت إلى الملاك مجموعة كبيرة من حراس السماء وهم يحمدون الله ويقولون حمداً لله في أعالي السماء والسلام على أرض الرجال ذوي الإرادة الحسنة الأعزاء إلى الله.

وقد حول ورع المؤمنين هذه المغارة إلى مصلى، ويبدو أنها كانت في السابق مزينة للغاية، إذ لاحظت وجود ثلاثة تيجان للأعمدة من الطراز الكورنثي، واثنين آخرين من الطراز الأيوني. وقد مثل اكتشاف هذين الأخيرين معجزة حقيقية، إذ لم يتم العثور في عصر هيلين، إلا على آثار من الطراز الكورنثي المعروف.

وعند خروجنا من هذه المغارة سرنا إلى الشرق مع ميل قليل نحو الجنوب، ثم تركنا الجبال الحمر لندخل في سلسلة من الجبال المائلة إلى البياض، حيث غاصت خيولنا في أرض رخوة وطباشيرية، مكونة من بقايا صخور كلسية. وكانت هذه الأرض قاحلة على نحو مخيف، حتى أنها خلت من قشور الطحالب، وكل ما كنا نراه ينمو هنا وهناك هو بعض من باقات النباتات الشائكة تضاهي في شحوبها الأرض التي أنتجتها، والتي كانت تبدو مغطاة بالتراب مثل الأشجار على طرقنا الواسعة في الصيف. وعند انعطافنا على واحدة من هذه التلال الجبلية لاحظنا معسكرين للبدو،

Twitter: @alqareah

يتكون الأول من سبع خيم مصنوعة من جلد النعاج الأسود، مرتبة على شكل مربع طويل مفتوح عند طرفه الشرقي، ويتألف الآخر من اثنتي عشرة خيمة منصوبة على نحو دائري، وثمة عدد من الجمال والجياد الأصيلة تتجول حولها.

كان الوقت متأخراً جداً وليس من سبيل إلى التراجع، وكان ينبغي إظهار رباطة جأش وأن نعبر المعسكر الثاني. مر كل شيء بسلام أول الأمر، إذ لامس العرب (جماعة بيت لحم) بأياديهم لحية علي آغا، ولكن ما إن عبرنا آخر الخيام، حتى أوقف البدو الحمار الذي كان يحمل مؤننا، فأراد جماعة بيت لحم إبعاده، ثم نادى العربي على أخوته لإسعافه، فقفز هؤلاء على الجياد وحملوا سلاحهم وأحاطوا بنا، ونجح علي في تهدئة هذه الضجّة ببعض المال.

كان هؤلاء البدو يطالبون بحقوق من المارة، أو يعتبرون على ما يبدو الصحراء كما لو كانت طريقاً عاماً، إذ أن كل فرد هو سيد في بيته. ولم تكن هذه الحادثة سوى مدخل لمشهد أكثر عنفاً.

على مبعدة فرسخ من هناك، وعند نزولنا في أحد سفوح الجبال، رأينا قمتي برجين ينتصبان داخل وادٍ عميق، كانا يخصان دير القديس سابا. وبينما كنا نقترب من الوادي انقضّت مجموعة جديدة من العرب، كانت تختفي في عمق الوادي على حراسنا، وهم يطلقون صراخاً، وفي لحظة رأينا الحجارة تطير، والخناجر تتلامع، والبنادق تتهيأ.

سارع علي إلى المعترك، وهرعنا لمساعدته، فأمسك برئيس البدو من لحيته وجره تحت بطن فرسه، وهدده بأنه سيسحقه إن لم يضع حداً لهذه المعركة.

أثناء هذه الضجة، كان هنالك راهب يصيح من أعلى البرج، ويسعى عبثاً لإحلال الهدوء، كنا قد وصلنا جميعنا إلى باب القديس سابا، كان الأخوة في الداخل يدورون المفتاح على مهل، إذ كانوا

Twitter: @alqareah

يخشون أن يقوم أحدهم بنهب الصومعة مستغلين هذه الفوضى. وبعد أن أعيا الإنكشاري هذا التمهل، دخل وصب جام غضبه على الرهبان والبدو معاً، وأخيراً أخرج سيفه وذهب ليطيح برأس رئيس البدو الذي كان مايزال يمسكه من لحيته بقوة مدهشة، عند ذاك انفتح باب الدير واندفعنا بلا نظام داخل فنائه، وأغلق الباب علينا فأصبح الأمر أكثر خطورة، إذ لم نكن بعد داخل الدير، فقد كان أمامنا فناء آخر لنجتازه، ولم يكن باب هذا الفناء الآخر قد فُتح بعد، ولذا كنا محبوسين في هذا الفضاء الضيق، حيث كانت أسلحتنا تصيب بعضنا البعض بجروح، وأصاب الهيجان جيادنا بعد أن أثارتها الضجة، وادَّعى علي بأنه قد أبعد عني ضربة خنجر صوبها نحوي عربي من الخلف، وأراني يده الدامية. بيد أن علياً الذي كان رجلاً شجاعاً، يحب فضلاً عن ذلك المال كما هو حال جميع الأتراك.

بعد ذلك انفتحت البوابة الأخيرة للصومعة، وظهر رئيس الرهبان وتلفظ ببضع كلمات، وتوقف الصخب، آنذاك أدركنا موضوع الخلاف.

كان هؤلاء العرب الذين هاجمونا ينتمون إلى قبيلة تدَّعي أنها الوحيدة صاحبة الحق بقيادة الغرباء إلى القديس سابا، ولم يرغب رجال بيت لحم الذين كانوا يطمعون بثمن الحراسة والمعروفين بشجاعتهم الخضوع لهذا الادعاء، وكان رئيس الصومعة قد أعطى وعداً بأنه سيرضي البدو، وأن الأمر قد سوي، ولم أكن أريد إعطاءهم شيئاً عقاباً لهم، وصور لي علي آغا إن أنا تمسَّكت بهذا القرار فإنه سوف لن يكون بوسعنا الوصول إلى نهر الأردن، وسيلجأ هؤلاء العرب إلى طلب المعونة من القبائل الأخرى، ويصار إلى ذبحنا لا محالة، ولهذا السبب فإنه لم يرغب بقتل رئيسهم إذ ما إن يسيل الدم فلن يكون لنا من خيار سوى العودة مسرعين إلى القدس.

الأديرة

لا أظن أن أديرة سيته كانت تقع في أماكن أكثر اكتئاباً وعتمة

Twitter: @alqareah

من المكان الذي كان يقع فيه دير القديس سابا(*)، فقد كان مشيداً في الوهاد حيث يقع مجرى سيل قدرون، والذي كان على عمق ثلاثة أو أربعة أقدام، وكان هذا السيل في طريقه إلى الجفاف، ولا ينقل في الربيع سوى ماء موحل وأحمر، وكانت الكنيسة تقع على ربوة صغيرة عند قاعه، وترتفع هناك أبنية الصومعة عبر سلالم عامودية، وممرات محفورة في الصخر على سفح مجرى السيل، وتؤدي إلى ربوة الجبل، تنتهي ببرجين مربعين يقع أحد هذه الأبراج خارج الدير، وكان يستخدم في السابق كمركز لمراقبة العرب، ومن أعلى هذه الأبراج يمكن رؤية القمم القاحلة لجبال الجودي، وفي الأسفل توغل بنظرك في الوهد الجاف لسيل قدرون، حيث ترى المغارات التي كان يقطنها في السابق الزهاد الأوائل.

وفي يومنا يعشعش الحمام الأزرق في هذه المغارات، كما لو أنه يريد أن يذكرنا بهديله وبراءته ورقته، بالقديسين الذين كانوا يعمدون هذه الصخور في السابق.

ينبغي أن لا ننسى نخلة كانت تنمو عند أحد الجدران فوق أحد سطوح الدير، وإني متيقِّنٌ بأنَ جميع المسافرين قد لاحظوها مثلي، إذ أن المحيط القاحل المخيف يجعلك تشعر بقيمة أية باقة من الخضرة.

أما فيما يخص الجانب التاريخي لدير القديس سابا فبإمكانك أن تستعين برسالة الأب نيريه، وبكتاب حياة الآباء في الصحراء، واليوم يرينا أهل هذا الدير ثلاثة أو أربعة آلاف رأس لرهبان ذبحهم الكفار.

تركني القساوسة مدة ربع ساعة وحيداً برفقة القديسين، ويبدو أنهم حزروا بأنه كان في نيتي أن أصف الحالة النفسية للمتوحدين في (طيبة). بيد أني ما زلت أذكر بألم بأن أحد الرهبان اليونانيين

(*) يقصد دير مار سابا.

Twitter: @alqareah

أراد أن يحدثني عن السياسة، ويروي لي أسرار البلاط الروسي، فقلت له:

(وا أسفاه يا أبتي أين يمكنك أن تعثر على السلام إذا لم تجده هنا؟).

مغادرة الدير

تركنا الدير عند الساعة الثالثة بعد الظهر، وعدنا لصعود سيل قدرون، ومن ثم عبرنا مجرى السيل واستأنفنا طريقنا إلى بلاد المشرق، واكتشفنا مدينة بيت المقدس في شق في الجبال، ولا أعلم ماذا كنت أبصر، وأظن أني كنت أرى كومة من الصخور المحطمة، فقد كان للرؤية المفاجئة لمدينة الأحزان وسط زينة معزولة وقع مخيف، فقد كانت بحق ملكة الصحراء.

وتقدمنا في سيرنا، وكان مظهر الجبال على حاله دائماً، أي أنه كان أبيض مترباً خالياً من الظل والشجر والعشب والطحالب. وعند الساعة الرابعة والنصف، هبطنا من أعلى هذه السلسلة الجبلية إلى سلسلة أقل ارتفاعاً، وسرنا على هضبة مستوية إلى حدٍّ ما، لمدة خمسين دقيقة. وأخيراً وصلنا إلى الصف الأخير من الجبال التي تحف من جهة الغرب وادي الأردن، ومياه البحر الميت.

كانت الشمس على وشك الغروب، وترجلنا من جيادنا لندعها ترتاح، وأخذت أتأمل على مهل البحيرة والوادي والنهر.

عندما يجري الحديث عن الوادي، فإن ما يتصوره المرء هو وادٍ مزروع أو غير مزروع، وهو عندما يكون مزروعاً يكون مغطًّى بالطحالب والكروم والقرى والقطعان، أما عندما يكون غير مزروع فإنك تجد فيه المروج أو الغابات، وإذا كان يجري نهر يرويه فإن لهذا النهر تعرجات، وتملك الروابي التي تشكل هذا الوادي انعطافات يجذب مشهدها الأنظار ويمتعها.

أما هنا فليس هناك شيء من هذا القبيل، وليس من شيء هناك

Twitter: @alqareah

سوى سلسلتين طويلتين من الجبال الممتدة على نحو متوازٍ من الشمال إلى الجنوب، بلا تعرجات أو انعطافات، وهنالك سلسلة الشرق والمسماة بالجبل العربي وهي الأكثر ارتفاعاً، وبالإمكان رؤيتها علي بعد ثمانية أو عشرة فراسخ وكأنها جدار عامودي كبير يشبه تماماً جبال الجورا بشكله ولونه اللازوردي، ولا يميز المرء قمة أو ذروة، وكل ما يلاحظه هو انحناءات هنا وهناك، كما لو أن يد الرسام الذي رسم هذا الخط الأفقي على السماء قد ارتعشت عند مواضع منه.

أما السلسلة الغربية فتعود إلى جبال يهوذا، وهي أقل ارتفاعاً وأكثر تعرجاً من السلسلة الشرقية، وتختلف عنها بالطبيعة، وتشتمل على أكوام طباشيرية ورملية ضخمة، وتحاذي هيئتها حزماً من الأسلحة أو الأعلام المطوية، أو الخيم الجاثمة. أما من جهة الجبل العربي فهنالك على العكس صخور عامودية سود تلقي بعيداً بظلها علي مياه البحر الميت، وقد لا يجد أصغر عصفور على هذه الصخور عشّاً من العشب ليقتات عليه، فكل ما هنالك يعلن عن وطن لشعب منبوذ. ويبدو أن كل شيء يوحي بالرعب والمحارم الذي خرج عنها آمون وموآب Ammon et Moab ويكشف الوادي المحصور بين هاتين السلسلتين من الجبال عن أرض شبيهة بقاع بحر انحسرت مياهه منذ أمد طويل، وسطوح من الملح، وبوتقة جفّت، ورمال متحركة كما لو حززتها السيول، ونرى هنا وهناك شجيرات هزيلة نمت بصعوبة على هذه الأرض المحرومة من الحياة، وأغصانها مغطاة بالملح الذي اقتاتت عليه، ولقشرتها طعم رائحة الدخان.

نلاحظ وسط القرى بقايا عدد من الأبراج، ويمر وسط الوادي نهر بلا لون، ويجر بنفسه على مضض نحو بحيرة نتنة تقوم بابتلاعه، ولا يمكن تمييز مجرى النهر وسط هذا المنبسط الرملي إلا من خلال أشجار الصفصاف والقصب التي تحف به، ويختبئ العربي في هذا القصب كي يهاجم المسافر أو يجرد الحاج من ماله.

هذه هي الأماكن الشهيرة ببركات السماء ولعناتها، تبدو

Twitter: @alqareah

وكأنها قد سممت أمواجها، فليس بوسع أغوارها المتوحدة أن تغذي أي كائن حي، ولم تدفع أية سفينة أمواجها أبداً. إن رمالها خالية من العصافير أو الأشجار والخضرة، وإن مياهها ذات المرارة المخيفة هي من الثقل بمكان حتى صار من الصعب على الرياح الأكثر عتواً أن تحركها.

عندما يسافر المرء على جبل الجودي فإن ضجراً كبيراً يستحوذ أولاً على قلبه، ولكن ما أن ينتقل من عزلة إلى أخرى، حتى يتسع الفضاء أمامه بلا حدود، ويتلاشى الضجر رويداً، رويداً، ويشعر برعب خفي عوضاً عن أن يُهَدِّئَ نفسه، ويمده بالشجاعة ويرتقي بالذكاء، ويكشف مظاهر خارقة من كل جانب عن أرض صنعتها المعجزات، فالشمس الحارقة والعقاب المندفع، وشجرة التين العقيمة وكل الشعر وكل لوحات الكتاب السماوي موجودة هنا، فكل اسم ينطوي على لغز، وكل مغارة تعلن عن المستقبل، وكل قمة ترجع صدى عبارات تلفظ بها نبي. الرب بعينه تحدث عن هذه الحافات، فالسيول التي جفت والصخور التي تشققت والقبور التي تصدعت تشهد على المعجزة، وما تزال الصحراء تبدو وكأنها خرسانة من الرعب، وكأنها لم تجرؤ على كسر الصمت منذ سماعها لصوت الأبدية.

على حافة البحر الميت

هبطنا من سفح الجبل كي نذهب لقضاء الليل على حافة البحر الميت، ولكي نعود من جديد إلى نهر الأردن، فازدادت مجموعتنا الصغيرة.

لقد هيأ رجال بيت لحم بنادقهم، وساروا بحيطة وحذر، لقد كنا على طريق عرب الصحراء الذين يذهبون لجلب الملح من البحيرة، والذين يشنون حرباً بلا هوادة على المسافر، فقد بدأت سلوكيات البدو بالتغير إثر معاشرتهم الطويلة للأتراك والأوروبيين، فهم يحرضون الآن بناتهم وزوجاتهم على البغاء، ويقطعون رأس المسافر، وقد كانوا في السابق يكتفون بانتزاع أمواله.

Twitter: @alqareah

سرنا لمدة ساعتين على هذا النحو، حاملين المسدس باليد كما لو كنا في بلد معادٍ، كنا نقتفي بين كثبان الرمال التصدعات المتكونة في الحمأة، والتي احترقت من أشعة الشمس. كانت القشرة الملحية تغطي الأرض المنبسطة، وتظهر كما لو كانت حقلاً من الثلج، حيث مازالت تعلو فيها بضعة شجيرات كسيحة، ثم وصلنا فجأة إلى البحيرة وأقول فجأة لأني كنت أظن أننا كنا بعيدين عنها آنذاك، إذ لم يكن هناك ما يشي باقترابنا من المياه، إذ لا صوت ولا طراوة في الهواء، وكان الرمل المرصع بالأحجار حارقاً، والموج على الضفة ساكناً وميتاً تماماً.

كان الليل مطبقاً، ولذا فإن أول شيء قمت به بعد أن وطئت قدمي الأرض، هو أني دخلت في البحيرة حتى ركبتي، ووضعت قليلاً من مائها في فمي. كان يستحيل علي أن أبقيه فترة أطول، فقد كانت ملوحته أقوى بكثير من ملوحة ماء البحر، ولها من التأثير على الشفاه ما لمحلول شبّ مركز. وما أن جفت جزمتي حتى تغطت بالملح، وتشبعت ملابسنا وأيدينا بأقل من ثلاث ساعات بهذا المعدن، وقد سبق لـ (غاليان) Galien أن لاحظ هذا التأثير، وأكد (بوكوك) Pocoke على وجوده أيضاً.

أقمنا معسكرنا على حافة البحيرة، وأشعل رجال بيت لحم النار لإعداد القهوة، ولم يكن الحطب ينقصنا، وذلك لأن الضفة كانت مزدحمة بأغصان التمر هندي التي كان العرب قد جلبوها معهم، وما خلا الملح الذي كان يحصل عليه العرب جاهزاً من هذا المكان، فقد كانوا يسيرون بكثير من الحذر في الريف، ولم يكونوا يخشون إضرام النار التي بوسعها أن تدل على مكان وجودهم. وكان أحدهم يستخدم طريقة غريبة لجمع الحطب، فقد كان يفرشخ على كومة الحطب ويجلس على النار، وعندما ينفخ الدخان رداءه ينهض فجأة فيعمل الهواء المشفوط على هذا النحو على إضرام ألسنة رائعة من اللهب.

Twitter: @alqareah

نام رفاقي بعد أن شربوا قهوتهم، وبقيت وحدي مستيقظاً مع العربي.

عرب أريحا

ذكرت أن علي آغا ولد في قرية أريحا، وكان حاكماً عليها، وقادني في ولاياته حيث حظيت بحسن استقبال مواطنيه.

في الواقع كانوا يأتون للثناء على سيدهم، وعندما أراد مني أن أدخل معه إلى كوخ عتيق كان يسميه قصره رفضت هذا الشرف، وفضلت تناول العشاء على طرف نبع الأليسيه والذي يسمى اليوم نبع الملك. وأثناء اجتيازنا للقرية شاهدنا شاباً عربياً يجلس منعزلاً، ورأسه مزين بالريش، ومتأنق كما لو كان اليوم عيداً، وكان كل من يمر أمامه يتوقف ليقبل جبينه وخديه. قيل لنا إنه عريس، وحين توقفنا عند نبع الملك ذبحنا حملاً ووضعناه لشيّه بأكمله على كومة كبيرة من الحطب، مجلوبة من حافة الماء، وقد أخذ عربي يرتدي قميصاً، بتفحص كومة كبيرة من الذرة. وعندما جهزت الوليمة جلسنا حلقة أمام صحن من الخشب، وأخذ كل واحد منا يمزق بيديه طرفاً من الضحية، وقد يروق للمرء أن يتبين في هذه العادات آثاراً من عادات الأزمان القديمة، وأن يجد لدى أحفاد إسماعيل ذكريات عن إبراهيم ويعقوب.

وصف العربي

لقد بدا لي العرب حينما رأيتهم في جبال يهوذا وفي مصر وحتى في البربرية طوال القامات أكثر من قصار القامات، وأنهم يسيرون بشكل متفاخر، وهم حسنو الخلقة، وممشوقو القوام، لهم بشرة بيضاء، وجبين عالٍ ومقوس، وأنف أقنى، وعيون واسعة ولوزية، ونظراتهم ندية وعذبة إلى حد غريب. ولو أنهم أبقوا أفواههم مغلقة دوماً لما دلّ شيء لديهم على الوحشية، بيد أنهم ما أن يبدؤوا الكلام حتى تسمع لغة صاخبة وملفوظة بملء النفس،

Twitter: @alqareah

وتلحظ أسناناً طويلة فاتنة ببياضها كأسنان ابن آوى، أو النمر الأبيض، ولذا فهم يختلفون في هذا عن المتوحشين الأميركيين الذين تتجلى ضراوتهم في النظرة وتعبيرهم البشري في فمهم.

وللنساء العربيات قامة طويلة نسبة إلى قامات الرجال، ولهن هيئة مهيبة، ويذكر اتساق ملامحهن وجمال أشكالهن وطريقة وضعهن للحجاب بتماثيل الكاهنات وربات الفن، ولكن ينبغي أن يفهم هذا على نحو مطلق، فهذه التماثيل الجميلة تكون في الغالب مكسوة بالأسمال، إذ أن هيئة البؤس والوساخة والمعاناة قد أتلفت هذه الأشكال النقية للغاية، وأخفت بشرتهن النحاسية اتساق ملامحهن، وبعبارة واحدة فإن أنت شئت رؤية هؤلاء النسوة كما وصفتهن لتوي، فعليك أن تتأملهن من بعيد، والاكتفاء بالمظهر العام، وعدم الدخول في التفاصيل.

لباس العربي

يلبس معظم العرب رداء معقوداً بحزام عند الخصر، وتارة ينزعون ذراعاً من كم هذا الرداء فيصبح لباسهم على طراز الأقدمين، وتارة أخرى يلفون أنفسهم بغطاء من الصوف الأبيض يكون بمثابة توجه(*)، إذ هم لفُّوا أنفسَهم به، ومعطفاً إن هم علقوه على أكتافهم، ووشاحاً إن هم وضعوه على رؤوسهم، ويمشون حفاة القدمين، ويتسلَّحون بخنجر، أو رمح، أو بندقية طويلة.

تنتقل القبائل في قوافل، وتسير الجمال في خط واحد، فيربط الجمل الذي يترأس الجمال بحبل مصنوع من حشوة النخيل برقبة حمار يكون هو المرشد للقطيع، ويعفى هذا الحمار من حمل الأثقال نظراً لكونه الرئيس، ويتمتع بامتيازات عديدة.

وتكون هذه الجمال لدى القبائل الثرية مزينة بالسجف

(*) لباس روماني فضفاض.

Twitter: @alqareah

واليافطات والريش، وتعامل الخيول بأقل أو أكثر من الشرف تبعاً لنبل أعراقها، بيد أنها تعامل بصرامة قصوى ولا توضع الجياد في الظل مطلقاً، بل تترك معروضة لكامل حرارة الشمس، ومربوطة من أرجلها الأربع بأوتاد في الأرض على نحو يجعلها ساكنة، ولا ينزع منها السرج مطلقاً، وهي لا تشرب الماء سوى مرة واحدة، ولا تأكل سوى القليل من الشعير كل أربعة وعشرين ساعة. وإن هذه المعاملة القاسية لا تهلكها بل تمنحها الرصانة والصبر والسرعة، ولطالما تأملت بإعجاب فرساً عربية مربوطة على هذا النحو فوق الرمال الحارقة، وكان شعر عنقها ينسدل مبعثراً، ورأسها محنياً بين ساقيها بحثاً عن القليل من الظل، وتسدد عينها الوحشية نظرة مائلة إلى سيدها، هل حرّرت قدميها من القيود؟ وهل وثبت على ظهرها؟ إنها تزبد وترتعش وتنهش الأرض، ويدق الطبل قائلاً:

(هيا بنا) وهكذا تتعرف على فرس جوب (أيوب).

الحكايات عند العرب

إن كل ما يقال عن ولع العرب بالحكايات هو صحيح، وسوف أورد مثلاً على ذلك:

أثناء الليل الذي قضيناه على رمال البحر الميت، كان رجال بيت لحم جالسين يحيطون بكومة الحطب، وبنادقهم موضوعة على الأرض إلى جانبهم، وكانت الجياد مربوطة بالأوتاد، وقد تشكلت حلقة ثانية في الخارج، وبعد أن شربنا القهوة، وتحدثنا كثيراً مع بعضنا، سكت هؤلاء العرب باستثناء الشيخ، كنت أرى على وميض النار إيماءاته المعبرة، وشاربه الأسود وأسنانه البيض والأوضاع المختلفة التي تتخذها ملابسه، وهو يواصل سرد حكايته، فكان رفاقه يصغون إليه بانتباه عميق، وقد انحنوا جميعهم إلى الأمام، ووجوههم ممدودة صوب اللهب، مطلقين تارة صيحة إعجاب، مرددين تارة وعلى نحو مفخم إيماءات الراوي، وإن عدداً من رؤوس الجياد المشرئبة فوق القطيع، والمرتسمة في الظل تمنح هذه

Twitter: @alqareah

اللوحة طابع الأصالة المحلية، ولا سيما عندما نلحقها بمشهد البحر الميت وجبال يهوذا.

مقارنة العربي بالأميركي

لقد سبق لي أن درست باهتمام بالغ الأثر، الأقوام الأميركية التي تعيش على حافة البحيرات، إلا أن ما تأملته هنا هو جنس آخر من الأقوام البرية، إن ما أراه تحت ناظري هم أسلاف العرق البدائي للرجال، وإني أراهم بالعادات ذاتها الموروثة من أيام هاجر وإسماعيل، وإني لأراهم في الصحراء ذاتها التي أورثها لهم الله. كنت ألتقي بهم في (وادي الأردن)، وأسفل جبال (السامرة)، على طرق (الخليل)، في الأماكن التي أوقف فيها يشوع حركة الشمس في حقول (عمورة) التي بقيت تستشيط من غضب يهوه، حتى هدأتها معجزات يسوع المسيح برحمتها. إن ما يميز على الأخص العرب من شعوب العالم الجديد هو أنك تشعر على الرغم من فظاظتهم بنوع من الرقة في سلوكياتهم، فالمرء يشعر بأنهم قد ولدوا في هذا الشرق الذي خرجت منه كل الفنون وكل العلوم وكل الأديان. فأمام الكندي القابع في أقاصي الغرب في منطقة معزولة عن العالم، والذي يقطن في الوديان المظللة بالغابات الأزلية والمروية بالأنهار الواسعة، هناك العربي المرمي إن جاز القول على الطريق الرئيسي من العالم بين أفريقيا وآسيا، ويتجول في مناطق الفجر اللامعة على أرض بلا شجر ولا ماء، وينبغي أن يكون بين الأقوام المنحدرة من إسماعيل أسياد وخدم وحيوانات أليفة وحرية خاضعة للقوانين. أما إنسان الأقوام الأميركية فهو مايزال يعيش وحيداً للغاية، مع استقلاليته الفخورة القاسية، فبدلاً من غطاء الصوف يستعمل جلد الدب، وبدلاً من الرمح يستخدم السهم، وبدلاً من الخنجر يستخدم الهراوة، ولا يعرف أبداً بل ويأنف من التمر والرقي وحليب البعير، ويطلب ولائم من اللحم والدم وهو لا يملك وبر الماعز ليعطيه الدفء في خيامه، ويستمد من خشب الدردار البالي كساء لكوخه، وهو لا يروض

Twitter: @alqareah

الفرس لمطاردة الغزال، بل يطاردها بنفسه، وهو لا ينتمي بذاته إلى الأوطان العظيمة المتحضرة، وأنت لن تصادف ذكراً لاسم أجداده في سجل الإمبراطوريات التاريخي، أما معاصرو أجداده فهم أشجار البلوط التي ماتزال واقفة، وقبور آبائه صروحاً للطبيعة، وليس للتاريخ، تقف غير معروفة في الغابات المجهولة. وبعبارة أخرى فإن كل شيء لدى الأميركي يعلن عن البري الذي لم يصل بعد إلى حالة الحضارة وكل شيء لدى العربي يدل على الرجل المتحضر الذي انتكس إلى الحالة البرية.

وادي جهنم

يبدو أن وادي جهنم استخدم دائماً كمقبرة في القدس، فأنت تعثر فيه على صروح آثارية تعود إلى العصور الغابرة، وإلى العصور الأكثر حداثة، فاليهود يأتون ليموتوا فيه من مختلف أرجاء العالم، إذ يبيع لهم غريب ما قليلاً من التراب بوزن الذهب ليطمروا فيه أجسادهم في هذا الحقل، إن أشجار الأرز التي زرعها سليمان الحكيم في هذا الوادي، والمعبد الذي كان يغطيه بظله، والسيل الذي كان يخترقه، والمزامير التي ألفها داود فيه، والمراثي التي كان ينشدها، جعلت من هذا الوادي ملائماً للحزن، ولسلام المقابر.

عندما شرع المسيح بأحزانه في هذا المكان المتوحد إنما كرسه من جديد إلى الآلام، ولكي يمحو آثامنا سكب داود البريء الدموع التي نشرها فيه الآثم لكي يكفر هو عن خطاياه.

هنالك القليل من الأسماء التي تحرك في المخيلة أفكاراً مؤثرة ورائعة مثلما يحركه اسم وادي شعيب هذا الوادي المليء بالغموض، حتى إن البشر جميعهم طبقاً للنبي يوئيل لا بد لهم وأن يروا فيه يوم الحساب العسير.

ويقول الأب نو:

(من المعقول أن يثأر لشرق المسيح علانية في هذا المكان،

Twitter: @alqareah

حيث انتزع منه بالخزي والعار، وأن يقوم بمحاسبة البشر بالعدالة بعد أن حاكموه بكل هذا الظلم).

إن مظهر وادي جهنم حزين جداً، إذ أن جانبه الغربي عبارة عن جرف طباشيري عالٍ، يستند إلى الجدران القوطية للمدينة، وترى من فوقه أورشليم، ويتكون الجانب الغربي من جبل الزيتون من أشجار الزيتون، ومن جبل الفضيحة (mons offensionis) أو هكذا يسميه أوثان سليمان، وهذان الجبلان المتلاصقان عاريان تقريباً، وبلون أحمر وأسود. وترى هنا وهناك على سفحيهما المقفرين بعضاً من أشجار الكروم السود المحترقة، وبعضاً من أغراس أشجار الزيتون البري، والأراضي البائرة المغطاة بنبات الزوفا، وقبباً وكنائس صغيرة، ومساجد مهدمة، ونكتشف في قاع الوادي جسراً له قوس واحد، يعبر إلى مجرى نهر قدرون، وتبدو أحجار مقبرة اليهود كما لو كانت كومة من الحطام أسفل جبل الفضيحة تحت قرية سلوان العربية، وإنك بالكاد تميز أكواخ هذه القرية عن القبور المجاورة لها، وثمة ثلاثة صروح آثارية قديمة تلفت الأنظار إليها في حقل الخرائب هذا، وهي ضريح زكريا (zacharie) ويهوشافاط (Josaphat) وإبشالوم (absalon)(*).

ويخال المرء عند رؤيته حزن أورشليم، حيث لا دخان ولا ضجة لعزلة الجبال، حيث لا حياة لكائن، وتقول فوضى هذه الأضرحة نصف المفتوحة في التراب، أن ساعة الحساب قد دقت، وأن الأموات سينهضون في وادي شعيب.

مدينة بيت المقدس

ترتبط أورشليم ولا أدري لماذا بـ (الباشاليق)(*) في دمشق، ولعل السبب يعود إلى السياسة التهديمية التي يتبعها الأتراك على نحو طبيعي وغريزي، ولأن أورشليم مفصولة عن دمشق لوجود

(*) ابن داود عصى أباه وقاتله وانهزم فقتله يؤاب خلافا لأمر داود.

Twitter: @alqareah

الجبال، فضلاً عن وجود العرب الذين يغزون الصحارى، فلم يكن بمستطاعها على الدوام أن ترفع شكواها إلى الباشا عند تعرضها إلى قمع حكامها، وكان من الأيسر لها الاعتماد على (باشاليق عكا) الواقعة في الجوار. وكان بمقدور الإفرنج والآباء اللاتين طلب حماية القنصليات المقيمة في موانئ سوريا، وبمقدور الإغريق والأتراك سماع التهم. بيد أن هذا هو ما كان الأتراك يسعون إلى تجنبه تحديداً، فقد كانوا يريدون عبودية خرساء، وليس مسحوقين صلفين يجرؤون على الوشاية بمن يسحقهم.

كانت مدينة بيت المقدس إذن تابعة لحاكم مستقل تقريباً، بإمكانه القيام بما يحلو له من الشرور بلا عقاب، إلا أمر تصفية الحساب مع الباشا التي ستكون فيما بعد، والكل يعلم أن كل مسؤول في تركيا له الحق في تفويض سلطاته إلى من هو أدنى منه، وأن سلطاته واسعة على الدوام، وتشتمل على أملاك ومصائر التابعين، ويمكن لأي إنكشاري - مقابل بعض أكياس من المال - أن يصبح آغا صغيراً، وبوسع هذا الآغا الصغير أن يقطع رأسك، أو يسمح لك أن تشتريه منه. وهكذا تضاعف عدد الجلادين في كل قرى جبال يهوذا، الشيء الوحيد الذي تسمعه في هذه البلاد والعدالة الوحيدة المعمول بها هي:

شخص يدفع عشرة أو عشرين أو ثلاثين كيساً، وشخص سينال خمسمائة ضربة عصا، وشخص سيُقطع رأسه، فأي عمل غير عادل يدفع إلى عمل غير عادل أفدح منه، فإن حدث سلب أحد الفلاحين فإن الفاعل سيشعر بضرورة سلب الجار أيضاً. فهو لكي يتخلص من النزاهة المزيفة للباشا يتحتم عليه امتلاك ما يكفي من المال يأتيه من جريمة ثانية، فيدفعه إلى الباشا ثمناً للإفلات من قصاصه.

وربما يظن البعض أن الباشا عند تجواله في ولايته يعمل على معالجة هذه المصائب ويثأر للشعب، إلا أن الباشا هو بحد ذاته

(*) ولاية الباشا في دمشق في العصر العثماني.

Twitter: @alqareah

مصيبة كبرى لسكان مدينة بيت المقدس، فكانوا يخشون وصوله كما لو كان وصول قائد عدو، فتغلق الحوانيت، ويختبئ الناس في السراديب، ويتظاهر بعضهم بالاحتضار فوق حصرانهم، ويهرب البعض الآخر إلى الجبل. وبإمكاني أن أشهد على هذه الوقائع، لأني كنت في مدينة بيت المقدس لحظة وصول الباشا.

وصول الباشا

يتَّصف عبد الله كما هو حال جميع الأتراك ببخل معيب، وكان يظن أن من حقه الإفراط في أعماله الابتزازية، بحجة كونه قائد القافلة إلى مكة، وأنه بحاجة للحصول على المال ليحمي به الحجاج على نحو أفضل. لم تكن هناك من وسيلة إلا وابتدعها، وهنالك واحدة غالباً ما كان يستخدمها وهي وضع تعريفة منخفضة للغاية على أسعار المواد الغذائية.

فيطير الشعب فرحاً، لكن التجار يغلقون محلاتهم، وتبدأ المجاعة، ويتواطأ الباشا سراً مع التجار، فيعطيهم مقابل عدد من أكياس النقود إجازة بالبيع بالأسعار التي يريدونها، ولكي يستعيد التجار ما أعطوه من مال إلى الباشا يعملون على رفع أسعار موادهم إلى حدود غير محدودة، فيضطر الشعب الذي يموت جوعاً للمرة الثانية ولكي يعيش إلى التجرد من آخر ما يملك من ثياب.

وقد رأيت عبد الله وهو يرتكب جريمة أدهى، فقد ذكرت في موضع آخر، بأنه أرسل فرسانه لسلب العرب المزارعين عند الجانب الآخر من نهر الأردن، إذ تُفاجِئ هؤلاء الناس الطيبين الذين لم يكونوا يعتقدون بأنهم في حالة حرب لأنهم دفعوا (الميرة)، وذلك بالهجوم عليهم وسط خيامهم وقطعانهم، وقد سُرقت منهم ألفان ومائتا معزاة وخروف، وأربعة وتسعون عجلاً، وألف حمار، وستة جياد أصيلة، ولم يفلت منهم سوى الجمال، وإن كانت قد سرقت منهم ستة وعشرون منها. إذ صاح عليهم شيخ من بعيد فتبعوه، وكان هؤلاء الأطفال الأوفياء للصحراء ذهبوا لإعطاء الحليب

Twitter: @alqareah

لأسيادهم في الجبل، كما لو أحسّوا أن هؤلاء الأسياد لم يكن لديهم من قوت آخر غير هذا الحليب.

ولا يتخيل الأوروبي ماذا فعل الباشا بهذه الغنيمة، لقد حدَّد لكلّ بهيمة سعراً يتجاوز مرتين قيمتها الحقيقية، فقد قدر ثمن كلّ معزة وكلّ خروف بعشرين قرشاً، وأرسل البهائم بعد تحديد أسعارها إلى الجزّارين، وإلى مختلف الخاصة من مدينة بيت المقدس وإلى رؤساء القبائل المجاورة. وكان ينبغي على هؤلاء جميعاً شراؤها وإلا دفعوا الموت ثمناً لمعارضتهم. وأعترف بأني لو لم أكن قد شهدت بأم عيني هذا الظلم المضاعف، لما بدا لي هذا الأمر معقولاً على الإطلاق. أما الحمير والجياد فقد بقيت بحوزة الخيالة، وذلك بموجب اتفاق غريب بين هؤلاء اللصوص ينص: على أن تعود الحيوانات المجترة إلى الباشا، وأن تكون البهائم الأخرى من قسمة الجنود.

وبعد أن أنهك الباشا مدينة بيت المقدس انسحب منها، ولكن لكي لا يدفع أجرة حراس المدينة، ولكي يقوي موكب حراسة قافلة مكة، اصطحب معه الجنود، فبقي الحاكم وحيداً مع عشرة من الجلاوزة غير الكافين لحراسة المدينة الداخلية، فما بالك بحراسة البلد برمته.

وفي السنة التي سبقت رحلتي إلى هذا البلد، اضطر الحاكم نفسه إلى الاختباء في منزله ليفلت من عصابات اللصوص الذين كانوا يمرون من فوق جدران مدينة بيت المقدس وأوشكوا على نهب المدينة. وما إن غادر الباشا حتى حلت مصيبة أخرى كنتيجة لطغيانه، إذ انتفضت القرى المنكوبة وأخذت تهاجم بعضها البعض تصفية لأحقاد قديمة، فانقطعت جميع الاتصالات، وهلكت المزروعات، فكان الفلاح يذهب أثناء الليل ليدمر كرمة وشجرة زيتون عدوه، وعندما عاد الباشا في العام التالي طلب الأتاوة نفسها، إلا أن عدد سكان المدينة انخفض، فاضطر إلى مضاعفة جوره، وقرر أن يقضي على مجموعات سكانية بأكملها، فاتسعت

Twitter: @alqareah

الصحراء شيئاً فشيئاً، وأصبح مشهد الأكواخ المهدمة يمتد بعيداً، وأمام هذه الأكواخ عدد متعاظم من القبور، وسيشهد كل عام خراب كوخ وعائلة، ولم يبقَ بعد ذلك سوى المقبرة إشارة على المكان الذي كانت تقع فيه القرية.

وصف المدينة

تمثل مدينة بيت المقدس إذا نظرنا إليها من جبل الزيتون أشجار الزيتون، ومن الجهة الأخرى لوادي جهنم سطحاً منحنياً على الأرض التي تنحدر من الغرب إلى الشرق، وثمة سور مسنَّن يتكئ على أبراج قصر قوطي، ويحيط هذا السور بالمدينة برمتها، تاركاً مع ذلك في الخارج جزءاً من جبل صهيون، مع أن هذا السور كان يحتضنه في الماضي، وتتلاصق المنازل في منطقة الغرب ووسط المدينة قرب جبل الجلجلة. بيد أنك تلاحظ من جهة الشرق وعلى امتداد وادي قدرون فضاءات خالية، فهناك الحرم المحيط بالمسجد المشيد على بقايا المعبد، والأرض شبه المهجورة حيث ينتصب قصر أنطونيا وقصر هيرود الثاني ومنازل مدينة بيت المقدس، وهي عبارة عن كتل مربعة صقيلة منخفضة للغاية، وهي بلا مداخن أو نوافذ، وتنتهي بسطوح مستوية أو بقباب، وتكون شبيهة بالسجون أو الرموس، وبدا كل شيء على مستوى واحد لو لم تغير نواقيس الكنائس ومنارات المساجد ورؤوس أشجار السرو وأدغال الصبار الهندي من رتابة هذا السطح. وإنك تتساءل عند رؤيتك لهذه المنازل الحجرية داخل مشهد من الحجارة، إن لم يكن ما تراه أمامك هو أبنية مبهمة لمقبرة وسط الصحراء؟

وعند دخولك إلى المدينة لن تجد ما ينسيك ما رأيته من حزن في الخارج، وستتيه في أزقة صغيرة غير مبلطة، تصعد وتهبط على أرض غير مستوية، وتسير بين أمواج التراب أو بين الحصى المكورة، ومما يزيد من ظلام هذا الدهليز أغطية من الكتان مرمية من بيت لآخر، وتنزع البازارات المحدودبة العفنة آخر ما يتسلل إلى

Twitter: @alqareah

المدينة الكئيبة من ضياء، ولا تعرض الحوانيت الهزيلة القليلة سوى حاجيات مزرية وغالباً ما تكون هذه الحوانيت مغلقة تحسباً من مرور القاضي، فلا أحد في الشوارع ولا أحد على أبواب المدينة إلا في أحيان قليلة، فينسحب مزارع إلى الظل وهو يخفي تحت ملابسه ثمار عنائه خوفاً من أن يسلبها منه الجندي. وفي مكان منعزل يذبح جزار عربي بهيمة معلقة من قدميها على جدار مهدم، وإنك لتظن عند رؤيتك لهيئته الحائرة الشرسة ولذراعه الملطخة بالدم، بأنه أقدم لتوه على قتل بشر مثله وليس على ذبح حمل. وليس هناك من ضجة في هذه المدينة التي صلب فيها المسيح، وكل ما تسمعه من حين لآخر هو خبب فرس الصحراء الأصيلة التي يمتطيها الانكشاري العائد برأس البدوي والذاهب لسلب الفلاح.

وينبغي وسط هذا الدمار غير العادي التوقف لحظة لتأمل أشياء أكثر غرابة، فهنالك وسط خرائب مدينة بيت المقدس فئتان من الشعوب المستقلة التي تستمد من عقيدتها ما يعينها على تجاوز هذا الكم من الرعب والشقاء، فهناك يعيش رهبان مسيحيون ليس بمقدور أحد أن يجبرهم على التخلي عن قبر يسوع المسيح لا النهب ولا المعاملة السيئة ولا التهديد بالموت، وتتردد أصداء أناشيدهم ليل نهار حول قبر المسيح، يسلبهم الحاكم التركي صباحاً فتجدهم وقد عادوا مساء أسفل جبل الجلجلة يصلُّون في المكان الذي تعذب فيه يسوع المسيح من أجل خلاص البشرية، الهدوء على جبينهم وثغورهم ضاحكة، يستقبلون الغريب بمرح ويوفِّرُون الحماية لقرى بأكملها ضد الجور، وهم بلا قوت أو جنود، وعندما تتعرض النساء والأطفال والقطعان لضرب العصي أو السيف يلجؤون للاحتماء في أديرة هؤلاء النساك. فما الذي يمنع الشرير المسلح من مطاردة ضحيته وقلب مثل هذه المتاريس الهزيلة؟

إنه إحسان الرهبان الذين يحرمون أنفسهم من آخر مصادر عيشهم، ليفتدوا المتضرعين أتراكاً وعرباً ويونانيين ومسيحيين، يأتون طلباً لحماية قلة من الرهبان الفقراء الذين لا يستطيعون

Twitter: @alqareah

الدفاع عن أنفسهم، وهنا علينا أن نعطي الحق إلى ما يقوله بوسويه(*):

(لأن الأيدي المرفوعة صوب السماء تخترق عدداً من الأفواج أكبر مما تفعله الأيدي التي تشهر الحراب).

بينما تخرج مدينة بيت المقدس الجديدة من الصحراء هكذا تلمع ألقاً، بإمكان المرء أن يرى من جبل صهيون والمعبد شعباً صغيراً آخر يعيش منعزلاً عن باقي سكان المدينة، معرضاً في الأخص لجميع أنواع الازدراء، يطأطئ برأسه دون أن يشتكي ويعاني من كل أشكال الاحتقار دون أن يطالب بالإنصاف، ويدع نفسه للضربات دون أن يتأوه يطلبون منه رأسه فيقدمه إلى المقبرة، وإن قضى فرد من هذه المدينة نحبه يمضي رفيقه ليلاً ليدفنه خفيةً في وادي جهنم في ظل معبد سليمان، وإن أنت توغلت في مسكن هذا الشعب لوجدته في حالة من البؤس المخيف، يقرأ كتاباً مبهماً على أطفال سيقرؤونه هم بدورهم على أطفالهم، وإن ما يفعله هذا الشعب منذ خمسة آلاف من الأعوام ما زال يفعله في يومنا هذا، لقد شهد هذا الشعب خراب مدينة بيت المقدس سبع عشرة مرة وليس بإمكان أحد أن يوهن عزيمته، ولا أحد يمنعه من تحويل أنظاره عن جبل صهيون. فعندما نرى اليهود مشتتين في الأرض طبقاً لقوانين الله فنندهش بلا ريب، بيد أننا نصاب بدهشة غير مألوفة عندما نجدهم في مدينة بيت المقدس، ونراهم ينتظرون، وهم يتحملون كل أنواع القمع، ملكاً لا بد أن يأتي ليخلصهم، وهم مسحوقون بالصليب الذي أدانهم والمثبت فوق رؤوسهم، مختبئون قرب المعبد الذي لم تبقَ حجارته مرصوصة الواحدة فوق الأخرى، سادرون في ضلالهم المؤسف. وقد اختفى الفرس والإغريق والرومان من الأرض، وبقي شعب صغير تستف جذوره هذه الشعوب الكبيرة إلى يومنا دون امتزاج مع غيره، يعيش على الأنقاض، وكان هنالك بين الأوطان من

(*) جاك بوسويه (1627 ـ 1704) واعظ فرنسي شهير بمواعظه وتأبينه الفصيحة ومؤلفاته اللاهوتية والفلسفية والتاريخية.

Twitter: @alqareah

يحمل سمة المعجزة، فنحن نعتقد بأن هذه السمة واقعة هنا، والشيء الأكثر إدهاشاً حين ينظر الفيلسوف في هذا اللقاء بين مدينة بيت المقدس العتيقة والجديدة عند جبل الجلجلة، فالأولى حزينة على صورة قبر المسيح المنبعث، والثانية تواسي نفسها بالقرب من القبر الوحيد الذي سوف لن يكون عليه من دين يرده عند خاتمة العصور.

المغادرة

شكرت الآباء على ضيافتهم، وتمنيت لهم مخلصاً سعادة قلَّما يتوقعونها في الحياة الدنيا، وعندما أوشكت على تركهم شعرت بحزن حقيقي فلم أتعرف على استشهاد يضاهي استشهاد هؤلاء الرهبان التعساء، فالحالة التي يعيشون فيها تشبه الحالة التي كنا نعيش فيها في فرنسا في ظل الإرهاب. كنت على وشك العودة إلى وطني ومعانقة أهلي أو رؤية أصدقائي والعثور مرة أخرى على عذوبة الحياة، بينما سيبقى هؤلاء الآباء الذين كان لهم كذلك أهل وأصدقاء ووطن منفيين في أرض العبودية هذه، ولم يكن جميعهم يمتلك قوة الروح التي تجعلك لا تتأثر بالأحزان إذ تناهت إلى سمعي تحسرات جعلتني أدرك سعة التضحية، أو لم يشعر يسوع المسيح عند هذه الأطراف بمرارة الكأس ومع ذلك تجرعها حتى الثمالة.

في الثاني من تشرين الأول امتطيت حصاني وانطلقنا علي آغا وجون وجوليان والترجمان ميشيل وأنا، وخرجنا من المدينة عند شروق الشمس من باب الحجاج وقطعنا معسكر الباشا وتوقفت قبل نزولي إلى وادي تربينتس لأستزيد النظر إلى مدينة بيت المقدس.

سوف لن يحجها الحاج بعد لأنها لم تعد موجودة، أما ضريح يسوع المسيح فهو معرض الآن إلى عاديات الزمن، لو كنا في الزمن الماضي لهرعت المسيحية بأكملها لترميم القبر المقدس، أما اليوم فلا أحد يفكر في هذا، كما أن أقل حسنة تنفق على هذا العمل الفاضل سيبدو نوعاً من المعتقدات المضحكة. وبعد أن تمليت النظر باتجاه مدينة بيت المقدس بعضاً من الوقت، توغلت في الجبال،

Twitter: @alqareah

كانت الساعة السادسة وتسعة وعشرون دقيقة عندما اختفى مرأى المدينة المقدسة عن عيني، هكذا يسجل البحار اللحظة الأخيرة التي تختفي فيها عن عينه أرض نائية لن يراها بعد ذلك أبداً. وجدنا في أعماق وادي تربينتس قادة عرباً، أبا غوشة وجابر، وكانا في انتظارنا، ووصلنا إلى أرميا عند منتصف الليل، وكان لا بد من أكل الحمل.

كان أبو غوشة قد هيأه لنا، أردت أن أعطيه بعضاً من المال فرفضه، ورجاني فقط أن أرسل له ملء قفتين رزاً من دمياط عند وصولي إلى مصر، فوعدته بصدر رحب أن أفعل ذلك، ومع ذلك لم أفطن إلي وعدي إلا في اللحظة الأخيرة التي كنت أغادر فيها إلى تونس. فما أن استأنفت الاتصالات مع بلاد المشرق، سيستلم أبو غوشة حتماً ما طلبه من رز دمياط، وسيرى أن بمقدور الفرنسي أن ينسى، ولكنه لن يتراجع عن كلمته أبداً، آملاً أن يقوم الشبان البدو الصغار في أرميا بتأمين الحراسة لي يوماً وأن يقولوا إلى الأمام سر:

(En avant! Marche!)

Itinéraire de paris ajérusalem

Troisiěme et cinquiěme parties

Twitter: @alqareah

لوي أوغست كونت دو فوربان

رحلة إلى بلاد المشرق

1817 ـ 1818

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الكونت دو فوربان

النهب المنظم للآثار الشرقية

ولد الكونت دو فوربان في العام 1777 وتُوفي في العام 1841.

بعد حصار مدينة ليون من قبل قطعات الجمعية التأسيسية بقي دو فوربان يتيماً في المدينة، وبدأ دراسة الرسم تحت إشراف النحات دو بواسيو، ثم أصبح تلميذاً للرسام ديفيد. وقد اتسمت حياة هذا الأرستقراطي الجميل ذو الأصل الجنوبي، والطباع الدمثة، والخالي من الطموحات السياسية بالنجاح في مختلف الميادين، إذ كان حاجباً مقرباً لأميرة بورغيس وهي بولين بونابرت، ومن ثم أغراه العمل في الجيش، وصار مقدماً وهو في سن الثانية والثلاثين من عمره، ولكنه اعتزل بعد معركة فاغرام في إيطاليا.

التقى في روما في العام 1813 بمدام ريكاميه، وتنافس عليها مع بنيامين دو كونستان. وفي عهد عودة الملكية عين دو فوربان رئيساً للمتاحف، وأوكلت إليه مهمة إعادة تنظيم متحف اللوفر بعد وصول الآثار الفنية من لوحات وكنوز فنية وآثارية التي تراكمت بوصفها غنائم حرب، منذ العام 1797.

قاد دو فوربان حملة واسعة في العام 1817 إلى الشرق، مولتها السلطة الشعبية وضمت العديد من الأشخاص، فكان فيها الرسام والمعماري والآثاري والمستشرق، وتمتعت كذلك بميزانية ضخمة لشراء القطع الآثارية. وغادرت الباخرة كليوباترة التابعة لقطعات

Twitter: @alqareah

المشرق تولون في 22 من آب في العام 1817، ووصلت إلى أثينا في السادس من أيلول، والتقى فوربان هناك بفوفل الذي كان صديقاً لغوفيه. وبعد أن وصل إلى القسطنطينية في الثامن والعشرين من أيلول عجل بمغادرتها خشية العدوى بالطاعون إلى سميرن، ثم وصل إلى رودس ومن ثم إلى فلسطين التي وصلها في بداية شهر تشرين الثاني، وعند منتصف كانون الأول غادر فوربان مدينة بيت المقدس للوصول إلى دمياط عن طريق البر، وبعد رحلة شاقة وصل إلى القاهرة عن طريق المنصورة، ثم صعد نهر النيل في الثالث عشر من كانون الثاني في العام 1818 حتى مدينة الأقصر. وشكلت مجموعة الآثار التي عاد بها إلى فرساي الربيع التالي نواة متحف شارل العاشر، وقد أصبح فيما بعد رئيساً لقسم الآثار المصرية.

لقد نشر فوربان في العام 1819 رحلته على شكل ألبوم مصور كبير يتضمن ثمانين لوحة، وفي العام ذاته طبع هذا الألبوم مرة أخرى، طبعة شعبية.

Twitter: @alqareah

رحلة إلى بلاد المشرق

القيصرية

بعد أن عبرنا حيفا ومررنا من أسفل جبل الكرمل، وجدنا شاطئاً رملياً أبيض ورواب غير مزروعة تحف بضفة البحر من كل مكان، وتبتعد عنه حوالى الفرسخ تقريباً، وتعلق فوق الغابات الصغيرة وأشجار المصطكي والخروب أطلال مدينة مبهمة المعالم حتى آخر معاقل الصليبيين، وتبرز أبراج عتليت(*) المهجورة منذ أمد بعيد وميناؤها حيث تتكدس الرمال ومتاريسها التي كانت في الماضي ملاذاً حنوناً لمسيحيي فلسطين، وحدائقها التي أصبحت مستنقعات متعفنة غير سالكة.

وجدنا أنفسنا بعد أن داهمنا الليل بالقرب من أكثر ضيعات سوريا تعاسة، ولأن خان طنطورة Kan Tantoura كان ممتلئاً بقافلة وصلت قبلنا، حيث تقيم الضفادع عادة والحشرات الأكثر إزعاجاً والأكثر ضراوة. ولكي لا نضطر إلى ترك هذا المكان الحزين فقد أضرمنا ناراً عظيمة، ورقص الرجال العرب وغنوا ما بقي من الليل، إلا أن هذا الاحتفال لم يكن يلطف من الذكرى التي احتفظت بها عن طنطورة.

وغادرت قبل طلوع الفجر بكثير لأني أردت زيارة القيصرية، فهذه المدينة الواقعة في مكان يشبه عتليت مهجورة بالكامل، ويوحي

(*) عتليت: مرفأ قديم في فلسطين، حصن صليبي 1218.

Twitter: @alqareah

بقاء متاريسها وميناؤها وقبورها بشعور غامض وبدهشة، فأنت تجد فيها الشوارع والساحات، وإن أنت أعدت ترميم أبواب أسوارها العالية المخيفة فسيصبح من السهل العيش في القيصرية والدفاع عنها. ويبدو أن حادثاً مفجعاً كان قد وقع قبل عدد قليل من السنوات، أو من الأشهر كان قد أهلك سكانها العديدين واضطرهم إلى الهرب، فجدران الكنيسة مطوحة بدخان بخور المسيحيين، ومطوح أيضاً المنبر الذي زينه الأساقفة العلماء والشجعان، بينما كانت المقابر مفتوحة، فعظام الأموات وحدها التي تشهد على الإقامة الماضية لإنسان وسط هذه الوحدة المرعبة. ولا يكدر الصمت الذي يسود في القيصرية سوى الضجة المنتظمة والرتيبة للبحر، فتثور الأمواج لالتقائها بما هو غير مجد من العوارض، لذا فهي تتكسر بهيجان وتغطي بالزبد أرصفة المرفأ. ولقد هزت جهود الأمواج المضاعفة كتل الغرانيت الضخمة، وانغلق برج الفنار وبقي سلم القصر وأجزاؤه تنتظر من يكتشفها، حيث جعلت الكواسر منها مقاماً لها، وما تزال القيصرية تحتوي على أعمدة رائعة كثيرة العدد، وقد حافظ عدد منها على وضعه كما كان بالكامل، واستخدم العديد منها في العصر الوسيط كحواجز في الميناء. وكان هذا الصرح يتقدم بعيداً من البحر، إذ استخدمت أقوى المواد في بناء أسسه، ويمكنك أن ترى بين هذه الأنقاض كتلاً من الغرانيت الوردي بحجم ثمانية أقدام تحمل كتابات لاتينية، بيد أنها خشنة للغاية، حيث بات من الصعب قراءتها.

أخذ البحر يزداد صخباً، وكان الزبد الذي تحول إلى رذاذ ضار يبلغنا من كل جانب. وعلى الرغم من حب الاستطلاع الكامن في نفسي، اضطررت لترك الميناء النبيل والحزين للقيصرية.

القدس

كل شيء صامت حول هذه المدينة، كل شيء أخرس، ويبدو أن

Twitter: @alqareah

الصرخة الأخيرة للإنسان الرب هي الصوت الأخير الذي رجعته أصداء سيلوه Siloe وكنعان channan، من على قمم أباريم Abarim وفازغا Phasga وآشور Achor.

تتخلى لك الطبيعة الحزينة كشاهد لم يزل تحت صدمة المشهد الذي مر به، ويتخيل المرء الحروب الدامية للصليبيين وكأنها هذه المعارك الدائرة بين الغيوم والتي تنبئ أطفال الأرض بالفواجع الجسيمة.

وفي يوم وصولي ذاته شاهدت شعب مدينة بيت المقدس اليهودي جميعه مجتمعاً في وادي جهنم بعد أن باع الحاكم لهم الرخصة بأن يقيموا الاحتفالات بعيد الأضرحة، وإنك لتظن عند رؤيتك هؤلاء الأسرى جاثمين في صمت على الأحجار الرمسية لآبائهم بأن الساعة الموعودة قد أزفت، وأن الأجيال تهرع إلى حافات قدرون وأن كلامهم الفرح وآلامهم قد خرجت من وسط الغيوم.

كان حي اليهود هو أول ما أردت زيارته، ولا نكاد نستطيع أن نطلق اسم شارع على الفضاء الضيق الوعر المغطى بالطين، والذي يفصل المنازل شبه المهدمة لحي اليهود، حيث تعيش كائنات شاحبة غير سليمة، ذات أشكال حادة الملامح، تتشاجر مع بعضها البعض من أجل بضعة قروش. وعند نزولي من على سلّم مهدم إلى قبو تستند عقود سقفه على أعمدة كانت في السابق منحوتة ومذهبة، علمت مندهشاً بأني نزلت إلى كنيسة، فشاهدت أطفالاً تغطيهم الأسمال يتعلّمون لدى عجوز ضرير حكاية هذه المدينة.

زيارة الآغا

وذهبت في اليوم ذاته لزيارة عبد الكريم آغا، متسلم أو حاكم مدينة بيت المقدس، إذ تعتمد هذه المدينة على ولاية دمشق والتي

Twitter: @alqareah

تبعد عنها مسيرة أربعة أيام. والمتسلم تركي من استنبول، وكان يتمتع ببعض الحظوة في بلاط سليم باشا، وعندما مات هذا الأخير نزل بعبد الكريم سوء حظ تام. ومنذ ذاك تم إبعاده إلى مدينة بيت المقدس، وصار ينتفع من هذه الحاكمية بأشكال رقيقة ومهذبة.

تناولنا القهوة ودخنا الغليون، ثم قرب عبد الكريم من جبينه أمر السلطان، وبعد ذلك قدمت له الأشخاص الذين كانوا بصحبتي والرسائل الموجهة إليه، وكان ترجمان دير القبر المقدس يترجم لنا. وألححت على تسجيل مشاهد من المدينة ومن خارجها، فشرح الآغا الموضوع طويلاً وانتهى الأمر به إلى الموافقة، وسارع إلى تخصيص الحراسة لي أثناء رحلتي إلى البحر الميت، وهي الرحلة التي كنت أريد القيام بها بعد رحلتي إلى بيت لحم.

كان لعبد الكريم طفل جميل داعبته طويلاً، وجنود انكشاريون قدمت لهم الهدايا، وعبيد دفعت لهم المال، وتركناه ونحن ممتنّون من بعضنا البعض.

غالباً ما كنت أتجول في هذه الأماكن المهجورة حتى طلوع الصباح عبر الأدغال والأشواك والصبار الهندي، وكان اللبلاب يزين الجدران الخارجية، ويرتفع نبات الألوة بثقة على السطوح وفي شقوق النواقيس، وتثب النخلة المنسية من الحديقة إلى الأفاريز الأكثر ارتفاعاً حيث أصبحت ثمارها مرعى للعصفور المتوحد. وغالباً ما أمضيت ساعات كاملة جالساً على قمة السطوح والأبراج والمنارات، فتنغمر روحي بحزن عميق وأنا أتطلع إلى هذا الخراب المخيف.

جبال يهوذا

تشرف صومعة سان مار سابا المشيدة على إحدى الزوايا الصخرية، ومن على ارتفاع أربع مائة قدم، على مجرى قدرون الذي جف، وهذا المكان المنعزل هو أبشع ما رأيت في حياتي على

Twitter: @alqareah

الإطلاق، إذ شقت مغاور النساك بعمق مائة قدم، تحت مجرى السيل في أماكن لا يبدو من الممكن الوصول إليها. كان ثمة حمام وثمة آلاف من الزهاد يعيشون منذ القدم في هذا الوادي الجنائزي الحزين، وما زالت الترغلات تحلق حتى اليوم فوق هذه الهاوية، بينما كان صحن هذه الصومعة الشاسعة ـ حيث لا توجد شجرة أو زرع أو قطرة ماء ـ محصناً بأبراج مربعة. وعند وصولنا إلى الدير أغلقت أبوابه المنخفضة الضيقة والمثقلة بالأشرطة الحديدية والمسامير الضخمة في وجوهنا بقسوة، إذ يبدو أن الوقت كان غير مناسب للرهبان الإغريق الذين لا بد وأنهم قد تعبوا من العدد الكبير لرجال قافلتنا، فضلاً عن نبرة نفاد الصبر التي رافقت توسلاتنا، فرفضوا دخولنا، وصاروا يتحدثون إلينا من أعلى المتاريس وهم يختبئون خلف الشرفات، ودامت المفاوضات ساعة. أما الصلوات الأكثر إلحاحاً والوعيد الأكثر حيوية لم تجد كلها نفعاً، نزلت إلينا بعد انتظار طويل جرة ماء من قمة برج له ارتفاع أربعة وثمانين قدماً، ويبقى الرهبان اليونانيون في حالة ترصد في هذا البرج ليل نهار خوفاً من العرب والذين غالباً ما تأتي قبائلهم بأكملها للهجوم على هذا البرج، فيستولون على كل المنافذ حتى يضمنوا لأنفسهم اتفاقاً بدفع غرامة.

لم تعد جيادنا قادرة على السير خطوة أخرى نظراً لما أصابها من إعياء، وكان الليل حالكاً ومع ذلك كان لا بد لنا من العودة إلى مدينة بيت المقدس. وقادنا دليلنا العربي عبر أماكن يصعب الوصول إليها ليتجنب التدحرج في الهاوية في كل لحظة، فأغمضت عيني واستسلمت إلى الرشاقة الحذرة لفرسي، والذي كان يدع نفسه ينزلق على منحدرات سريعة، وتارة يتوقف فجأة ويرجع على أعقابه، أو يستدير بذكاء مثير للإعجاب.

كان الرعد يجلجل وكان الوقت الثانية صباحاً عندما أضاء لنا وميض البرق مدينة بيت المقدس، وأضاء لنا برق آخر أطول زمناً بعد أن ضرب بنوره المخيف وادي جهنم وجبل

Twitter: @alqareah

الأوفنسيون Offencion قبر حزقيا(*) Ezechias ولولا الصياح شبه المتواصل لمرشدنا، لضلت القافلة الطريق، إذ لم تكن العتمة يوماً بتلك السماكة أبداً.

رحلة إلى المشرق
في العام 1817 ـ 1818

(*) ملك يهوذا ابن آحاز وخلفه، تولى الحكم بعد سقوط السامرة بأيدي الآشوريين، تحالف مع المصريين فسبب حصار سنحاريب لأورشليم في العام 701 ق.م.

Twitter: @alqareah

الفيكونت دو مارسيليوس

ذكريات من الشرق

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفيكونت دو مارسيليوس

حاج الأراضي المقدسة

ولد الفيكونت دو مارسيليوس في العام 1795، وتُوفي في العام 1861.

رافق في العام 1815 الماركيز دو ريفير سفير لويس الثامن عشر في القسطنطينية، وكان ما زال شاباً. لقد أفاد مارسيليوس من إقامته هناك كثيراً، وقد أتقن اللغة اليونانية الجديدة فضلاً عن معرفته باللغات القديمة، وزار طروادة، ونيسيه، وفي غضون العام 1820 وبينما كان موكلاً بمهمة إلى المشرق، شرع برحلة الحج إلى مدينة بيت المقدس.

غادر بيرا في الخامس عشر من أيار على سفينة صيد تابعة لمجموعة سفن المشرق الحربية وبصحبته مكتبة كاملة، وتوقف أثناء رحلته في شيو، وديلوس، وميلو. وحين حالفه الحظ وحصل على تمثال فينوس الذي كان قد اكتُشِفَ قبل أسابيع قليلة، قدَّمه للملك.

توقف في رودس وقبرص ووصل إلى صيدا، وزار الليدي ستانهوب، وفلسطين، ومدينة بيت المقدس، وعلى غرار شاتوبريان منح الفيكونت دو مارسيليوس لقب فارس القبر المقدس، ثم زار فيما بعد مصر والتقى هناك بمحمد علي، وعاد بعدها إلى القسطنطينية عبر رودس ومنها إلى أثينا وسميرن.

Twitter: @alqareah

كان دو مارسيليوس صهراً للكونت دو فوربان، وواصل عمله الناجح في السلك الدبلوماسي في ظل عودة الملكية، عندما كان شاتوبريان سفيراً لفرنسا في لندن (1812 ـ 1823)، ثم أصبح وزيراً في وزارة بوليناك. وفي العام 1830 أعطى هذا المدافع عن الشرعية الملكية استقالته، ليكرّس نفسه لكتابة مذكراته ومنها مذكراته عن الشرق وأخبار حجه إلى القدس، وكان مرشده في ذلك كتاب شاتوبريان (الطريق من باريس إلى القدس) وقد التقى واحدة من الشخصيات الحقيقية التي كتب عنها شاتوبريان في كتابه، وقد صدر كتاب دو مارسيليوس في العام 1839.

Twitter: @alqareah

تأمل في الآثار الباقية

بعد هذه الزيارة التفقدية الأولى التي كان من المفترض أن تعقبها زيارات يومية تقريباً، استأذنت من الآباء الفرنسيسكان، ورافقني جميعهم عند خروجي.

سرعان ما رأيت باب الكنيسة الكبير قد أُغلق عليهم، وقام تركي وهو بواب قبر المسيح بأخذ المفتاح بعد خروجي. لقد عادوا للصلاة حول الضريح الذي أوكلت حراسته لهم وعدت أنا للدير.

كنت بحاجة للاختلاء بنفسي، كان الوقت متأخراً، وانسحبت إلى حجرة الحجاج المعدة لي واستسلمت بكاملي إلى التأملات، كنت في دير عتيق حيث كان كل ما فيه يدل على الفقر وعلى فضائل المسيحية في عصورها الأولى. كان الرهبان قد أتمُّوا صلواتهم المعتادة واستسلموا إلى النوم، فهو الشيء الوحيد الذي كان ينسيهم آلام الحياة، وكان رفاقي في الرحلة يتذوقون عذوبة الراحة بعد تعب طويل، وكنت أنا الوحيد الذي يسهر في الدير.

كنت موجوداً في كنف مدينة بيت المقدس على بعد بضعة خطوات من قبر الرب. كنت قد رأيت أحلام شبابي الورعة وقد تحققت، وصورة المدينة المقدسة التي كانت حاضرة على الدوام في ذهني هناك أمام ناظري، وكنت أسند رأسي إلى إحدى النوافذ التي كان شعاع القمر يصلني من خلال قضبانها، فرأيت وميضه الشاحب

Twitter: @alqareah

مستطيلاً حتى قبة القبر المقدس، وظهر لي جبل الزيتون في الأفق وكأنه ظل، فاجتاحتني ألف نكرى من الإنجيل والتاريخ، وألف فكرة مبهمة، وأحلام للمستقبل، وتأملات حميمية وجسيمة. لا أعلم كم من الوقت دام هذا الوجد، ولكني عندما عدت إلى نفسي كانت روحي منقبضة وأجفاني ندية.

الأب مينوز

خلال أحد الأيام الأخيرة التي أمضيتها في مدينة بيت المقدس، بينما كنت أتنزه كعادتي على سطح دير القديس المخلص، وكان الوقت مساء، وقع ناظري على الجبال العارية المحمرة المحيطة بالبحر الميت، وعلى الأبخرة الثقيلة الشاحبة التي يطلقها ببطء اقتراب الليل من جوفه. فاقترب مني راهب لم أكن قد رأيته في المجموعة، وجذبني من ملابسي، وقال لي بالإسبانية:

ـ سيدي سامحني إن أنا قطعت عليك تأملاتك، فأنا أبحث عنك منذ زمن طويل، ولم أنجح في لقياك إلا هذا المساء. كنت أود أن أسألك إن كان لديك بعض أخبار أحد مواطنيك، ويدعى السيد شاتوبريان.

أجبته مبتسماً:

ـ بلى يا أبتي إن هذا الإسم معروف إلى حد كبير.

ـ إن حامل هذا الإسم هو صديق لي.

فقلت له بدوري:

ـ وما هو اسمك أنت يا أبتي؟

ـ آه يا سيدي إني من أكثر الرهبان استحقاقاً للاحتقار، ولا يستحق اسمي أن يلفظه أحد، ولكن السيد دو شاتوبريان ماذا يفعل هل هو محترم ومقتدر؟.

ـ إنه يعيش بعيداً عن البلاد يا أبتي.

Twitter: @alqareah

ـ آه إني أهنئه على ذلك، لا يصل المرء إلى مملكة السماء إلا عبر طريق الأشواك، ولكن يا سيدي إن لم تكن تأنف دخول حجرة متوحد فقير، تعال غداً إلى حجرة الأب مينوز الذي ستجد في استقباله لك متعة كبيرة.

فقلت له بفرح:

ـ ماذا هذا! أنت على الرحب والسعة.

ـ نعم ـ قال لي ـ هو أنني لم أتغير إلا أن وقت الصلاة يقترب فإلى الغد.

الموعد

وصلت إلى الموعد بدقة، واستقبلني الأب مينوز في حجرة ضيقة ومظلمة، جلسنا على مصطبة بالقرب من كوة ذات قضبان، ولم يكن في الحجرة لا كرسي ولا طاولة بل مصلى كالذي تجده في الكنائس الإيطالية، وبالقرب من سريره كانت هناك لوحتان تمثلان رأسي ميتين مطليين بالأبيض، على خلفية سوداء، فقال لي وهو يشير إليهما مبتسماً من دهشتي:

(هذا كل ما تحتويه حجرتي من زينة، تمثل واحدة من هاتين الصورتين الحزينتين المرآة التي أتأمل فيها نفسي كل يوم، ليس ما أنا عليه الآن تماماً، بل ما سأكونه أمام الميت الآخر. أتصدق ما أقول؟ إنها صورة أجمل نساء الأندلس، رسمت بعد أربعين يوماً من حفلة راقصة، فبزّت خلالها جميع صاحباتها).

فارتعشت على الرغم مني، فلحظ هو ذلك وقال:

(إنك ترتعش، آه صدقني، عليك أن تتعود على هذا المشهد، فهو يجعلك تحتقر هذا العالم وتحب الآخر، ولعلي بالغت في الأخذ من وقتك، ولندخل في الموضوع: سأموت عما قريب، وسلفاً لم أعد قادراً على الكتابة، فيدي التي كانت طوع إرادتي خلال ثلاثة وسبعين عاماً تمتنع عليّ اليوم، وأشعر بآلام لا توصف ولربما ستشهد جنازتي قبل مغادرتك لمدينة بيت المقدس).

Twitter: @alqareah

اتكأ وهو يتم هذه الكلمات على الحائط كما لو أعياه الجهد الذي بذله في حديثه معي، وبعد بضعة لحظات من الصمت واصل الحديث قائلاً:

(قل للسيد دو شاتوبريان بأني أموت في بهجة روحي، مدينة بيت المقدس هي مقامي الغالي، ويا لها من عذوبة في أن تغادر الحياة إلى الأماكن ذاتها التي مات فيها من أجلنا مخلص العالم. لن يسمع السيد دو شاتوبريان بالأب دو مينوز بعد الآن، ولكن قل له إن ذكراه قد رافقتني حتى الاحتضار).

أودعني عند ذاك الأب الرسالة الأخيرة التي كان قد استلمها من صديقه الشهير، وقال لي:

(ستكون هذه الرسالة بمثابة الإجابة عليها، وسيعلم السيد دو شاتوبريان عند ذاك شيئين: استلامي لها، ومودتي وموتي في آن معاً).

ومن ثم توسل إلي أن أقبل منه مسبحة صنعها بنفسه من زيتون (الجسماني) والتي يستعملها من عشرين عاماً، وأضاف:

(لم يبق لدي المزيد من الوقت، فقد بالغت في عرضي أمامك مشهد راهب فقير يحتضر، وليكن موتك سعيداً كما هو موتي).

انسحبت وكلي انفعال، وجاء بعض رفاق الأب مينوز ليقدموا له المعونة، إلا أنه لم يكن بحاجة للمواساة.

غادرت بعد يومين من هذا اللقاء، ولم يكن الأب مينوز قد غادر هذه الحياة بعد إلى وطنه الحقيقي. وأبلغتني رسالة استلمتها عند وصولي إلى سميرن بنهاية هذا الراهب الذي شهد انقضاء أربعين عاماً من حياته بين جدران مدينة بيت المقدس، وقد كان يعتقد بأنه جد سعيد لموته هناك.

ذكريات من الشرق 1839

Twitter: @alqareah

ألفونس دو لامارتين

ذكريات من الشرق

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ألفونس دو لامارتين

الرحلة إلى الشرق والغرب المستعمر

ولد الشاعر الرومانطيقي الكبير ألفونس دو لامارتين في العام 1790، وتُوفي في العام 1869. وهو أحد أهم شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر، تنقل كثيراً بين سانت بوانت وإكس نابولي وفلورنس في العام 1830، وهي الفترة التي كتب فيها ديوانه الشهير (التأملات).

كان لامارتين شاعراً مرفهاً، ودبلوماسياً، ومالكاً، وسياسياً تقدم للترشيح في العام 1831 نائباً عن مقاطعة بيرغ الجديدة بعد أن نشر كتابه (السياسة العقلانية)، ثم رشح نفسه نائباً لمدينة كلوني وفشل في الانتخابات، فغادر إلى مارسيليا ليحضّر رحلة إلى الشرق، بعد أن فكر بها طويلاً.

لم يكن لامارتين يبحث عن صور التوراة فحسب، إنما كان يريد أن يواجه المسألة الدينية ميدانياً، وهي مركز تفكيره، بل كان يفكر بتوسيع تجربته حول المجتمعات الإنسانية. وفي الثامن والعشرين من أيار أصيبت ابنته الصغيرة جولي بأزمة تدرن رئوي، وكان الوالدان يأملان بأن مناخ الشرق قد يكون مفيداً لها.

وقرّر لامارتين السفر فأخذ العبيد واستأجر سفينة شراعية، وطاقماً من البحارة يُقدّر بخمسة عشر رجلاً، ومالاً يكفي لحياة المجموعة الكبيرة التي رافقته، فضلاً عن مكتبته الضخمة. وعند

Twitter: @alqareah

وصوله صار ينفق بلا حساب، وقد توافق يوم مغادرته في حزيران 1832 مع نهاية الجمهورية اليونانية، وكذلك مع بداية الحرب التركية المصرية. وبعد توقف قصير في نابولي وفي أثينا وصل لامارتين إلى بيروت في السادس من أيلول، وقام في الفترة التالية بأول جولة له في الجبل، فزار الليدي ستانهوب، والأمير بشير الشهابي الحليف الجديد للباشا إبراهيم، وبيت الدين. وحصل لامارتين في الأول من تشرين الأول على توصية إلى أبي غوشة الذي كان يهيمن على مشارف القدس. وغادر لامارتين بيروت دون زوجته متجهاً إلى فلسطين، ولكن الطاعون الذي كان يحاصر المدينة المقدَّسة أجبره على أن يؤدي زيارة خاطفة (يوم العشرين من تشرين الأول)، ثم عاد إلى بيروت في الخامس من تشرين الثاني، فقضت عائلة لامارتين هناك شتاء مأساوياً بعد وفاة ابنتهما وهي في عامها الحادي عشر يوم السابع من كانون الأول 1832. وفي شهر آذار 1833 سافر لامارتين إلى دمشق عن طريق بعلبك، وقام بنزهة في جبال الأرز في بداية نيسان. وبينما كان لامارتين في يافا للفترة من الثاني والعشرين إلى السادس والعشرين من نيسان، وكانت زوجته في زيارة لمدينة بيت المقدس بعد أن أعيد فتحها، كتب الشاعر (الجسماني أو موت جوليا).

ثم وصل إلى استنبول عن طريق رودس وسميرن، وأمضى فيها المدة من السابع من حزيران وحتى الخامس والعشرين من تموز، وعاد إلى فرنسا عن طريق غرينوبل، وبلغراد وفيينا وسترازبورغ. ووافق لامارتين على نشر رحلته، بعد أن أجبرته ظروفه المادية على ذلك.

وكانت رحلته تتسم بالفروسية الرومانطيقية، وضياء المناظر الطبيعية، وقد وجهت هذه الرحلة إلى بلاد المشرق ما تبقى من حياته، فقد انطوت على نتائج اقتصادية وتاريخية وسياسية خطيرة، وحصل بعدها على مقعد في البرلمان، وصار يؤمن على نحو متزايد برسالته الروحية والاجتماعية. واقترنت مسيحيته هذه المرة

Twitter: @alqareah

بمواقف ملموسة بعد أن آمن بالسان سيمونيين، وأصبح في السنوات الأخيرة من دعاة الهيمنة الفرنسية على سوريا للحد من طموحات الإنجليز.

عاد لامارتين إلى تركيا في شهر حزيران في العام 1850، ليشرع في تنفيذ خطة كولونيالية زراعية. وكان السلطان قد منحه في العام 1849 مساحة كولونيالية ليستثمرها في إقليم سميرن.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الرحلة إلى الشرق

من بيروت إلى عكا

الثامن من اكتوبر 1832 في الساعة الثالثة من بعد الظهر

امتطيت جوادي، كانت القافلة مؤلفة من ثمانية عشر جواداً مع الأمتعة تسير على التوالي، ونمت في الخان الذي يقع على مبعدة ثلاث ساعات من بيروت، بعد أن سلكنا الطريق ذاتها التي كتبتُ عنها عند الذهاب إلى الليدي ستانهوب(*). وغادرت في اليوم التالي عند الساعة الثالثة صباحاً، واجتزت في الساعة الخامسة نهر تامور Tamour وتامريز القديمة Lancien Tamyris المحفوفة بزهور الغار الوردية، وتتبعنا الساحل الرملي الذي كان موجه يغسل بزبده أقدام جيادنا حتى وصلنا إلى صيدا أو صيدون القديمة التي بقيت كظل للمدينة المهدمة، وقد فقدت حتى اسمها، ولم يبقَ أي أثر من عظمة ماضيها.

ثمة رصيف دائري مكون من صخور ضخمة يطوق حوضاً ممتلئاً بالرمل، وهناك عدد من الصيادين مع أطفالهم، كانت سيقانهم مغمورة بالمياه، وهم يدفعون إلى البحر زورقاً بلا سارية أو شراع، هذا كل ما هناك من صورة بحرية عن ملك البحار الثاني. وفي صيدا نزلنا في خان فرنسي وهو قصر منيف من بقايا تجارتنا القديمة في

(*) إيستر لوسي ستانهوب ابنة السياسي الإنجليزي شارل ستانهوب، ولدت في كنت في العام 1776 وتوفيت في صيدا في 1839، غادرت إلى الشرق واستقرت في العام 1814 لدى الدروز الذين بجّلوها كما لو كانت نبية. واستقبلت العديد من الزوار ومن بينهم لامارتين وقد توفيت بائسة في لبنان.

Twitter: @alqareah

سوريا، حيث كان موظفونا يجمعون كل الأوطان تحت جناح فرنسا. لم تعد هناك تجارة أو شخص فرنسي، ولم يبقَ في صيدا وفي الخان الواسع الخالي سوى وكيل محترم وقديم لفرنسا هو السيد جيرودان، كان يعيش هناك منذ خمسين عاماً وسط عائلته الشرقية، ويستقبلنا كما يستقبل المرء مسافراً من بلده، وفي بلد احتفظت الضيافة القديمة فيه على كامل أصولها. وبعد أن تعشيت ونمت بضع ساعات لدى هذه العائلة الرائعة، كانت الضيافة التي شملونا بها رقيقة وغير متوقعة وسخية، فكان الماء الذي نغتسل به يقدم لنا من ابن العائلة، أما الأم وزوجتا الولدين فكنَّ واقفات للعناية بالمائدة. وعند الساعة الرابعة امتطيت جوادي يرافقني أبناء وأصدقاء عائلة جيرودان.

دخل أحدهم مباراة الجري وهو يركب فرساً عربية - وقبل وصولنا صيدا تبادلنا عبارات الشكر والوداع - ثم سرت ساعتين ونمنا تحت خيمتنا عند نبع جميل على حافة البحر يسمى القنطرة، كانت هناك شجرة ضخمة تظلل القافلة كلها، وحديقة غنّاء تهبط حتى أمواج البحر.

انتشرت من حولنا في المعسكر قافلة من الجمال، ليلاً تحت الخيمة، وصهيل الجياد وصياح الجمال، ودخان نار السماء، ووميض المصباح الشفاف عبر القماشة المشطبة للسرادق، ثم وضعت جبيني ليرتاح ثقيلاً محترقاً على السرج المستخدم كوسادة، فهبطت علي أفكار عن الحياة الهادئة، والمنزل والعائلة والأصدقاء البعيدين.

في الصباح، بينما يلجم العبيد الجياد، ويهزون الوتد الذي يستخدم كعامود، سقطت وانزلقت القماشات الواسعة المشدودة التي كانت تغطي عائلة كاملة من المسافرين، وهوت على الأرض وتكورت في كومة صغيرة من القماش، فوضعها الجمّال تحت ذراعيه وعلقها على سرج بغلته، فلم يبقَ في الموضع الفارغ حيث كنا قبل قليل، والذي كان قائماً كمنزل دائم، سوى نار صغيرة مهجورة ماتزال تدخن، ولكنها سرعان ما خمدت. إنها صورة حقيقية مؤثرة، وحية

Twitter: @alqareah

عن الحياة، غالباً ما يذكرها الإنجيل، وقد صعقتني بقوة في كل مرة تجلّت لناظري.

غادرنا القنطرة قبل طلوع النهار. تسلقنا عدداً من الرواسي الوعرة والصخرية التي تبرز شامخة داخل البحر. ومن ثم هذه صور على قمة الرابية الأخيرة الأكثر ارتفاعاً من بين هذه الروابي، وهي تتجلى لي عند أقصى رابيتها الواسعة القاحلة، وبين البحر ومرتفعات لبنان التي تنحدر في تدرج سريع يمتد سهل بطول ثمانية فراسخ تقريباً، وبعرض فرسخين، وهذا السهل العاري مغطى بالشجيرات الشوكية التي تقضمها جمال القوافل عند مرورها. ويرمي هذا السهل بنفسه إلى البحر يشبه جزيرة يفصلها عن اليابسة رصيف مغطى بالرمل الذهبي الذي حملته الرياح من مصر.

وصور ـ كما يسميها العرب اليوم ـ محمولة على الطرف الأكثر حدة لهذا النتوء، وتبدو وكأنها تخرج من الأمواج. ومن بعيد تبدو المدينة جميلة وجديدة وبيضاء وحية، وكأنها تنظر إلى نفسها في البحر، ولكن لم تكن سوى ظل جميل يتلاشى ما إن تقترب منه. وهناك بضعة مئات من المنازل المنهارة وشبه المهجورة، حيث يجمع العرب في المساء قطعاناً كبيرة من الخراف والماعز بآذانها الطويلة المتدلية وهي تسير أمامنا. هذه هي صور اليوم، لم يعد لها مرفأ على البحر، ولا طرق على اليابسة، وقد تحققت فيها النبوءات منذ أمد طويل.

سرنا في صمت منشغلين في تحمل هذا الحزن، ورفات الإمبراطورية التي ندوسها. سلكنا طريقاً واقعة وسط ريف صور بين المدينة والروابي الرمادية العارية التي قذف بها لبنان إلى حافة السهل.

المغادرة

غادرت آبار سليمان في الساعة الخامسة ـ وسرت لمدة

Twitter: @alqareah

ساعتين في سهل صور - ووصلت ليلاً أسفل جبل شاهق يهبط الى البحر عمودياً ويسمى الرأس الأبيض، وعلى الشمال ارتفع القمر فوق قمة لبنان السوداء، لكنه لم يكن بارتفاع يكفي ليضيء سفوح الجبل، وسقط - تاركاً إيانا في الظلمة - على شرائح من الصخور البيض، حيث كان ضياؤه ينفجر مثل لهب من النار على الرخام. لقد كانت هذه الصخور المرمية وسط الأمواج تكنس زبد البحر المتلألئ الذي ينحبس حتى يصل إلينا، وكان الصوت الأصم المنتظم للموج المرتطم على لسان البحر يدوي وحيداً، ويهز عند كل ضربة الإفريز الضيق الذي كنا نسير عليه، ونحن معلقون على حافة الهاوية، ومن بعيد كان البحر يلمع مثل طبقة فضية واسعة، كنا نرى هنا وهناك رأساً جبلياً حالكاً يتقدم إلى وسطه، أو فجوة تتغلغل عميقاً في السفوح المحطمة للجبل. كان سهل صور يمتد خلفنا، وبإمكان المرء أن يميز على نحو مشوش الأهداب الرملية الصفر والمذهبة التي ترسم حدوده الفاصلة بين البحر واليابسة، كنا نرى عتمة صور عند الطرف القصي لأحد النتوءات، والمصادفة وحدها التي أضاءت بلا ريب النور على أطلالها، هذا النور الذي يخاله المرء من بعيد فناراً، ولكنه كان فناراً يدل على وحدتها وهجرتها، وهو فنار لا يرشد أي مركب، ولا يضيء إلا عيوننا، ويدعونا لإلقاء نظرة رثاء على أطلالها.

إن هذا الطرف فوق الهاوية مع كل الحوادث المتنوعة والرائعة والمهيبة لليل، والقمر والبحر، والهاويات، دام حوالى الساعة، ولكنها ساعة من أكثر الساعات رسوخاً في ذاكرتي، فيا لها من أشياء تلك التي سمح لي الرب برؤيتها على أرضه، إنها بوابة سامية أدخل منها في اليوم التالي إلى أرض المعجزات، على أرض الشهادة التي ما زالت مطبوعة بالقديم وبالجديد من الصلات بين الرب والإنسان.

وقعنا عند نزولنا في هذا الرأس على المشهد ذاته الذي أدهشنا عند صعودنا. فها هي هاويات بالقدر ذاته من العمق،

Twitter: @alqareah

والصوت، وبياض الزبد، والمرقشة بكرات صخرية، كبيرة، بيضاء، وحية، وتنفتح تحت أقدامنا وأنظارنا، ويتكسر البحر عليها بالدوي ذاته الذي رافقنا على امتداد الساحل الصاخب لسوريا كما تسميها القبائل البحرية القديمة، وكان القمر الذي زاد من تقدمه في السماء يضيء على نحو أفضل هذا المشهد الصاخب والمتوحد في آن معاً، وينفتح أمامنا سهل عكا الواسع.

كان الوقت هو التاسعة مساءً وكنا في شهر تشرين الأول، وكانت جيادنا المرهقة بعد مسير ثلاث عشرة ساعة، تضع ببطء أقدامها المحفورة بالحدوات على الصخور الحادة واللامعة التي تشكل وحدها الطريق إلى سوريا، وهي عبارة عن تدرجات غير منتظمة من الحجر، لا يمكن لأحد من أوروبا التجرؤ على السير عليها بأية دابة مهما كانت، أما نحن، فكنا مثقلين بالفتور، ومندهشين من عظمة المشهد والذكريات المتسارعة للنهار.

كنا نسير بصمت على الأقدام، ممسكين بجيادنا من اللجام، نلقي تارة نظرة على هذا البحر الذي سيكون علينا اجتيازه لرؤية أنهارنا وجبالنا، وتارة على القمة السوداء الطويلة والخالية، فوق تعرجات جبل الكرمل الذي بدأ يرتسم عند الحدود الأخيرة للأفق.

الخان

وصلنا إلى الخان Kan أي إلى كوخ شبه مهدم، حيث يزرع العربي الفقير بعضاً من أشجار التين والقرع بين شقوق الصخور بالقرب من النبع. كان الكوخ مشغولاً من قبل بعض أصحاب الجمال من نابلس الذين يحملون القمح من سوريا الى جيش إبراهيم باشا، ولقد أنضبت حرارة الخريف هذا النبع.

نصبنا مع ذلك خيمتنا على أرض مغطاة بالأحجار المكورة والمدحرجة، ربطنا جيادنا بالأوتاد وشربنا الماء باقتصاد، إذ لم يبقَ في جرارنا التي ملأناها من بئر سليمان سوى القليل من

Twitter: @alqareah

القطرات، وبدأ الماء ينضب منذ أن تركنا سهل صور، وأخذت الجبال تهبط، وباتت الينابيع بعيدة عن بعضها البعض مسافة خمس الى ست ساعات، وفي الغالب لا تجد عند وصولك في قاع النبع سوى حوض جاف ومحترق وقد احتفظ بآثار أقدام الجمال والماعز التي كانت آخر من ارتوى منه.

في اليوم الحادي عشر رفعنا خيامنا على وميض ألف نجمة كانت تتلألأ في الأمواج الممتدة عند أقدامنا، واستغرق نزولنا إلى آخر الروابي التي تؤلف الرأس الأبيض ساعة دخولنا سهل (عكا Acre) وهي (بتلماس Ptolemais) قديماً.

في الجليل

وفي اليوم الثاني عشر استأنفنا مسيرنا مع أول ضياء للنهار، واجتزنا أولاً رابية مزروعة بأشجار الزيتون وبعض أشجار البلوط الأخضر المنتشرة في مجموعات أو أدغال تقضمها أسنان الماعز والجمال. وبينما كنا على سفح هذه الرابية تجلت أمامنا الأرض المقدسة، أرض كنعان Chanaan بأكملها، وكان انفعالنا عظيماً ممتعاً وعميقاً، لم تكن تلك الأرض العارية الصخرية الجدباء ولا تلك المجموعة من الجبال المنخفضة الجرداء التي قدموها لنا بوصفها الأرض الموعودة استناداً إلى قول بعض الكتاب المنحازين أو بعض الرحالة المتعجلين للوصول أو الكتابة، والذين لم يروا من البقاع الواسعة والمتنوعة لاثنتي عشرة قبيلة سوى ممر الصخور الواقع بين شمسين، والذي يقود من يافا Jaffa إلى مدينة بيت المقدس، ولأني كنت مخدوعاً بهم فإني لم أتوقع رؤية شيء سوى ما وصفوه في رحلاتهم.

أي بلد بلا امتداد أو أفق، بلا وديان أو سهول، بلا أشجار ولا ماء، أي أرض تطغى عليها الكثبان الرمادية أو البيض، حيث يختبئ العربي اللص في عتمة المسالك لسلب المارة ـ وكان هذا ربما حال الطريق من مدينة بيت المقدس إلى يافا ـ ولكن هذه هي يهوذا كما

Twitter: @alqareah

رأيناها في اليوم الاول من أعلى الروابي التي تحف بسهل عكا، وكما وجدناها من الجانب الآخر لروابي زابولون Zabulon أو الناصرة Nazareth، ومن أسفل جبل وردة حرمون أو جبل الشيخ la Rosee de LHermon أو من جبل الكرمل mont Carmel، وكما طفنا بها، بامتدادها وتنوعها، بدءاً من المرتفعات التي تشرف على صور وصيدا حتى بحيرة طبرية، ومن جبل طابور Thabor حتى جبال السامرة Samarie ونابلس، ومن هنا حتى جدران صهيون.

هذا أولاً سهل زابولون أمامنا، ونحن نقع الآن بين تموجين طفيفين للأرض، ولا يستحقان أن نسميهما رابية، أما القاع الذي يتوسطهما والمنحصر أمامنا فيشكل الممر الذي نمشي عليه، وقد خطته أقدام الجمال وهي تسحق غباره منذ أربعة آلاف عام، وأشارت إليه الحفر العريضة والعميقة التي داسها ثقل أقدامهم الموضوعة على المواقع ذاتها فوق الصخور البيض الهشة، وهي الصخور ذاتها التي نجدها من رأس جبل صور حتى الصحراء الليبية. وعلى اليمين واليسار نرى السفوح المكورة للرابيتين وقد ظللتها من هنا وهناك مجاميع بمسافة عشرين قدماً من الشجيرات المتنوعة التي لا تفقد أوراقها أبداً، وعلى مسافة أبعد تنتصب أشجار بجذور معقودة وتفرعات عصية متشابكة وأوراق ساكنة معتمة، كان معظمها من أشجار البلوط الأخضر من فصيلة خاصة، يكون ساقها أكثر خفة ورشاقة من سيقان البلوط في أوروبا، أما أوراقها فهي مخملية ومدورة ولا تمتلك تخريم أوراق البلوط المعتادة، وتكمل أشجار الخروب والبطم وعدد أقل من الدلب والجميز الكساء الذي يغطي هذه الروابي.

ولا أعرف الأشجار الأخرى بأسمائها، فلبعضها أوراق شجرة التنوب أو الأرز، وتشبه الأخريات (وهي أكثر جمالاً) أشجار الصفصاف بلون قشرته وخفة أوراقه ولونها الرقيق المصفر. بيد أنها تتفوق على الصفصاف إلى حد كبير بالامتداد والسمك والارتفاع، إذ بمقدور القوافل الكثيرة العدد أن تتجمع حول جذوعها

Twitter: @alqareah

الضخمة وأن تعسكر معاً بامتعتها وجمالها وتحت ظلالها، وفي الفضاءات الواسعة العديدة التي تتركها هذه الأشجار المتنوعة عارية على سفوح الروابي، وتخترق الأرض طبقات صخرية بيض، وفي الأغلب رمادية تميل إلى الزرقة، وتبرز أمام السماء مثل عضلات متينة لهيكل بشري قوي، وتتمفصل بارزة في الشيخوخة وكأنها متأهبة لاختراق الجلد الذي يغطيها.

وعلى الرغم من هذا فهناك بين هذه الطبقات أو الكتل الصخرية أرض سوداء هشة وعميقة، كانت ستثمر بلا انقطاع وتنتج على الدوام الحنطة والشعير والذرة، لو قام أحدهم على تقليبها، أو غابات من الأدغال الشوكية والرمان البري وورود جرش Jricho، والأشواك الضخمة التي تصل سيقانها حتى رأس الجمل.

إن وصف إحدى هذه الروابي يمكن أن يمنحك فكرة عن كل الأخريات، ويمكن للمخيلة أن تتصور ما لهذه الروابي من تأثير حالما تراها وقد ورد ذكرها في مشهد الأرض المقدسة.

العبور

عبرنا من سهل زابولون بعد أن تسلقنا تلالاً صغيرة أكثر وعورة من الأولى إلى قرية سيفورا Sephora. كان هناك عدد كبير من الكتل الصخرية التي حفرت لتكون مقابر وقد خطت لنا الطريق حتى القمة التي جلست عليها سيفورا. وعند وصولنا إلى المرتفع الأخير رأينا عاموداً منعزلاً من الغرانيت مايزال منتصباً، ويؤشر إلى موضع لمعبد وثمة تيجان لأعمدة منحوتة ممددة على الأرض أسفل العامود، وهناك بقايا ضخمة لأحجار مقطعة مأخوذة من بعض الصخور الرومانية العظيمة، كانت مبعثرة في كل مكان، تستخدم كحدود للحقول العربية، تمتد حتى مسافة ميل تقريباً من سيفورا حيث توقفنا للاستراحة عند منتصف النهار، ثمة ينبوع من الماء الرائق الذي لا ينضب يجري في هذا المكان يروي سكان اثنين أو ثلاثة من الوديان، وهو محاط ببضعة بساتين التين والرمان التي

Twitter: @alqareah

جلسنا تحت ظلها، وانتظرنا أكثر من ساعة قبل أن نتمكن من إرواء قافلتنا لكثرة عدد قطعان البقر والجمال التي كان يصطحبها الرعاة العرب القادمون من كل جانب في الوادي. وكانت هناك أنواع عديدة من الماعز الأسود والبقر تجوب السهل وسفوح الروابي الصاعدة نحو الناصرة.

لقد نمت ملتحفاً بمعطفي في ظل إحدى أشجار التين على مسافة قصيرة من الينبوع، وتأملت طويلاً في هذا المشهد الذي يعبر عن الأيام الماضية. كانت جيادنا مبعثرة حولنا وأرجلها مربوطة، وسروجها التركية على ظهورها، وكان شعر عنقها يتدلى وهي تطأطئ رأسها باحثة عن الظل.

كانت أسلحتنا من السيوف والبنادق والمسدسات معلقة فوق رؤوسنا على أغصان أشجار الرمان والتين، وهناك عرب بدو يلفون أجسادهم بقطعة واحدة من القماش مخططة بالأسود والأبيض المصنوعة من وبر الماعز، يجلسون حلقة غير بعيدين عنا، ويتطلعون إلينا بعيون الكواسر.

كانت النساء ترتدي ملابس تشبه ملابس نساء ابراهيم وإسحاق، رداء أزرق معقود عند الوسط، وتنسدل بخفة عليه الطيات المقببة لرداء أبيض آخر، ويحملن على رؤوسهن جراراً فارغة يحملنها مليئة ومستقيمة على رؤوسهن، ويمسكنها باليدين كما هي تماثيل الكرياتيد في الأكروبوس، وهناك فتيات أخريات يرتدين الملابس ذاتها ويغسلن عند النبع، ويضحكن مع بعضهن وهن ينظرن إلينا، ومن ثم هناك من كن يرتدين أثواباً أكثر ثراء، ويضعن على رؤوسهن شرائط من القروش أو الليرات الذهبية، ويرقصن تحت شجرة رمان كبيرة على مسافة قريبة منا ومن الينبوع. وكان رقصهن المتراخي البطيء يدور في حلقة رتيبة، تصاحبها من آن لآخر بضع خطوات تفتقر إلى الفن، ولكنها لم تكن تخلو من الرشاقة، خلقت المرأة رشيقة وليس بمقدور العادات والتقاليد أن تغير من جاذبية الجمال الذي تملكه، ومن الحب الذي يكتنفها والذي تفصح عنه جميع أجزاء جسدها، لم تكن النسوة محجبات مثل جميع اللواتي

Twitter: @alqareah

رأيناهن حتى الآن في الشرق، وكانت تقاسيم وجوههن، على الرغم مما فيها من وشم طفيف، تملك من الدقة والاتساق ما يجعلهن يتميزن عن العرق التركي.

استمرالرقص والغناء طوال الوقت الذي أمضيناه هناك للاستراحة، ولم يظهر عليهن الانزعاج لما أبديناه من اهتمام برقصهن وغنائهن ولباسهن. وقيل لنا بأنهن كن مجتمعات هناك بانتظار هدايا العرس التي ذهب أحد الشبان العرب لجلبها من الناصرة لخطيبته التي كانت واحدة من هذه الفتيات. وقد صادفنا في ذاك اليوم بالفعل هذه الهدايا ونحن في الطريق، كانت تشتمل على منخل لفصل الطحين عن النخالة، وعلى قطعة من قماش الكتان، وقماش من نسيج أغلى ثمناً لعمل ثوب للخطيبة.

في ذلك اليوم، بدأت تتكون في داخلي انطباعات جديدة ومختلفة تماماً.

المسيحية

إن أراد المسيحي أن يتأمل سر المسيحية فليكن له مكان هناك تحت هذا الجزء من السماء الزرقاء، وفي أعماق هذا الوادي الضيق المظلم، وفي ظل هذه الرابية التي تبدو وكأن صخورها العتيقة ماتزال متصدعة من اختلاجات الفرح التي شعرت بها وهي تلد، وهي تصنع الكلمة الطفل، أو اختلاجات الألم التي أحسّت بها وهي تدفن الكلمة الموت. فهذا المكان هو النقطة الحتمية والمقدسة لكوكبنا التي اصطفاها الله منذ الأزل لينزل على الأرض حقيقته وعدالته وحبه المتجسد بالطفل ـ الرب. في هذا المكان هبطت الروح السماوية في موعدها على الكوخ الفقير، مقام العمل المتواضع، وبساطة الروح والحظ العاثر، وفي هذا المكان أحيا الرب في صدر عذراء بريئته ونقيته شيئاً عذباً وناعماً ورحيماً على صورتها، وشيئاً معذباً صبوراً ومتألماً على صورة الإنسان، وشيئاً مقتدراً وخارقاً وحكيماً وقوياً عن صورة الرب، في هذا المكان مر الرب ـ

Twitter: @alqareah

الإنسان من أمام جهلنا وضعفنا وعملنا وشقائنا خلال السنوات الحالكة من حياته الخفية، ومارس فيها الحياة وخبر الأرض قبل أن يعلمها بكلامه ويشفيها بمعجزاته ويكاثرها بموته، في هذا المكان انفتحت السماء، وقذفت على الأرض بروحها المتجسدة وكلامها المتفجر لتحرق حتى نهاية الكون الجور والخطأ، وتختبر على نار البوتقة فضائلنا وخطايانا، وتضيء أمام الله الواحد المقدس بخوراً لا ينطفئ أبداً، بخور المذبح المتجدد، عطر الإحسان والحقيقة الكونية.

وبينما كانت هذه الأفكار تساورني، وأنا مطأطأ الرأس والجبين، مثقلاً بألف من الأفكار الأخرى الأكثر وطأة، لمحت عند قدمي وفي أعماق وادٍ محفور بشكل حوض أو بحيرة من التراب بيوت الناصرة المجتمعة بأناقة على طرفي هذا الحوض وفي أعماقه.

وصف المدينة

تبرز أولاً الكنيسة الإغريقية والمنارة العالية للمساجد التركية، والجدران العالية العريضة لدير الآباء اللاتين، وبعض الشوارع التي خطتها منازل أقل اتساعاً باشكالها الأنيقة الشرقية، فتنتشر حول هذه الصروح الأكثر اتساعاً، وتعج بضجة الحياة وحركتها.

كانت تنتشر هنا وهناك عدد من الغابات العالية الصغيرة لأشجار الصبار الشائكة والتين المتجردة من أوراق الخريف، ومن أشجار الرمان بأوراقها الخفيفة ذات اللون الأخضر الناعم والأصفر، لتمنح المنظر الأناقة والطراوة كما تفعل أزهار الحقول حول معبد القرية. وحده الله يعلم ما حصل في داخلي آنذاك، إذ وجدت نفسي بحركة عفوية وغير إرادية، إذ جاز القول، أجلس عند قدمي حصاني، على ركبتي فوق التراب، فوق واحدة من تلك الصخور الزرق، وبقيت هناك عدة لحظات من التأمل الصامت، حيث تسارعت إلى رأسي كل خواطر حياة الإنسان المسيحي المتشكك، حتى

Twitter: @alqareah

استحال علي أن أميز واحدة منها، وتلفظت بكلمات متعددة. نطقت بها وأنا أشعر بالسمو والعمق والامتنان الذي تنطوي عليه، وكان المكان يوحي لي بها على نحو طبيعي للغاية، حتى أنني عند وصولي في المساء إلى حرم الكنيسة اللاتينية فوجئت بوجودها منحوتة بحروف من الذهب على مائدة المرمر التي كانت في المعبد الأرضي، حيث مقام مريم ويعقوب، ومن ثم وبعد أن أخفضت رأسي بخشوع نحو الأرض التي خلقت المسيح قبلتها بصمت، وبللت ببعض من دموع الندم والحب والأمل هذه الأرض التي طالما عملت على نشرها ولطالما عملت على محوها، وأنا التمس منها قليلاً من الحقيقة والحب.

وصلنا إلى دير الآباء اللاتين في الناصرة، بينما كان آخر وميض لليل مايزال يذهّب قليلاً الجدران العالية الصفر للكنيسة والدير. انفتحت أمامنا باب عريضة من الحديد، فولجتها جيادنا منزلقة، جاعلة البلاطات اللامعة المصوتة للفسحة التي تتقدم فناء الدير تهتز تحت حدوات أقدامها الحديدية، فانغلقت البوابة من خلفنا، ونزلنا عن الخيل أمام باب الكنيسة بعينها التي كانت في الماضي منزلاً متواضعاً لهذه الأم التي فتحت ثدييها إلى الضيف الأبدي، وأعطت حليبها إلى الرب.

كان رئيس الرهبان والأب الحارس غائبين، فقام اثنان من الأخوة النابوليين والإسبان منشغلين بذري قمح الدير تحت الباب باستقبالنا بجفاء.

في تلك الأثناء امتطينا الجياد لنحاذي الضفاف المقدسة لبحيرة طبرية Genesareth الجميلة حتى نهايتها، ابتعدت القافلة بصمت عن القرية التي نمنا فيها، وسارت على الساحل الغربي من البحيرة، على مبعدة خطوات من أمواجها على شاطئ من الرمل والحصى حيث تنمو هنا وهناك بعض أكمات الغار الوردي والشجيرات ذات الأوراق الخفيفة والمسننة والتي تحمل وروداً تشبه الزنابق، وعن شمالنا ثمة سلسلة من الروابي الحادة السوداء والجرداء والمحفورة بالوهاد العميقة المبقعة التي تقع على مسافات متباعدة من الأحجار

Twitter: @alqareah

الضخمة المبعثرة والبركانية، ويمتد على طول الشاطئ الذي كان علينا أن نسلكه ونتقدم فيه، نتوء حالك أجرد وسط البحر تقريباً، يحجب عنا مدينة طبرية وأعماق البحيرة من جهة لبنان.

لم يكن أحد منا يرفع صوته، كل الأفكار كانت حميمية، متسارعة، وعميقة، طالما أن الذكريات المقدسة كانت تتحدث عالياً في روح كل واحد منا. أما بالنسبة لي فلم يستحوذ مكان في الأرض على قلبي بتلك القوة والعذرية قبل هذا المكان.

لطالما أحببت الطواف حول المشاهد الطبيعية التي سكنها الرجال الذين عرفتهم، وأعجبت بهم، وأحببتهم، وقدرتهم من بين الأحياء أو الأموات، ولطالما بدا لي الوطن الذي سكنه رجل عظيم وفضله على كل ما رآه على الأرض خير رفات ناطقة وأكيدة على شخصه، كما أنها مظهر مادي لعبقريته، وتجلٍّ آخر لجزء من روحه، وشرح حي وحساس لحياته وأعماله وأفكاره. وعندما كنت أقضي ساعات في التوحد والتأمل، مضطجعاً تحت أشجار الزيتون التي تظلل حدائق هوراس Horace، كنت أنظر إلى شلالات تيبور Tibur الفاتنة، وفي الغالب كنت أغفو على ضجة بحر نابلس Naboles الجميل تحت أغصان الكروم المتدلية بالقرب من المكان، حيث أراد فيرجيل أن يضع رماد رفاته، لأنه كان من أجمل وأعذب مكان وقعت عليه عيناه. كم مرة كنت أمضيت فيما بعد هناك صباحات ومساءات جالساً أسفل أشجار الكستناء في وادي شارميت Charmettes الصغير، حيث كانت نكرى جان جاك روسو تجذبني وتشدني برقة انطباعاته وأحلامه وشقائه وعبقريته! مثلما شدتني نكرى كتاب آخرين أو رجال عظام، كان لأسمائهم ولكتاباتهم وقع قوي على نفسي، كنت أريد أن أدرسهم وأتعرف عليهم في الأماكن التي أنجبتهم وألهمتهم، وغالباً ما تكتشف نظرة نكية عن وجود تشابه خفي وعميق بين الوطن والرجل العظيم، بين المشهد والمؤلف، بين

Twitter: @alqareah

الطبيعة والعبقرية، العبقرية التي تكونت منِ كشف هذه الطبيعة، بيد أن الذي أزور مقامه المفضل في هذه الدنيا ليس مجرد رجل عظيم، أو شاعر عظيم، إنه رجل الرجال.

الرجل السماوي

إنه امتزاج الطبيعة والعبقرية والفضيلة مجتمعة في ألوهية متجسدة، وقد جئت لعبادة آثارها على الضفاف، حيث انطبعت جلها على الأمواج التي حملته، وعلى الروابي التي كان يجلس عليها، وعلى الأحجار التي كان يريح عليها جبينه. لقد رأى بعينيه الزائلتين هذا البحر، وهذه الأمواج، وهذه الروابي، وهذه الأحجار، أو لنقل إن هذا البحر، وهذه الروابي وهذه الأحجار قد رأته، لقد داس مائة مرة هذا الطريق حيث كنت أسير بوجل، وحركت قدماه هذا التراب الذي يتطاير تحت قدمي. وفي غضون السنوات الثلاث الأولى من رسالته المقدسة كان يروح ويغدو بلا توقف من الناصرة إلى طبرية، ومن مدينة بيت المقدس إلى طبرية، وكان يتنزه في مراكب الصيادين في بحر الجليل، ويهدئ العواصف، ويصعد الأمواج ماداً يده الى داعيته الضعيف الإيمان مثلي، هذه اليد السماوية التي أشعر بالحاجة إليها أكثر منه في خضم عواصف الأفكار والخواطر المرعبة. كان المشهد الأعظم والأكثر غموضاً في الإنجيل قد حدث كله تقريباً على هذه البحيرة وعلى ساحلها، وعلى الجبال التي تحيط بهذه البحيرة وقراها.

هذا أموس وقد قام باختيار تابعيه من بين أواخر البشر، ليشهد على أن قوة عقيدته تكمن في عقيدته بعينها، وليس من أعضائه العاجزة، هذه طبرية حيث تجلت إلى القديس بطرس Saint Pierre فأسس في ثلاث كلمات التراتبية الأبدية لكنيسته، أو هذه هي كفر ناحوم Capharnaum وهذا هو الجبل حيث ألقى موعظة الجبل الجميلة، وضاعف من الخبز والسمك مثلما وضعت كلماته الروح في الحياة ونشرها، وهذا هو خليج الصيد

Twitter: @alqareah

المعجزة. وأخيراً هذا هو الإنجيل بحكمه المؤثرة، وصوره الرقيقة والعذبة التي تتجلى لنا مثلما كانت تتجلى إلى المعلم السماوي عندما أشار بإصبعه إلى الحمل والحظيرة والراعي الطيب وزنبق الوادي. وهذا هو أخيراً البلد الذي فضله المسيح على هذه الأرض، هذا البلد الذي اختاره ليجعل منه المشهد التمهيدي لمأساته المعجزة، هذه المأساة التي بدت له من خلالها الطبيعة التي يملك مفاتيحها بكل جاذبيتها. وهذه الجبال حيث كان ينظر منها كما نفعل نحن في شروق وغروب الشمس التي حددت سريعاً أيامه الزائلة، في هذا المكان كان يأتي ليستريح ويتأمل ويصلي ويحب رجال الله.

من الناصرة الى حيفا

في 20 تشرين الأول 1832

عند خروجنا من الناصرة، سرنا بمحاذاة جبل مكسو بأشجار التين والصبار، وعلى شمالنا انفتح وادٍ أخضر مظلل، وثمة منزل ريفي جميل يذكرنا بمنازلنا في أوروبا، كان جاثماً على أحد سفوح هذا الوادي، وكان يعود لأحد التجار العرب من عكا Saint Jean dAcre.

لم يكن الأوروبيون في مشارق الناصرة يخشون التعرض لأي خطر، لأن السكان هناك كانوا من المسيحيين الذين هم في خدمتهم، وبلغنا بعد مسيرة ساعتين سلسلة من الوديان الصغيرة التي تمتد بأناقة بين الكثبان المغطاة بغابات البلوط الخضراء الجميلة. وتفصل هذه الغابات سهل حيفا عن الناصرة، والصحراء عن جبل التابور Thabor، وأخذ جبل الكرمل الذي كان عبارة عن سلسلة من الجبال الشاهقة التي تنطلق من مجرى نهر الأردن وتأتي لتسقط عامودياً في البحر بالارتسام عن شمالنا. كان خطه الأخضر الحالك يبرز على خلفيته السماء ذات الزرقة الغامقة والمموجة بالأبخرة الحارة، كالتي تخرج من فوهة الفرن. كانت سفوحه الوعرة مرصعة بنباتات قوية جدباء، فترى في كل مكان طبقة مزدحمة بالشجيرات،

Twitter: @alqareah

تغطيها هنا وهناك الرؤوس المتوحشة لأشجار البلوط، وتخترق هذه الخضرة صخور رمادية نحتتها الطبيعة بأشكال غريبة وضخمة، وتنعكس أشعة الشمس الساقطة عليها. هذا هو المنظر الذي كنا نراه على امتداد البصر، عن شمالنا أو عند أقدامنا، وكانت الوديان التي نسلكها تهبط في منحدرات خفيفة، وتبدأ بالانفتاح على سهل حيفا Kaipha الجميل. وتسلقنا التلال الأخيرة التي كانت تفصلنا عن هذا السهل الذي ما إن يغيب عن نظرنا حتى يعود في الحال، وهذه التلال الواقعة بين فلسطين وسوريا البحرية، كانت واحدة من أكثر المواقع التي شاهدناها رقة ونهاية في آن معاً.

وكانت غابات البلوط المنتشرة هنا وهناك بنباتاتها البرية تشكل فرجاً ممتدة، مغطاة بالمرج المخملي مثل المروج في الغرب، وترتفع خلف قمة جبل التابور مثل معبد فخم متوج بالأكاليل الخضر في سماء من النار، وعلى مبعدة منه ترتعش القمة الزرقاء لجبال جيلبوه Gelboe وروابي السامرة في موج الأفق. ويسدل الكرمل ستارته الحالكة ذات الطيات الواسعة على أحد جوانب المشهد، فيصل النظر الذي يتجه إلى البحر الذي ينهب كل الأشياء، كما السماء في المناظر الجميلة.

كم من موضع اخترت من هنا وهناك في مخيلتي لأشيد عليه منزلاً، أو قلعة زراعية، وأسست عليه مستعمرة مع بعض الأصدقاء من أوروبا وبضعة مئات من هؤلاء الشبان المحرومين من كل مستقبل والتي تمتلئ بهم أرضنا!

إن جمال الأماكن، وجمال السماء، والخصوبة السخية للتربة، وتنوع محاصيل المناطق المعتدلة التي بالإمكان زراعتها على هذه الأرض، وسهولة الحصول على الأيدي العاملة الرخيصة هناك، والقرب من سهلين شاسعين وخصيبين ومرويين وغير مزروعين، والقرب من البحر الذي يسهل تصدير المنتجات، والأمان الذي بالإمكان الحصول عليه بيسر إزاء عرب نهر الأردن، وذلك بتشييد حصون قليلة عند منافذ هذه الروابي، كل هذه الأمور جعلتني أختار

Twitter: @alqareah

هذا الجزء من سوريا لأقوم بالمشروع الزراعي والحضاري الذي أوقفته منذ زمن.

التاريخ نفسه مساء

فوجئنا بعاصفة في منتصف النهار، لم أرَ مثل عنفها إلا قليلاً، فقد ارتفعت الغيوم عامودياً مثل أبراج فوق جبل الكرمل، وغطت سريعاً ذروة هذه السلسلة الجبلية بطولها، وما لبث الجبل الذي كان هادئاً ومتألقاً قبل قليل أن غرق شيئاً فشيئاً في أمواج متواترة من العتمات التي شقتها من هنا وهناك ذيول النار. وفي لحظات قليلة انخفض كل الأفق وضاق علينا، ولم يكن للرعد من بريق، بل كان هزيمه واحداً مهيباً متصلاً ومصمماً مثل صخب الأمواج عند ساحل البحر خلال عاصفة قوية. كان البرق ينهمر حقيقة مثل سيول من النار من السماء على السفوح السود لجبل الكرمل، وكانت أشجار البلوط في الجبل والروابي تنحني مثل القصب، وكادت الريح التي تخرج من شعب الجبال والمغاور أن تطيح بنا لو لم نكن قد ترجلنا عن جيادنا، ووجدنا ملاذاً صغيراً لنا خلف جدران إحدى الصخور في القاع الجاف لأحد السيول. كانت الأوراق الجافة التي انتزعتها العاصفة تدور فوق رؤوسنا مثل الغيوم، وتمطر أغصان الأشجار من حولنا.

تذكرت التوراة ومعجزات إيليا Elie، هذا النبي الذي هلك فوق جبله، في مغارته التي لم تكن بعيدة من هناك.

لم تدم العاصفة سوى نصف ساعة، وشربنا من مياه مطرها الذي جمعناه في أغطية جيادنا المصنوعة من اللباد، استرحنا دقائق قليلة عند منتصف الطريق بين الناصرة وحيفا، واستأنفنا طريقنا بمحاذاة جبل الكرمل، إذ كان الجبل على يسارنا، وهناك سهل واسع ونهر على يميننا، وكان جبل الكرمل الذي كنا نسير عليه لمدة أربع ساعات يحمل عند كل جوانبه الوجهة الصارمة والمهيبة ذاتها. فهو كالحائط العملاق، يسقط عامودياً تقريباً ويكتسي كل مكان فيه

Twitter: @alqareah

بطبقة من الشجيرات والأعشاب العطرة. ولا تجد عليه صخرة واحدة عارية، وهناك بعض الحطام الصخري المنفصل عن الجبل، لقد انزلقت حتى السهل ناضحة كقلاع، وهيبتها الطبيعية تستخدم قاعدة وملاذاً لقرى المزارعين العرب. ولم نرَ في طريقنا سوى واحدة من هذه القرى، وذلك قبل ساعتين تقريباً من رؤيتنا لمدينة حيفا، كانت منازلها منخفضة بلا نوافذ، ومغطاة بردم الصخور لحمايتها من المطر، وفوق المنازل شيد العرب من أوراق تدعمها جذوع الأشجار طابقاً ثانياً من الخضرة يسكنونه خلال الصيف. كانت هذه السطوح مزدحمة بالرجال والنساء الذين كانوا ينظرون إلينا ونحن نمر، ويلقون علينا الشتائم. كانت هيئة هؤلاء السكان ضارية، لم يجرؤ مع ذلك أحد منهم على النزول من التل ليشتمنا عن قرب!

وفي الساعة السابعة اقتربنا من حيفا التي كانت قببها ومناراتها وحيطانها البيض تحمل، ككل المدن في الشرق، هيئة براقة ومرحة، وأنت تراها من مسافة معينة.

عائلة شرقية

ثمة فناء صغير وسلم خشبي يؤديان الى سطح مغطى بجريد النخيل، وخلف هذا السطح هناك غرفتان عاريتان تحف بهما أريكة وهي قطعة الأثاث التي لا يستغني عنها لا الغني ولا الفقير في الشرق، وثمة عدد من أصص الزهور على السطح، وقفص عامر بالحمام الرمادي الجميل الذي يقتات على ما تقدمه له شقيقتا السيد (مالاغامبا) Malagamba وتحيط الرفوف بالجدران، وقد رصفت عليها بانتظام الأكواب والغلايين، وأقداح الشراب ومجمرات العطور المصنوعة من الفضة، وصلبان من الخشب المرصع بالصدف المصنوع في بيت لحم؟ هذا كل ما هناك من أثاث في هذا المنزل الفقير، حيث تعيش عائلة متروكة، وتمثل ـ مقابل معاش قدره ألف قرش (أي ما يعادل ثلاثمائة فرنك تقريباً) ـ إحدى مقدرات أوروبانا.

Twitter: @alqareah

استقبلتنا مدام مالاغامبا ـ الأم طبقاً للعادات المألوفة في البلد، وقدمت لنا العطور وماء الأريج. وما إن جلسنا على الأريكة ونحن نمسح العرق من جباهنا حتى خرجت ابنتاها، كانتا حضورين سماويين من الغرفة المجاورة، وقدمتا لنا ماء ورد البرتقال والمربيات على أطباق من خزف الصين. كانت سطوة جمالهن من القوة على أرواحنا حتى كنا سنبقى رغم العطش وإعياء مسيرة اثنتي عشرة ساعة في تأمل صامت قبالة جمالهن الفاتن، دون أن نرفع الكأس إلى شفاهنا، لكن الأم استعجلت وشرحت ما قدمته هاتان الفتاتان لنا.

كان الشرق برمّته هناك مثلما حلمته في أعوام شبابي عندما كانت مخيلتي عامرة بالصور المسحورة بروعة الشرق وشعرائه. لم تكن إحدى الفتاتين سوى طفلة، إذ لم تكن سوى مرافقة لطيفة لأختها، كذلك الصور التي تعكس كل واحدة منها الأخرى.

وبعد أن قُدمت لنا كل الرعاية والضيافة الأكثر بساطة والأكثر شاعرية، أتت هاتان الفتاتان عند ذاك واتخذتا مكاناً لهما بالقرب من أمهما على الأريكة المقابلة لنا. هذه هي اللوحة التي أريد التعبير عنها بالكلمات لأحتفظ بها في هذه المذكرات كما أراها في رأسي، فإننا نملك ما يجعلنا قادرين على الشعور بالجمال في كل درجاته ورهافته وغموضه، ولكننا لا نملك سوى كلمة مبهمة ومجردة لوصف الجمال. وهنا يكمن انتصار الرسم، فهو ينقل بضربة رشيقة، ويصون قروناً عديدة، هذا الانطباع الأخّاذ الذي يحمله وجه المرأة، والذي لا يستطيع الشاعر أن يقول عنها سوى إنها جميلة، وعلينا أن نصدق كلامه، ولكن كلامه لا يرسم أبداً.

كانت الفتاة الشابة تجلس على البساط وساقاها مطويتان تحتها، وهي تتكئ بكوعها على ركبتي أمها، ووجهها يميل الى الوراء قليلاً، فكانت تارة ترفع عينيها الزرقاوين لتعبّر لأمها عن دهشتها الساذجة من هيئتنا وكلامنا، وتارة أخرى تعيد نظرها إلينا بفضول ظريف ومن ثم تخفضهما تلقائياً، وتخفيهما تحت حرير

Twitter: @alqareah

رموشها السود، بينما يصطبغ خداها بحمرة جديدة، أو تلامس شفتيها ابتسامة خفيفة صعب عليها حبسها.

لقد بدا لباسنا الغريب جديداً عليها، وأحدثت غرابة عاداتنا فيها دهشة متجددة، وكانت أمها تشير إليها عبثاً لعدم إظهار دهشتها خوفاً من إزعاجنا. وكانت بساطة وسذاجة انطباعها تتجلى على هذا الوجه ذي السادسة عشر ربيعاً، وتصطبغ ملامحها عند كل تعبير بعذوبة وشفافية كبيرتين حتى كنا نتبين الفكرة التي في رأسها قبل أن تعي هي ذاتها بها، وحتى أشعة الشمس التي تنزلق عبر الظل على الماء لم تكن تستطيع إبعاد أعيننا عنها، فكان مظهر هذا الوجه كافياً وحده لإراحتنا، هذا الوجه الذي لن ينساه أي منا على الإطلاق.

كانت الآنسة مالاغامبا ذلك النوع من الجمال الذي لا تصادفه إلا في الشرق، إنه الشكل الناجز، كما نراه في التمثال الإغريقي، والروح المتجلية في النظرة كما هي عند ناس الجنوب، والبساطة في التعبير التي لم تعد موجودة لدى الشعوب البدائية. فعندما تتجمع هذه الشروط الجمالية الثلاثة في وجه امرأة واحدة، وتتناغم على وجهٍ في ربيع شبابه الندي عيون تقرأ منها حتى أعماق الروح، لأن البراءة لا يخطر لها أن تخفي أي شيء. وعندما تكتشف رهافة التقاسيم والنقاوة العذرية للخطوط، وأناقة ومرونة الأشكال إلى الناظر، هذه الحساسية الشهوانية للكائن الذي ولد ليحب، والتي تمزج بقوة بين الروح والأحاسيس حتى إنك لم تعد تعلم وأنت تنظر إن كنت تشعر أو إنك تتأمل معجباً، عند ذاك يكون الجمال كاملاً، وتشعر بإزائه بهذا الرضا الكامل للأحاسيس وللقلب وهذه المتعة المتجانسة التي هي ليست ما يُسمى حبًّا، بل لعلّه حب الفكر وحب الفنان، حب العبقرية للأثر الفني الكامل. وسيقول المرء في نفسه: الجو جميل هنا، وهو لا يستطيع بلا اكتراث أن يقتلع نفسه من هذا المكان الذي جلس فيه منذ قليل، طالما أن الجمال هو ضياء الروح وجاذبية القلب التي لا تقهر.

Twitter: @alqareah

كان لباسها الشرقي يزيد من جاذبية شخصيتها، وشعرها الطويل الأشقر الغامق المذهب خفيفاً مضفوراً فوق رأسها، في ألف من الجدائل التي تنسدل على جانبي كتفيها العاريتين، كان مزيجاً مشتبكاً من اللآلئ، والليرات الذهبية المنضدة، وتنتشر على شعرها زهور بيض وزهور حمر وكأن يداً مليئة بالجواهر قد انفتحت بالمصادفة فوق هذا الرأس، وتُركَتْ لِتُسْقِطَ عليه كيفما اتفق هذا المطر من الورد والحلي. كان كل ما ترتديه لائقاً بها، فلا شيء يمكن أن يشوِّه رأس فتاة ذات خمسة عشر عاماً. كان صدرُها مكشوفاً كما هي عادة النساء العربيات، كانت تلبس رداء من الموسلين الموشَّى بأزهار من الفضَّة ومعقوداً بشال حول خصرها، وكان ذراعاها يمران في كمَّين فضفاضين ومفتوحين حتى مرفقيها، وسترة من القماش الأخضر التي كان ذيلها يتدلَّى بحريَّة على الوركين، ويكمل هذا الزي بنطلون ذو طيات عديدة، وكانت قدماها العاريتان مغلولتين عند الكاحل بحجلين من الفضة يصاحب رنينهما حركة قدميها.

ولو كان بيننا رسام لجعل من مشهد الرحلة هذه لوحة جميلة، فهذه بلادنا التركية الجذابة الثرية، وهذه أسلحتنا من كل نوع تنتشر على الأرض من حولنا، وهذه كلاب الصيد الممددة عند أقدامنا، وهذه الوجوه الثلاثة للنساء الجالسات أمامنا بأوضاعهن المفعمة بالبساطة والغرابة والاستسلام، وتعبير وجوههن وهن يصغين لما أرويه لهن عن رحلاتي، أو عندما نقارن عادتنا في أوروبا مع نوعية الضيافة التي يقدمونها لنا، وهذه مجمرات العطور التي تحترق في إحدى أركان الغرفة تنشر شذاها في هواء المساء، والأشكال العتيقة للأواني حيث كن يقدمن لنا المشروبات المعطرة. كل هذا وسط غرفة متداعية، مفتوحة على البحر، إذ كانت أغصان النخلة التي ترتفع في الفناء تنفذ عبر شقوق واسعة بلا قضبان. وإني آسف لأني لم أحمل هذه الذكرى إلى أصدقائي كما أحملها في مخيلتي.

Twitter: @alqareah

في جبل الكرمل

عند باب الدير الجميل الذي بُني بأكمله حديثاً، والذي يبهر بياضه الأبصار، والذي كان ينتصب على قمة الكرمل الأكثر حدة، كان ينتظرنا اثنان من الآباء، كانا الساكنين الوحيدين لمأوى النسّاك الرائع هذا، استقبلونا كما لو كنا مواطنين من بلد واحد، أو كما لو كنا أصدقاء لهم.

وضعا تحت تصرفنا ثلاث حجرات مزودة كل واحدة منها بسرير، والسرير هو من الأثاث النادر في الشرق، وكرسي وطاولة. ومكث العرب مع جيادنا في الفسح الداخلية الواسعة للدير، وقدموا لنا عشاءً مكوناً من السمك الطري والخضروات المزروعة بين صخور الجبل، وأمضينا بعد كل هذا التعب أمسية عذبة، جلسنا في الشرفات الواسعة التي تطل على البحر وعلى مغارات الأنبياء. كان القمر الهادئ يطفو على الأمواج التي كان همسها وطراوتها يصلان إلينا، ووعدنا الأبوان بقضاء النهار التالي في هذا الملجأ وذلك لنريح جيادنا ونجمع مؤننا. إذ كنا نتأهب للدخول في بقاع جديدة، حيث لن نجد لا مدينة ولا قرية، ولا مصادر للماء العذب إلا فيما ندر، وكان في انتظارنا خمسة أيام من السير في الصحراء.

29 تشرين الأول 1832

أمضينا النهار في دير جبل الكرمل، وفي الطواف على مواقع الجبل ومغارات إيليا Elie والأنبياء. وكانت المغارة الرئيسية قد حفرت بيد الإنسان في أكثر الصخور صلابة، وهذه المغارة هي صالة ذات علوٍّ خارق، وليس أمامها من مشهد سوى البحر الذي لا حدود له. وفي هذه المغارة لا يسمع المرء من صوت سوى ضجيج الأمواج التي تتكسر بلا انقطاع على حدِّ الجبل.

ويُحكى عادة إن هذه المغارة كانت المدرسة التي كان إيليا يعلم فيها علوم الأسرار والأشعار الراقية. كان المكان قد اختير على نحو

Twitter: @alqareah

مثير للإعجاب، إذ كان صوت الشاعر العجوز معلم الأجيال العديدة من الأنبياء يدوي بلا ريب على نحو فخم في جوف الجبل المحفور الذي شقه بمعجزاته، والذي بقي يحمل اسمه.

وحكاية إيليا هي من أكثر حكايات العهد القديم المقدس عجائبية، لقد كان هذا الشاعر عملاق الشعراء والبطولات المقدسة، وعندما نقرأ حياته وانتقاماته الرهيبة يبدو لنا هذا الرجل وكأنه يملك من روحه صاعقة المولى، وأن المكان الذي ارتقى منه إلى السماء هو المكان الذي ولد فيه، لقد كان صورة جميلة غنائية ملحمية، وواحدة من قصائد الأسرار القديمة للحضارة اليهودية. وعلى كل حال، فإن عصر الأنبياء، إذا نظرنا إليه من الناحية التاريخية سنجد أنه من أقل العصور وضوحاً في حياة هذا الشعب، ولكننا نتبين، ولاسيما في عصر إيليا، مفتاح التنظيم الغريب لمجموعة الأنبياء، إذ كانت طبقتهم، كما هو واضح، مقدسة ومثقفة، وهي في تعارض دائم مع الملوك، وهم محامون محترمون للشعب، يستثيرونهم أو يهدئونهم بالأناشيد والحكم والوعيد.

وكانوا يشكّلون جماعات في إسرائيل، كما يشكل الكلام والصحافة الجماعات بيننا هذه الأيام، ويتشاجرون فيما بينهم بسيف كلامهم أولاً، ومن ثم بالرجم والحسام ويمحون بعضهم البعض عن وجه الأرض، كما رأينا إيليا وقد محا المئات، ومن ثم يهلكون هم بدورهم تاركين المكان لمهيمنين آخرين على الشعب. لم يلعب الشعر بمعناه الدقيق دوراً بمثل هذه الأهمية في المأساة السياسية، وفي مصائر الحضارات مثلما فعلوا بشعرهم على الإطلاق، إن العقل لدى الشعراء الحقيقيين، والانفعال لدى الشعراء المزيفين لم يكن يخرج من أفواههم إلا بلغة الصور الفعالة والمتجانسة، فهم لم يكونوا خطباء كخطباء أثينا أو روما، ما الخطيب إلا بشر، إنما كانت هناك أناشيد ومراثي، فالشاعر مقدس عندهم، وأية مخيلة مضطربة وملونة وهذيانية تفترض وجود مثل هذه الهيمنة بالكلام على مثل هذا الشعب؟ وكيف لنا أن نندهش من

Twitter: @alqareah

أن هذه الأشعار وبمعزل عن الحس الديني العالي الذي تنطوي عليه، كانت صرحاً ناجزاً كبيراً من العبقرية والجمال غير قابل للتقليد؟

وكانت مكافأة الشعراء حينذاك هو المجتمع بذاته، كان إلهامهم يخضع الشعب لهم فيدفعونه طبقاً لمشيئتهم إلى الجريمة أو إلى البطولة، فكان بمقدورهم جعل الملوك المذنبين يرتعشون ويلقون الرماد على جبينهم، أو يستنهضون الحماس الوطني في قلوب مواطنيهم، ويجعلونهم ينتصرون على أعدائهم، أو يذكرونهم، عندما يكونون في المنفى أو العبودية بحرية أطفال الله.

التاريخ نفسه

رجعت من نزهة قمت بها وحدي على سفوح الكرمل الشذية، كنت جالساً تحت شجرة القطلب، فوق الطريق المنحدرة التي تصعد إلى قمة الجبل وتؤدي إلى الدير.

كنت أنظر إلى البحر الذي يفصلني عن الكثير من الأشياء والكائنات التي عرفتها وأحببتها، لكنها لا تفصلني عن ذكراهم، ثم استعرضت حياتي الماضية، وتذكرت ساعات تشبه هذه الساعات كنت أمضيتها في العديد من الشواطئ المختلفة جداً، ومع أفكار مختلفة جداً، وتساءلت مع نفسي هل كنت أنا بذاتي الذي يجلس هناك على القمة المنعزلة لجبل الكرمل، وعلى مبعدة فراسخ من الجزيرة العربية وعن الصحراء؟ ولماذا كنت هناك وإلى أين أنا ذاهب وإلى أين سأعود؟ وأية يد تقودني؟ وعن ماذا كنت أبحث بدراية وبعلم مني في هذا السباق الأزلي عبر العالم؟

كنت أجد مشقة في ترتيب كائن واحد من نفسي بإزاء المراحل المتعارضة وغير المتوقعة من وجودي القصير الأجل، ولكن الانطباعات الحية جداً والواضحة جداً والحاضرة جداً من كل الكائنات التي أحببتها وفقدتها تؤثر بقلق عميق على قلبي، وتثبت إلى حد كبير بأن هذه الوحدة لم تكن موجودة في حياتي، بل كانت

Twitter: @alqareah

موجودة برمتها في قلبي، وكنت أشعر بعينيّ تتنديان وأنا أنظر إلى الماضي، حيث لا ألحظ منه سوى خمسة أو ستة أضرحة وقد انغمرت سعادتي خمس أو ست مرات.

ومن ثم وتبعاً لغريزتي، عندما تصبح انطباعاتي قوية جداً أو على وشك أن تسحق أفكاري، كنت أحركها بحماس ديني نحو الرب، نحو هذا المطلق الذي يستغل كل شيء، يحتوي كل شيء، ويعيد كل شيء، كنت أصلّي إليه، وأخضع إليه إرادتي الطيبة دوماً، وكنت أقول له:

(كل شيء جيد، بما أنك أردته، هذا أنا فاستمر في قيادتي على دروبك وليس على دروبي، اصطحبني أينما شئت وكما شئت، المهم هو شعوري بأنك تقودني، وأنت تتجلى لي من وقت لآخر في عتماتي من خلال إشعاعات الروح تلك، تريني كما البرق في ليلنا البهيم الأفق للحظة واحدة، والمهم هو شعوري بأنك تدعمني بهذا الأمل غير الزائل الذي تركته على الأرض مثل صوت أولئك الذين لم يبقوا عليه، المهم هو أن أجدهم فيك وأن يتعرفوا علي وأن نحب بعضنا البعض في هذه الوحدة التي لا توصف، والتي نشكلها سوية منك ومنهم ومنا! وسيكفيني هذا لأتقدم ولأسير حتى النهاية في هذا الطريق الذي يبدو بلا هدف).

ولكني أعمل على أن لا تكون الدرب قاسية جداً لأقدام مجروحة سلفاً!

نهضت أكثر خفة، وأخذت أقطف باقات من الأعشاب الزكية التي كان الكرمل برمته معطراً بها. كان الآباء في الدير يعدون منها نوعاً من الشاي يفوق بعطره النعناع والقويصة المعروفة في حدائقنا، وشغلني عن أفكاري وعتابي وقع خطوات حمارين كانت حدواتهما تدوي على صخور الدرب الصقيلة، وقد جلست على الحمارين امرأتان تلفّان كتفيهما من الرأس حتى القدمين بقماش أبيض طويل، وثمة شاب يمسك بلجام الحمار الأول، ويسير إلى

Twitter: @alqareah

الخلف عربيان يحملان على رأسيهما سلّتين واسعتين من القصب، وقد غُطّيتا بمنديل من الموسلين الموشى. كان ذلك هو السيد مالاغامبا وأمه وشقيقتاه يصعدون إلى الدير ليقدّموا لي مؤونة الطريق. كانوا قد هيئوها أثناء الليل، وكانت إحدى السلّتين مليئة بقطع صغيرة من الخبز الأصفر بلون الذهب، ذات مذاق لذيذ، وكانت مصادفة نادرة أن أجد الخبز في هذه البقعة، حيث الخبز غير معروف فيها، والثانية كانت مليئة بالفواكه من كل نوع، وبضعة قناني من النبيذ القبرصي واللبناني الرائع، ومربيات لا تعد أنواعها وهي من اللذائذ عند الشرقيين. استلمت بامتنان الهدية من هاتين المرأتين اللطيفتين، وأرسلت العرب لحمل السلال للدير، وجلسنا نتحدث للحظات عن منعطفات الحياة على السيدة مالاغامبا. كان المكان جذاباً يقع تحت اثنين أو ثلاث من أشجار الزيتون الكبيرة التي تظلل أحد الأحواض التي حفرها ينبوع النبي إيليا عند سقوطه من صخرة إلى أخرى في أحد الوهاد الصغيرة لجبل الكرمل.

كان العرب قد فرشوا بسط حميرهم على العشب المحيط بالينبوع، وكانت المرأتان اللتان ردتا وشاحيهما الطويلين على كتفيهما جالستين على أريكة المسافر على حافة الماء، مرتديات أغلى أثوابهن، وأكثرها ألقاً، وشكلتا مجموعة جديدة بعين رسام. كنت أجلس قبالتهن على إفريز من الصخور، حيث كانت تتساقط مياه الينبوع، وكم من الدموع بللت عيون السيدة مالاغامبا وهي تستعرض أمامي أزمان حياتها وشقائها الحاضر.

كانت الآنسة مالاغامبا تصغي إلى هذه الحكاية بلا مبالاة هادئة، وهذا من سمات السن الفتية، فكانت تتسلى بجمع باقات الزهور الجالسة عليها، وعندما يتهدّج صوت أمها خلال الحديث وتنهمر الدموع من عينيها، عند ذاك فقط تحيط الفتاة رقبة أمها بذراعها وتمسح دموعها بمنديل الموسلين الموشى بالفضة الذي كانت تمسك به بيدها، ومن ثم وعندما تعود الابتسامة الى وجه أمها تستعيد تسليتها الطفولية، وترتب من جديد ألوان باقتها. فوعدت

Twitter: @alqareah

هاتين المرأتين المسكينتين بأني سأذكرهما، وأذكر ضيافتهما غير المتوقعة عند عودتي إلى أوروبا، وأن ألتمس من أصدقائي في توران ترقية موظف القنصلية الشاب في حيفا. ورغم أن تحقيق مثل هذا الأمل كان بعيداً وغير مؤكد إلا أنه دخل في قلب السيدة مالاغامبا، وأخذ الحديث بيننا مجرى آخر متحدثاً عن سلوكيات البلد وعن رتابة حياة النساء العربيات، حيث كان على النساء الأوروبيات اللواتي يعشن في الغرب أن يقلدن عاداتهن. بيد أن الآنسة مالاغامبا ووالدتها لم يكنَّ قد عرفن أبداً نوعاً آخر من الحياة، ويبدين استغرابهن لما كنت أرويه لهن عن أوروبا، إن العيش من أجل رجل واحد وفكرة واحدة في داخل بيوتهن، وقضاء النهار على الأريكة لجدل الضفيرة، ووضع الحلي العديدة والتزين بها بأناقة، واستنشاق الهواء العطر للجبال أو البحر من أعلى الشرفة أو من خلال الشبكة الجديدة للشباك، والسير لبضعة خطوات تحت أشجار البرتقال والرمان في الحديقة الصغيرة، أو الذهاب للحلم عند حافة الحوض الذي يحييه ماء النافورة بهمساته، والاعتناء بالمنزل، وصنع عجينة الخبز باليدين، والشراب والمربيات، والذهاب مرة في الأسبوع لقضاء النهار في الحمَّام العام برفقة كل فتيات المدينة، وغناء بعض قصائد الشعراء العرب مع العزف على العود، هذه هي كل ما يمثل الحياة في الشرق بنظر النساء، فالمجتمع غير موجود بالنسبة لهن، ولذا فهن لا يملكن أياً من الأهواء المتكلفة لحب الذات الذي يولِّد المجتمع، وهنَّ عندما كنَّ شابات وجميلات يمنحن كل وجودهن للحب، وعندما يكبرن يمنحنه للأعمال المنزلية ولأطفالهن.

هل هذه الحضارة هي أفضل من غيرها؟

وبينما كنا نتحدث هكذا على غير هدى، كان الترجمان الذي يرافقني، وهو شاب ولد في المنطقة العربية وتبحر بالآداب العربية كان يبحث عني في أطراف الدير، وعثر علي قرب الينبوع، فأتاني مصطحباً شاباً عربياً آخر كان قد علم بوصولي إلى حيفا، وكان قد جاء من سان جان داكر ليتعرف على شاعر من الغرب.

Twitter: @alqareah

ولد هذا الشاب في لبنان، ونشأ في حلب، وكان معروفاً بموهبته الشعرية، وكنت قد سمعت به أنا نفسي كثيراً، وطلبت أن يترجم لي العديد من مؤلفاته. وكان يحمل لي معه بعضاً من هذه المؤلفات، والتي سأعطيها لترجماني فيما بعد، فجلس معنا بالقرب من الينبوع، وتحدثنا طويلاً بمساعدة الترجمان، ولكن النهار كان يوشك على الانقضاء، وعلينا المغادرة فقلت له:

(بما أننا هنا شاعران، وقد جمعت المصادفة بيننا، ونحن من وجهتين متعارضتين تماماً، وفي مكان بهذه الروعة، وفي ساعة جميلة للغاية، وبحضور جمال هذا المكان فلابد أن يخصص كل واحد منا بلغته عدداً من الأبيات المكرّسة للقائنا وللانطباعات التي ألهمنا بها هذه الساعة).

فابتسم وسحب من حزامه المحبرة وريشة القصب واللتين لا يتخلى الكاتب العربي عنها كما لا يتخلى الفارس عن حسامه، وابتعدنا الواحد عن الآخر بضعة خطوات، وأمضينا اللحظات في تأمل أبياتنا. انتهى قبلي بوقت طويل، وهذه أبياته، وهذه أبياتي(*):

(في حدائق حيفا ثمة زهرة يبحث عنها شعاع
الشمس عبر تشابك جريد النخل.
لهذه الزهرة عيون أكثر نعومة من عيون الغزال،
عيون تشبه قطرة من ماء البحر في القوقعة.
لهذه الزهرة عطر أخّاذ حتى إن الشيخ الهارب
أمام رمح القبيلة الأخرى على فرسه الأسرع من سقوط الماء،
قد شمه في الطريق وتوقف ليستنشقه.
أزالت ريح السموم من أردية المسافر كل العطور الأخرى،
بيد أنها لم تزل أبداً في القلب عطر هذه الزهرة العجيبة،

(*) (يمكن التعرف فيها على سمات كلا الشعرين، ومن غير الضروري التنبيه إلى أن كل اللغات تفقد من قيمتها عند ترجمتها) ملاحظة لامارتين.

Twitter: @alqareah

وإنك لتجدها على حافة النبع الذي يجري بلا همس عند قدميها.

يا فتاتي قولي لي اسم أبيك وسأقول لك اسم هذه الزهرة).

وهذه هي الأبيات التي قلتها أو التي جعلت الترجمان يترجمها إلى العربية:

(يا نبع ذو المرآة الزرقاء، عندما تأتي ليلى
الحالمة لتجلس على ساحلك الأخضر في الظل،
على أمواجك تنحني وتلقي بصورتها
مثل نجمة السماء المنحنية على الخليج الساكن،
وتنكمش مياهك الغافية من رعشة متنقلة،
فلا تعود قاع الرمل أو القصب
إذ تمتلئ أمواجك بالسحر والضياء،
ولا تعود العين تبحث عن سمائها إلا في مياهك!
فأنت لست سوى انعكاس للأشياء الفاتنة،
عيون زرق مثل هذه الزهور التي تجف بحوضك،
أسنان من الصدف ضاحكة بين شفاه وردية،
كرات تحركها نفحة صافية مع النهد،
شعر مجدول بالزهور، معلق بثقله،
عقود تبرز ذراعيها من لونها القرمزي،
لآلئ لامعة تحت الموجة، تخال نفسك تمسك بها
كما تمسك برملها الذهبي، إن أنت غمرت يدك تحتها
ابسط عليك يدي، نبع يسبح في ظلك،
خوفي أن تمحو الريح منك كل شيء
وتود شفتاي الغيورتان من الشاطئ
أن تشرب هذه المياه السعيدة حيث نفذت الصورة!
ولكن عندما نهضت ليلى وتبعت أمها
لم يكن هذا سوى القليل من الماء في حوض باهت

Twitter: @alqareah

فأذوق عبثاً الماء بإصبعي والموج لاذع،
إذ كدرت الحمى والدويبات زرقته،
آه حسناً! يا فتاة إن ما فعلته بهذه المياه
يفعله الجمال في قلبي مدى الحياة،
نعم البهجة والنقاء على هذا المكان
مادامت عيناها تلتمعان فيه
وما إن تغمض عينيها،
آه وآسفاه يخيم الليل عليه.

صوب القيصرية

23 تشرين الأول 1832

عند شروق الشمس غادرنا، ونحن في أتم استعداد، دير جبل الكرمل وراهبيه الرائعين الاثنين، وسلكنا دروباً وعرة تنحدر من القمة إلى البحر. وهناك ولجنا الصحراء الممتدة بين بحر سورية التي كانت سواحلها عند هذا المكان منبسطة وترابية، تتخللها الخلجان الصغيرة، وبين الجبال التي تعقب جبل الكرمل، وتأخذ هذه الجبال بالانخفاض على نحو تدريجي غير محسوس كلما اقتربنا من الجليل، فتصبح صخورها سوداء جرداء، وغالباً ما تخترق الصخور قشرة الأرض وما بقي عليها من شجيرات، وأما هيئة الجبال فهي كئيبة معتمة، ولا تملك سوى غطاء من الضياء الساطع وعظمة الماضي المثالية التي تحيط بها.

وفي بعض الأحيان نجد السلسلة بعد ما يقارب العشرة فراسخ تقريباً قد انكسرت، وظهر للعيان وادٍ صغير قليل العمق، وفي قاع هذا الوادي أو على سفحه يمكنك أن تميز على نحو واضح بقايا قصر محصن وقرية عربية كبيرة، حيث تنبسط أسفل جدران القصر. حين يرتفع دخان المنازل ويتعرج على امتداد سفوح الكرمل، ثمة صفوف طويلة من الجمال والماعز الأسود والأبقار الحمر تمتد من القرية إلى السهل الذي كنا نعبره، وهناك رجال عرب يمتطون

Twitter: @alqareah

الجياد مسلحين بالرماح، وملثمين بغطاء من الصوف الأبيض. كانت سيقانهم وأذرعهم عارية، وهم يسيرون على رأس قوافل الرعاة وجوانبها، ويقتادون القطعان إلى ينبوع المياه الوحيد الذي صادفناه منذ أربع ساعات.

كان سكان المدن الواقعة على ساحل البحر في الماضي هم الذين اكتشفوا وحفروا العيون، أما اليوم فقد هجر العرب كل هذه المدن منذ قرون، ولم يبقَ فيها سوى هذا الينبوع، وهم يقطعون هذه الرحلة التي تدوم ساعة أو ساعتين للحصول على الماء الكافي لإرواء قطعانهم.

سرنا النهار بأكمله على حطام الجدران وعلى الموزاييك الذي ينقب الرمل، وكانت الأطلال شواخص على الطريق، وتشهد على روعة وكثرة عدد سكان هذه السواحل في الأزمان الغابرة.

كنا نرى أمامنا منذ الصباح عاموداً ضخماً ينتصب أمامنا في الأفق على حافة البحر، تنعكس عليه أشعة الشمس، وكنا كلما تقدمنا يبدو وكأنه يكبر ويخرج من الأمواج، وعند اقترابنا منه علمنا أن هذا العامود كان كتلة غير واضحة الأطلال، ورائعة تعود إلى عصور مختلفة، فميزنا أولاً جداراً ضخماً يشبه بشكله ولونه وحجم بحارته أحد جوانب الكوليزيه Colisee في روما. وكان هذا الجدار ذو العلو الشاهق ينتصب وحيداً مقوراً على كتلة من أطلال أخرى ذات عمارة إغريقية ورومانية، وما لبثنا أن اكتشفنا وراء هذا الجدار بقايا أنيقة مسننة بإتقان كما لو كانت دانتيلا من الحجارة، تعود إلى صرح موريسكي، وهي إما كنيسة أو مسجد، أو لعلها الاثنان معاً، ومن ثم سلسلة من بقايا أخرى منتصبة، وفي وضع جيد لأبنية قديمة أخرى.

كان الطريق الرملي الذي نسلكه يقودنا قريباً من هذه البقايا العجيبة للماضي، ونحن الآن نجهل وجودها واسمها وتاريخها تماماً. وعلى مبعدة نصف ميل من هذه المجموعة من الصروح يرتفع ساحل البحر ويتحول الرمل إلى صخور. وكانت هذه الصخور

Twitter: @alqareah

منحوتة في كل مكان بيد الإنسان على مسافة يبلغ محيطها ألف متر تقريباً، وكان ما نراه هو مدينة بدائية محفورة في الصخر قبل أن يتعلم الإنسان فن اقتلاع الحجارة من الأرض، وتشييد المساكن على سطحها. لقد كانت في الواقع واحدة من المدن الواقعة تحت الأرض التي يتحدث عنها التاريخ الأول، أو لعلها واحدة من المقابر الكبيرة، أو مدينة للأموات التي كانوا يحفرونها في كل اتجاهات الأرض أو الصخور على مشارف المدن الكبيرة للأحياء، ولكن الأشكال الصخرية، أو المغاور التي تخلو من الأرقام المحفورة على جوانبها كانت تدل حسب رأيي على مساكن الأحياء. وتكون هذه المغاور واسعة وأبوابها عالية، وهناك سلالم عديدة وواسعة تقود إلى هذه الأبواب، كما أن هناك نوافذ محفورة في هذه الصخور تسمح بدخول النور إلى هذه المساكن، وتطل هذه الأبواب وهذه النوافذ على شوارع شقت بعمق في أحشاء الرابية.

سلكنا العديد من هذه الشوارع العميقة الواسعة، حيث كانت الأخاديد تدل على آثار سير العجلات عليها.

كانت أسراب العقبان والكواسر وجموع لا تحصى من الزرازير تنطلق عند اقترابنا من مناطق الظل في هذه الصخور المحفورة، وهناك جنان مستقلة وأزهار حشيشية، وباقات من الآس والتين مدت جذورها في تراب هذه الشوارع الصخرية، وكست هذه الجادات الطويلة. وكنا نرى في بعض الأماكن سكاناً من الأقدمين قد شقوا الرابية بالإزميل، وحفروا القنوات التي سمحت لمياه البحر بالمرور، ويمكن للعين أن ترى جزءاً من الخليج الذي كونته هذه الرابية خلف المدينة. إنه مشهد ذو طابع في غاية الجدة، فهو صارم وقاس كالصخرة، وهو ضاحك ولامع مثل هذه الفجوات الجوية على زرقة البحر، ومثل هذه الغابات النباتية التي نمت من تلقاء نفسها في شقوق الغرانيت.

سرنا بعضاً من الوقت في هذه الدهاليز العجيبة، وأخيراً وصلنا إلى أسفل الجدار العظيم والصروح الموريسكية التي كانت تنتصب أمامنا، وعند ذاك توقفنا للتشاور لحظة.

Twitter: @alqareah

اللصوص

لقد كان لهذه الأطلال صيت سيء، إذ كانت تختبئ فيها في الغالب عصابات اللصوص التي كانت تسلب القوافل وتذبحها، وكانوا في حيفا قد نصحونا بتفاديهم، أو بأن نرتب قطعاتنا عند المرور بهم، وعدم السماح لأي من الرجال بالابتعاد عن جسد القافلة. بيد أن الفضول تغلب علينا فلم نستطيع مقاومة الرغبة في زيارة هذه الصروح التي لا يعرف عنها التاريخ القديم أو الحديث شيئاً.

كنا نجهل إن كانت مهجورة أم مسكونة.

وعند وصولنا أسفل أسوار الفناء التي مازالت تحيط بهذه الصروح لاحظنا الثغرة التي علينا المرور منها إلى الداخل. وفي تلك اللحظة بالذات ظهرت لنا زمرة من العرب على ظهور الجياد يحملون الرماح. وقفوا على الرمل الذي يفصلنا عن المدخل، ثم انقضّ أفرادها علينا، ولكنا كنا متأهبين لهذا الظهور المفاجئ، فقد كنا نحمل بنادقنا بأيدينا محشوة بالرصاص، ومسدساتنا في أحزمتنا. تقدمنا نحو العرب فتوقفوا فجأة. انفصلتُ عن القافلة بعد أن أمرتها بالإبقاء على أسلحتها جاهزة، وتقدمت مع اثنين من رفاقي والترجمان نحوهم، وشرعنا بالتفاوض مع العدو.

رافقنا الشيخ مع اثنين من فرسانه حتى المدخل بعد أن أمر العرب الذين كانوا في الداخل باحترامنا.

الدخول إلى قصر اللصوص

تركونا نتفحص الصروح. فارتأيت ومن باب الحيطة أن لا يدخل معنا سوى قسم من جماعتنا، وبقي الآخرون يرابضون على مسافة قريبة من التل، متأهبين لنجدتنا في حالة وقوعنا في مكيدة. وثبت جدوى هذا الإجراء الاحترازي. إذ وجدنا داخل الأسوار شعباً من مائتين أو ثلاثمائة من العرب البدو من ضمنهم نساء وأطفال، لم يكن هناك سوى منفذ واحد للخروج من هذه الأطلال، وكنا سنقع

Twitter: @alqareah

بسهولة بيد هؤلاء البربر ونذبح من قبلهم لو لم تردعهم القوات التي بقيت في الخارج، والتي كانوا يظنون أنها أكبر مما هي عليه في الحقيقة. إذ راعينا عدم إظهار كل ما كان معنا من رجال، وقد بقي البعض في الخلف عمداً، يعسكرون على إحدى التلال، بل كان بإمكاننا ملاحظة ما يفعلون.

وما إن اجتزنا الشق حتى وجدنا أنفسنا في دهليز من الممرات التي تلتف حول البقايا المحيطة بالسور الكبير والمباني القديمة التي أخذنا نكتشفها تدريجياً. لم تكن هذه الممرات أو الأزقة محفورة على نحو منتظم، بل إن أقدام العرب والجمال والماعز حفرتها عشوائياً بين هذه الأنقاض ومع أن عائلات القبيلة لم تشد شيئاً، إلا أنها أفادت من جميع الجيوب التي شكلها سقوط الصخور الضخمة هنا وهناك واحتمت فيها، فاحتمى البعض في ظل جذوع الأعمدة أو في ظل تيجان الأعمدة، واحتمى البعض الآخر بقطعة قماش مصنوع من وبر الماعز الأسود، بعد أن تم شدها بأوتاد عند جوانبها لتشكل ما يشبه السقف.

أما الشيخ ونساؤه وأطفاله فقد كانوا بلا ريب يشغلون قصر القرية، وكانوا جميعهم يسكنون مدخل المدينة في أنقاض أحد المعابد الرومانية الواقع على تلة عالية جداً فوق الممر الذي دخلنا منه. وكان منزلهم يتألف من كتلة ضخمة من الحجر المنحوت، تتدلى عامودياً وقد استندت إحدى أركانها على كتل صخرية أخرى تبدو وكأنها توقفت عند سقوطها، وكان هذا السديم من الأحجار يبدو وكأنه مستمر في انهياره، ويوشك على سحق نساء وأطفال الشيخ. بيد أنهم كانوا يظهرون رؤوسهم من فوقنا خارج هذه المغارة الاصطناعية. لم تكن نساؤه محجبات، ولا يلبسن سوى قميص من القطن الأزرق يكشف عن صدورهن ويبقي سيقانهن عارية، ويحيط بهذه القميص عند الخصر حزام من الجلد.

وبدت لنا النساء هناك جميلات رغم الأقراط التي تخرم مناخيرهن، والوشم الغريب الذي يخط خدودهن ورقابهن، كان

Twitter: @alqareah

الأطفال عراة يجلسون أو يركبون الحصان فوق الكتل الحجرية المنحوتة التي كانت بمثابة شرفات لهذه المساكن المخيفة، في حين كانت بعض الماعز السوداء بآذانها الطويلة المتدلية قد تسلقت أبواب هذه المغاور، وصعدت إلى جانب الأطفال. كانت تنظر إلينا ونحن نمر أو تقفز من فوقنا وتنتقل من كتلة صخرية إلى أخرى فوق الممر العميق الذي كنا نمر فيه.

ورأينا بعض الجمال الممددة إلى جانب الأطفال هنا وهناك في الجوف البارد للبقايا الصخرية، وهي ترفع رؤوسها المفكرة الهادئة فوق قطع الأعمدة وتيجانها المهدمة، وكان المشهد يتغير في كل لحظة مما يزيد من حدة انتباهنا.

لو كان هناك رسام لوجد في هذا المكان ألف موضوع ذا أصالة لا سابق له في شكله المتغير بلا انقطاع وغير المتوقع، حيث امتزجت مساكن القبيلة مع بقايا المسرح والحمامات والكنائس والمساجد التي تملأ هذا الركن من وجه الأرض. والآن انعدم جهد الإنسان في إقامة ملاذ له على ركام المدينة المقوضة، فقد اتخذت هذه المساكن أشكالاً ارتجلتها المصادفة الغريبة لسقوط الصروح، مما زاد من شاعرية المشهد وتأثيره.

كانت النساء تحلب الماعز على مدرجات المسرح، وهناك قطعان الغنم تقفز الواحدة بعد الأخرى على النافذة المقوسة لقصر يعود لأمير أو كنيسة قوطية من عصر الصليبيين، وهناك شيوخ يجلسون القرفصاء ويدخنون غلايينهم تحت السقف المزخرف لقوس روماني، وهناك جمال ربطت رسنها بأعمدة قصيرة موريسكية لإحدى أبواب صالات الحريم. نزلنا عن جيادنا لننظر على نحو تفصيلي المواضع الرئيسية لهذه الأطلال.

الليل

كان الليل ساخناً ولم أستطع البقاء تحت الخيمة فنهضت، ذهبت لأجلس قرب عين الماء تحت شجرة الزيتون. كان الليل يضيء كل

Twitter: @alqareah

سلسة جبال الجليل التي تتموج برشاقة من الأفق وعلى امتداد فرسخين تقريباً من المكان الذي عسكرنا فيه.

كان ذلك هو أجمل خط أفق رأته عيني حتى الآن. حتى أن أغصان الزنابق الفارسية الغضة التي تتدلى عناقيد في الربيع لاتملك لوناً بنفسجياً أكثر طراوة وعمقاً من هذه الجبال التي كنت أتأملها حينذاك. كلما صعد الفجر واقترب من هذه الجبال، أصبح لونها أكثر قتامة وأكثر قرمزية، وصارت أشكالها أكثر حركة كأشكال الموج العالي الذي نراه في انعكاس غروب الشمس فوق عرض البحر. فضلاً عن أن كل جبل كان يحمل اسماً وله حكاية كنا قرأناها في طفولتنا ونحن مضطجعين على ركبتي أمّهاتنا. كنت أعلم أن جبال يهوذا كانت هناك بمعجزاتها وأطلالها، وأن مدينة بيت المقدس كانت تجلس خلف إحدى هذه التلال التي لم يعد يفصلني عنها سوى بضع ساعات من السير، وإني موشك على الوصول إلى النهاية المنشودة لرحلتي الطويلة.

كنت سعيداً بهذه الفكرة كما يسعد الإنسان عادة في كل مرة يقارب فيها على بلوغ هدف من الأهداف ـ حتى وإن كان هدفي بلا معنى ـ الذي أملته عليه عاطفة ما، وبقيت لساعة أو ساعتين وأنا أتسلق في ذاكرتي هذه الخطوط وهذه الألوان وهذه السماء الشفافة الوردية وهذه الوحدة وهذا الصمت، ثم هبط ندى الليل وبلّل معطفي.

رجعت إلى الخيمة ونمت، وما إن نمت ساعة حتى أيقظتني ضجة خافتة، فنهضت مستنداً على مرفقي، ونظرت حولي كانت إحدى ستائر الخيمة مرفوعة فدخل منها نسيم الليل. كان القمر يضيء الداخل تماماً، ورأيت ابن آوى ضخماً وهو يدخل بحذر وينظر صوبي بعيون من نار، أمسكت بندقيتي فأرعبته حركتي ومضى على عجلة. وعدت إلى نومي، واستيقظت مرة ثانية، فرأيت ابن آوى وهو عند قدمي يبحث بأنفه في ثنايا معطفي، وكان متأهباً للإمساك بكلبي السلوقي الجميل الذي ينام معي على الحصيرة ذاتها. هذا الحيوان اللطيف الذي لم يفارقني يوماً واحداً منذ ثمانية أعوام،

Twitter: @alqareah

والذي كنت سأدافع عنه كما لو كان جزءاً من حياتي، ولو كلفني ذلك عمري، ولحسن الحظ كنت قد وضعت عليه طرفاً من معطفي، وهو ينام عميقاً حتى أنه لم يسمع أو يشم شيئاً، ولم يكن يشك بوجود خطر يحدق به. وبعد لحظة خطفه ابن آوى وذبحه في عرينه، فأطلقت صرخة استيقظ على إثرها رفاقي، وخرجت خارج الخيمة وأطلقت رصاصة من بندقيتي ولكن ابن آوى كان قد ذهب بعيداً. وفي اليوم التالي لم يكن هناك أي أثر للدم يشهد على انتقامي. ورحلنا مع أول إشعاعات الشمس التي أضاءت روابي يهوذا.

أبو غوشة

بعد غروب الشمس بقليل، وصلنا نهاية سهل الرملة قرب ينبوع حفر في الصخرة، كان يروي حقلاً صغيراً مزروعاً بالقرع. كنا عند أسفل جبال يهوذا، فنزلنا إلى وادٍ صغير بعرض مائة قدم مفتوح من جهة اليمين، ومن هذا المكان تبدأ المنطقة الواقعة تحت نفوذ قطاع الطرق من العرب في هذه الجبال.

بينما كان الليل يقترب، دفعنا الحذر إلى أن نقيم معسكرنا في هذا الوادي، ونصبنا خيامنا على مبعدة مائتي خطوة من الينبوع، ووضعنا حراسة على التل الذي يشرف على الطريق إلى مدينة بيت المقدس. بينما كانوا يعدون لنا العشاء، ذهبنا لصيد بعض من طيور الحجل على التلال الممتدة أمام خيامنا، فاصطدنا عدداً منها، وحملنا سرب من العقبان الصغيرة على مغادرة قلب الصخور التي كانت تسكنها، إذ أنها بعد أن طارت، صارت تدور وتصرخ فوق رؤوسنا، ثم تعود إلينا بعد أن كنا قد أطلقنا الرصاص عليها.

كل الحيوانات تخشى إطلاق النار، وانفجار الأسلحة، إلا العقاب فهو وحده الذي يظهر استخفافه بها ومقارعته للخطر، فهو إما أن يتجاهلها أو يتحداها. وتأملت بإعجاب، وأنا من فوق إحدى هذه الروابي، المنظر المدهش لمعسكرنا، حيث كانت مجاميع الخيالة العرب فوق التل، وجوادنا المربوط هنا وهناك حول خيمنا

Twitter: @alqareah

والبغّالان يجلسان على الأرض منشغلين بتنظيف عدتنا وأسلحتنا، وكان لهيب النار الذي يخترق قماش إحدى الخيم ينبعث دخانه الأزرق الخفيف في عامود تعمل الريح على ثنيه. كم أحببت هذه الحياة البدوية تحت سماء كهذه، فيا ليتني أستطيع أن اصطحب الهياكل الذين أحبهم والذين تسف عليهم على وجه الأرض!

إن الأرض برمتها هي ملك للشعوب الرعاة الجوالة مثل عرب وادي الرافدين. وهناك من الشعر في نهار من نهاراتهم أكثر مما يوجد في سنوات كاملة من حياتنا في المدن. فعندما يتطلب المرء الكثير من الأشياء من الحياة المتمدنة يؤدي هذا إلى أن يستمر هو ذاته بالأرض، ولا يستطيع أن ينفصل عنها دون أن يفقد هذه الحاجات غير الضرورية الجديدة والتي جعلت منها العادة حاجات لازمة له، ومنازلنا هي سجون إرادية لنا.

أريد أن تكون الحياة رحلة لا نهاية لها كهذه، ولولا ما يشدني إلى أوروبا من علاقات مودة، لما فارقت هذه الحياة بكل ما سمحت لي بها قواي وثروتي.

كنا على تخوم قبائل إبراهيم Ephraim وبنجامين Benjamin وكان البئر الذي نصبت خيامنا بالقرب منه مايزال يُسمى بئر أيوب Job. غادرنا قبل طلوع النهار، وسرنا ساعتين في وادٍ ضيق، فاصل بحري، وهو معروف بما أحدثه العرب فيه من أعمال سلب ونهب، إنه المكان الأكثر عرضة في هذه النواحي إلى جولاتهم، إذ بمقدورهم أن يصلوا إليه عن طريق مجموعة من الوديان المعترضة الصغيرة المخبأة وراء ظهور الروابي غير المسكونة، ويمكنهم نصب الكمائن خلف الصخور والجنبات، ومن ثم الانقضاض فجأة على القوافل. ويسمى رئيس العشائر العربية في هذه الجبال أبو غوشة، وهو مفتاح هذه المعابر التي تقود إلى مدينة بيت المقدس، فهو يفتحها ويغلقها وفقاً لمشيئته، ويبتز المسافرين، وكنا نتوقع في كل لحظة ظهور فرسانه.

Twitter: @alqareah

لم نلتقِ بأحد منهم سوى واحد من الأغوات الشباب القريب من حاكم مدينة بيت المقدس، كان يمتطي مهرة في غاية الجمال، ويرافقه سبعة أو ثمانية من الخيالة. ألقى علينا التحية بأدب واصطف على الجانب مع حاشيته ليدعنا نمر دون أن يلمس جيادنا، أو ملابسنا.

وعلى مبعدة ساعة تقريباً من إرميا، أخذ الوادي يزداد ضيقاً، وقد غطى العرب الطريق بأغصانهم، كان هناك ينبوع قديم وبقايا كشك مهدم، فتسلقنا لمدة ساعة تقريباً ممراً وعراً وغير منتظم، محفوراً في الصخور وسط الغابات، وشاهدنا فجأة قرية، وفي أسفلها على سفح الرابية كنيسة إرميا.

تبدو الكنيسة التي أصبحت الآن مسجداً مبنية بسخاء في عهد مملكة مدينة بيت المقدس في ظل سلالة لوسينان (Lusigan)(*)، وتتألف القرية من أربعين أو خمسين منزلاً، واسعة نوعاً ما ومعلقة على المنحدرين اللذين يعانقان الوادي. وتكشف بعض أشجار التين المبعثرة وبعض حقول الكروم عن وجود شيء من الزراعة.

كنا نرى قطعاناً منتشرة حول المنازل، وعدداً من العرب الذين يرتدون معاطف رائعة، ويدخنون غلايينهم على شرفة المنزل الرئيسي، على مبعدة مائة خطوة من الطريق الذي كنا ننزل فيه، وثمة خمسة إلى عشرين جواداً مسرجة وملجمة مربوطة في فناء المنزل. وما إن لاحظنا العرب حتى نزلوا من الشرفة وامتطوا الجياد واقتربوا بخطوات وئيدة نحونا.

التقينا بهم في ساحة كبيرة غير مزروعة مقابل القرية وكان يظللها خمسة أو ستة من أشجار التين الجميلة، كان هذا هو أبو غوشة Abougosh الشهير وعائلته.

(*) أسرة فرنسية شاركت في الحروب الصليبية ومنها هوغ الثالث الذي حكم مدينة بيت المقدس بين 1284 - 1296.

Twitter: @alqareah

وفي الواقع كان أبو غوشة يهيمن على أربعين ألف شخص تقريباً من عرب جبال يهوذا من رام الله Ramlla حتى مدينة بيت المقدس، ومن الخليل Hebron حتى جبال أريحا Jericho. وإن هذه الهيمنة التي تدوم عبر الأجيال ليس لها من سند سوى قوته هو ذاته، فالقوة عند العرب لا تقاس بأصولها أو شرعيتها بل يجري الاعتراف بها والخضوع إليها طالما هي موجودة، وإن العائلة الأكثر إقداماً وعدداً وغنى وشجاعة من غيرها هي التي تصبح السيد هنا، وإن التأثير الأكبر على القبيلة يأتي تلقائياً عندما تكون محكومة على نحو أفضل، والقبيلة التي تظهر حذقاً وشجاعة أكبر عند الحرب هي التي تهيمن بلا منازع، وهذا هو الأصل في سيادة الرؤساء والعشائر المعترف بها في كل مكان في آسيا. إذ أن القوة تتشكل وتصان كما لو كانت شيئاً طبيعياً، فكل شيء يتفرع من العائلة، وما أن تعترف السلوكيات والعادات بهذا النفوذ وتعاينه، حينئذ لن يكون هناك من منازع وتصبح طاعة السيد وراثية ودينية. وينبغي وقوع حوادث عظيمة ومصائب خطيرة كي تسقط العائلة، وهكذا تدوم هذه النبالة الطوعية إن جاز التعبير لقرون عديدة ولا يمكن أن نفهم النظام الإقطاعي إلا بعد أن نزور هذه المناطق، ونرى كيف تكونت في العصر الوسيط جميع هذه العائلات وهذه القوى المحيطة التي كانت تحكم العصور والقرى والولايات وهي في الدرجة الأولى من الحضارة. فكما يتطور المجتمع، فإن هذه القوى الصغيرة تتسلح من قبل القوى الأكبر منها، حيث أن مجالس البلديات تولد لحماية حقوق المدن أمام الهيمنة المتعاظمة للسلالات الإقطاعية، وترقى الممالك الكبيرة فتلغي بدورها الامتيازات البلدية غير المجدية، ومن ثم تأتي المراحل الاجتماعية الأخرى ومظاهرها التي لا تحصى والتي ما زال جميعها غير معروف.

مدينة بيت المقدس

تركنا هذه الأطلال خلفنا وهي تتألق نوراً تحت أشعة الصباح

Twitter: @alqareah

العالية، فهذه الأشعة ليست ذائبة كما في أوروبا في شفافية مبهمة ومشوشة وفي سطوع متفجر وكوني، بل إنها تظهر من أعلى الجبال التي تحجب مدينة بيت المقدس عنا كأسهم نارية متعددة الألوان، مضمومة في المركز، ومشتتة في السماء كلما ابتعدنا عنها. وكان لون بعضها أزرق يميل إلى الفضي قليلاً، والبعض الآخر بلون أبيض كامد، وهذه بلون وردي ناعم مستضاء عند الأطراف، وتلك بلون ناري ملتهب وحارة مثل ألسنة الحريق. إنها أشعة منقسمة ولكنها متألقة بانسجام بفضل درجات لونها المتعاقبة، إنها تشبه قوس قزح لامعاً، تنكسر حلقته في قبة السماء وتتبعثر في الهواء - إنها المرة الثالثة التي تتجلى لنا فيها هذه الظاهرة الجميلة لشروق الشمس أو لغروبها منذ تواجدنا في المنطقة الجبلية للجليل أو ليهوذا.

إنه الفجر أو المساء كما تمثله رسامو العهود القديمة، والصورة التي تظهر مزيفة بعيون الذي لم يشهد واقعها، فكلما طلع النهار انخفض البريق المميز واللون اللازوردي أو الملتهب لكل من هذه الأمواج المضيئة، ويختلط في الضياء العام للجو - والفجر الذي كان معلقاً فوق رؤوسنا، وردياً وبلون النار، انحنى واتخذ لوناً صدفياً، وانغرس في قاع السماء مثل قرص من الفضة، يشحب لونه كلما انغمر في المياه العميقة.

وبعد أن تسلقنا جبلاً ثانياً أكثر ارتفاعاً وتجرداً من الأول، انفتح الأفق أمامنا فجأة من جهة اليمين، وتمكنا من رؤية الفضاء الذي يمتد بين آخر قمم جبال يهوذا حيث كنا والسلسلة العالية للجبال العربية Arabie. كان هذا الفضاء غارقاً عند ذاك في الضياء المتموج الضبابي للصباح، فبعد الروابي الدانية الواقعة أسفل أقدامنا والمكورة والمتكسرة في كتل من الصخور الرمادية المهروسة لا يمكن للعين أن ترى شيئاً سوى هذا الفضاء البراق والشبيه جداً ببحر واسع، حتى أن وهمنا كان تاماً، وظننا بأن ما نراه هو ذلك التواتر بين الظل الغامق والطبقات الكامدة الفضية التي

Twitter: @alqareah

يعمل شروق النهار على إضاءتها أو إطفائها فوق بحر هادئ على حواف هذا المحيط الخيالي.

وعلى يسار أفقنا بقليل ونحو فرسخ منا كانت الشمس تشع على برج مربع، وعلى منارة شاهقة، وعلى الأسوار العريضة، وعرفنا بأن تلك كانت مدينة، ولكننا لم نستطع أن نتبين منها إلا جزءها العلوي والذي كان يهبط على امتداد سفوح الروابي، ولم تكن هذه المدينة سوى مدينة بيت المقدس، وكنا نظن بأننا ما زلنا بعيدين عنها. وكان كل منا يستمتع صامتاً بهذه النظرة الأولى الملقاة خلسة على المدينة دون أن يجرؤ على الاستفسار عنها لدى الدليل خشية أن يتلاشى وهمنا، كان كل شيء يوحي لي باسم مدينة بيت المقدس إنها هي! تبرز بلونها الأصفر الغامق والكامد على خلفية السماء الزرقاء والخلفية السوداء لجبل الزيتون.

أوقفنا جيادنا لنتأملها وهي تتجلى لنا في هذه الرؤية العجيبة الباهرة، ثم أصبحت كل خطوة نسيرها ونحن نهبط في الوديان العميقة والمظلمة تحجبها عنا من جديد، وكانت ترتفع خلف هذه الأسوار العالية والقباب المنخفضة لمدينة بيت المقدس رابية في خطٍ ثانٍ أكثر ظلمة من تلك التي تحملها المدينة وتخفيها. كانت هذه الرابية تحف بالأفق وتنهيه أمامنا، وقد تركت الشمس السفح العربي لهذه الرابية في الظل بعد أن غمرت بأشعتها العامودية قمتها الشبيهة بقبة عريضة، وبدت وكأنها تُغرق هذه القمة الشفافة في الضياء ولم نعد نتبين الحد الغامض بين الأرض والسماء إلا بفضل عدد من الأشجار العريضة السوداء المزروعة فوق أعلى القمم، والتي كانت الشمس تمر بأشعتها من خلالها.

كان ذلك هو جبل الزيتون، وكانت تلك هي أشجار الزيتون، إنها الشهود القديمة على أيام خالدة انحفرت في الأرض والسماء، وارتوت من الدموع الربانية بالعرق وبالدم، وبالكثير من العرق والدموع الأخرى، بدءاً من تلك الليلة التي جعلت منها أشجاراً مقدسة. وكان بإمكاننا أن نميز على نحو مشوش عدداً من الأشجار

Twitter: @alqareah

الأخرى التي كانت تشكل بقعاً مظلمة على سفوح الجبل، ومن ثم هناك أسوار مدينة بيت المقدس التي كانت تحز الأفق وتحجب أسفل الجبل المقدس، وعلى مقربة منا وتحت أنظارنا تماماً لم يكن هناك سوى صحراء من الأحجار كانت تستخدم كجادة تقود إلى المدينة. وكانت هذه الأحجار الصحيحة والمنصهرة بلون رمادي موحد تمتد بلا انقطاع من المكان الذي كنا فيه حتى أبواب مدينة بيت المقدس.

كانت الروابي تعلو وتنخفض، وهناك وديان ضيقة تدور وتتموج بين جذور الروابي، وكانت بضعة وديان صغيرة تمتد هنا وهناك وكأنها تريد أن تخدع بصر الإنسان وتعده بوجود النباتات والحياة. بيد أن كل شيء هو من الحجر، الروابي، والوديان، والسهول، لم تكن سوى طبقة بسمك عشرة أو اثني عشر قدماً من الصخر المنصهر التي لم تترك بينها من فسحة إلا ما يكفي لمرور الزاحف، أو لكسر ساق الجمل إن هي انغرست فيها. وإذا ما تخيلنا أسواراً ضخمة من أحجار عظيمة كتلك التي في الكوليزيه او المسارح الرومانية الكبيرة فهي تنهار قطعة واحدة، وتغطي أجزاؤها الضخمة المتهشمة الأرض التي حملتها، وستكون لدينا فكرة دقيقة عن هذه الطبقة وعن طبقة الصخور التي تغطي هذه المعاقل الأخيرة لمدينة الصحراء. وكلما اقتربنا كلما احتدت الأشجار وارتفعت مثل سيل جارف أزلي متأهب لابتلاع من يمر به، وتغوص الخطوات الأخيرة التي نخطوها قبل اكتشافنا لمدينة بيت المقدس وسط جادة ساكنة وجنائزية داخل هذه الصخور التي ترتفع إلى عشرة أقدام فوق رأس المسافر، ولا تكشف إلا عن جزء من السماء التي فوقه. كنا في تلك الجادة الكئيبة، نسير منذ ربع ساعة، عندما انزاحت الصخور فجأة من جهتي اليسار واليمين، ووضعتنا وجهاً لوجه أمام أسوار مدينة بيت المقدس، والتي لامسناها دون أن نعي ذلك حيث انبسط فضاء من بضعة مئات من الخطوات بين بيت لحم وبيننا ذكرنا بالمدن المحصنة في أوروبا، وحزين مثلها، وينفتح على جهة اليمين وينحفر في وادٍ ضيق صغير، يهبط في

Twitter: @alqareah

منحدر بطيء. وعلى جهة اليسار هناك خمسة من جذوع أشجار الزيتون نصف ممدودة تحت ثقل الزمن والشموس، إنها أشجار يمكن أن نقول بأنها متحجرة على غرار الحقول الجدباء التي انشقت منها بصعوبة.

إن بوابة بيت لحم التي يشرف عليها برجان متوجان بفتحات قوطية صامته مثل أبواب القصور المهجورة كانت مفتوحة أمامنا. فبقينا بلا حراك لبضع دقائق ونحن نتأملها، وكنا نتحرق شوقاً لاجتيازها، ولكن وباء الطاعون كان في أشده في مدينة بيت المقدس، إذ استقبلونا في دير يوحنا المعمدان الواقع في الصحراء، بعد أن أعطينا وعداً قاطعاً بعدم دخول المدينة.

وكان الحقل محاطاً بجدار صغير من الحجر، وخالياً من الإسمنت، وثمة تمثال من أشجار الزيتون التي تبعد عن بعضها ثلاثين أو أربعين خطوة، وتظلّله تماماً. وهذه الأشجار هي بمصاف أضخم أشجار الزيتون التي شاهدتها عيني إلى الآن، ويُحكى أن عمرها يعود إلى التاريخ الذي لا ينسى لاحتضار الإنسان ـ الرب الذي اختارها كي يخفي فيها هواجسه السماوية. وتعزز هيئتها بالتقليد الذي يبجلها، فجذورها الضخمة ونموها الدنيوي عملاً على تحريك التربة والحجر اللذين يغطيانها، وقد ارتفعت عدة أقدام فوق مستوى الأرض لتقدم إلى الحاج مقاعد طبيعية، حيث يمكنه الركوع أو الجلوس عليها ليلملم الأفكار المقدسة التي تهبط من قممها الصامتة. ويعلو جذع معقد ومحزز ومحفور بالشيخوخة كما حفرته التجاعيد العميقة، مثل عامود واسع، فوق مجاميع الجذور، وانحنى كما لو أثقله الزمن إلى اليمين أو إلى اليسار، تاركاً أغصانه المتشابكة متدلية، هذه الأغصان التي شذبت مائة مرة كي يعاد إليها شبابها. وكانت هذه الأغصان الشائخة التي تنحني على جذوعها تحمل أغصاناً أخرى أكثر شباباً، وترتفع نحو السماء قليلاً، وتنطلق منها بعض الأغصان لها من العمر عام أو عامان، ومتوجة بباقات من الأوراق، وقد سودتها ثمار الزيتون الأزرق الصغير الساقطة مثل رفات سماوي على أقدام الرحالة المسيحي.

Twitter: @alqareah

ابتعدت عن القافلة التي بقيت حول ضريح العذراء، وجلست لحظة على جذور أكثر هذه الأشجار عزلة وقدماً، كان ظلها يحجب عني أسوار مدينة بيت المقدس وجذعها العريض يخفيني عن أنظار الرعاة الذين كانوا يرعون النعاج السود على سفح جبل الزيتون.

ولم يكن أمامي سوى وادي قدرون العميق، وذرى بعض أشجار الزيتون الأخرى التي تغطي في هذا المكان وادي جهنم كله. ولم يكن يصدر عن قاع السيل الجاف أي صوت، وليس هناك من ورقة ترتجف على الشجرة.

أغمضت عيني لحظات، وعدت بأفكاري إلى تلك الليلة التي سبقت خلاص البشرية، حيث شرب الرسول السماوي كأس الاحتضار حتى النحول، قبل أن يلقى الموت على يدي البشر ثمناً لرسالته السماوية.

طلبت حصتي من هذا الخلاص الذي أتى به إلى العالم مقابل هذا الثمن الباهظ، وتمثلت محيط الهواجس الذي لابدَّ أنه غمر قلب ابن البشر، عندما تأمل بنظره مرة واحدة كل الشقاء وكل الممات وكل المرارة وكل التفاهات وكل ما في مصير الإنسان من تعسف. وعندما أراد أن يرفع وحده هذه الوزر من الجرائم والشقاء التي ترزح تحتها الإنسانية منحنية باكية في وادي الدموع الضيق، عندما أدرك بأنه لم يكن في الإمكان الوصول إلى حقيقة، أو إلى مواساة للإنسان، إلا بعد تقديم حياته ثمناً لذلك، وعندما تراجع خائفاً أمام ظل الموت الذي شعر به وقد داهمه، فقال لأبيه:

(أبعد عني هذا الكأس!)

إذن فأنا الإنسان الشقي والجاهل الضعيف بإمكاني أن أصبح كذلك، فلتبعدني عن كل كؤوس المرارة هذه ياربي، ولتسكبها في هذا الكأس الذي شُرب سلفاً نيابة عنا جميعاً: فقد كانت له الشجاعة لشربه حتى الثمالة ـ فهو كان يعرفك، وقد رآك، وكان يعلم لماذا سيقدم على شربه، وأية حياة أبدية كانت تنتظره في قاع ضريحه

Twitter: @alqareah

ذي الأيام الثلاثة ـ أما أنا، يا ربي فما الذي أعلمه سوى العذاب الذي يحطم قلبي، والأمل الذي تعلمته منه؟ نهضت وكلي إعجاب بهذا المكان الذي قدر له الله واختاره للمشهد الأكثر إيلاماً في عذابات الإنسان ـ الرب.

لقد كان وادياً ضيقاً، منخفضاً، عميقاً، مغلقاً من جهة الشمال بمرتفعات مظلمة وعارية، ويحمل أضرحة ملوك، ومظلّلاً من جهة الغرب بظل الأسوار الحالكة الضخمة لمدينة الجور، ومغطى من جهة الشرق بقمة جبل الزيتون Oliviers الذي يخترقه سيل يدور بأمواجه المريرة المصفرّة على الصخور المحطمة لوادي جهنم. على بعد بضع خطوات من هناك ثمة صخرة سوداء وعارية تبرز، كانت تحمل بعض الأضرحة القديمة لملوك وبطارقة منحوتة بأشكال معمارية ضخمة وغريبة، وكانت تثب مثل جسر الموت على وادي المراثي.

في ذلك الوقت، كانت سفوح جبل الزيتون وهي نصف عارية اليوم، مروية بلا ريب بمياه الأحواض والسيول التي ماتزال تجري في قدرون. وكانت حدائق أشجار الرمان أو البرتقال والزيتون تغطي بظل سميك وادي جسماني Gethsemani، الذي ينحفر مثل عش الألم في العمق الأكثر ضيقاً وعتمة، في ظل يهوشافاط Jasaphat.

إذ بإمكان رجل العار، رجل الألم أن يختبئ فيه مثل مجرم بين جذور بعض الأشجار، بين صخور السيل، وتحت الظلال الثلاثية للمدينة، والجبل والليل. وكان بإمكانه أن يسمع من هناك الخطوات الخفيفة لأمه ولأتباعه الذين كانوا يمرون على الطريق، حيث كانت الأم تبحث عن ولدها والأتباع عن معلمهم. وكانت الأصوات المهمهمة والصيحات الحمقاء للمدينة تعلو فوق رأسه مبتهجة بانتصارها على الحقيقة ونبذها للعدالة! وكان نواح قدرون يدور بأمواجه تحت أقدامه، وقد شهد سريعاً مدينته وقد انقلبت، وآبارها جفت تحت أطلال أمة مذنبة وعمياء. هل كان بإمكان المسيح أن يختار على نحو أفضل موضع دموعه؟

Twitter: @alqareah

هل كان بمقدوره أن يسقي بعرق الدم أرضاً منكوبة بالشقاء، ومروية بالحزن ومبللة بالمرارة أكثر من هذه؟

امتطيت جوادي وأنا أدير في كل لحظة رأسي لأرى شيئاً آخر غير الوادي والمدينة، وتسلقت بأقل من ربع ساعة جبل الزيتون، فكانت كل خطوة يخطوها جوادي على الدرب الصاعد إلى الجبل تكشف لي عن حي من الأحياء، وصرح آخر غير مدينة بيت المقدس. ووصلت إلى قمة متوجة بمسجد مهدم يغطي الساحة التي صعد منها المسيح إلى السماء بعد البعث. وانعطفت قليلاً إلى اليمين من هذا المسجد لأصل قرب عامودين محطمين ممدودين على الأرض، أسفل أشجار الزيتون على هضبة كانت تواجه وفي آن معاً مدينة بيت المقدس وصهيون ووديان مار سابا التي كانت تقود إلى البحر الميت. كما أن البحر الميت ذاته كان يلمع هناك بين قمم الجبال والأفق الواسع المحزز بالذرى المتنوعة التي تنتهي عند الجبال العربية. جلست هناك، وكان ما رأيته التالي:

كان جبل الزيتون الذي كنت أجلس على قمته يهبط في منحدر مفاجئ وسريع حتى الهاوية العميقة التي تفصله عن مدينة بيت المقدس، والتي تسمى وادي جهنم. ومن أعماق هذا الوادي المظلم الضيق ذي السفوح العارية المبرقشة بالأحجار السود والبيض، أحجار الموت الجنائزية والتي كانت السفوح مبلطة بها في كل مكان تقريباً، ترتفع رابية واسعة وعريضة يشبه انحدارها السريع سوراً عالياً مهدماً. ولم يكن بمقدور أية شجرة أن تمد جذورها في هذا المكان، ولا أي طحلب أن يعلق خيوطه عليها. كان المنحدر من الوعورة بمكان جعلت التربة والأحجار تتدحرج عليه بلا انقطاع، ولم تكن العين ترى عليه سوى سطح من التربة الوعرة المتيبسة، فكان شبيهاً بأكوام من الرماد المرمية من أعلى المدينة. وعند وسط هذه الرابية أو هذا السور الطبيعي، ومن أعلى الأسوار المحصنة انبعثت أحجار عريضة غير منحوتة عند وجهها الخارجي، وهي تخفي أسسها الرومانية والعبرانية تحت هذا الرماد ذاته الذي يغطي

Twitter: @alqareah

أقدامها، والذي يرتفع هنا على علو خمسين أو مائة قدم، وفي موضع أبعد كان يرتفع إلى مائتين أو ثلاث مائة قدم فوق هذه القاعدة الأرضية. وتقطع أسوار المدينة ثلاثة أبواب، اثنان منها مخفيان، وبدت البوابة الوحيدة المفتوحة أمامنا خالية ومهجورة كما لو كانت باباً لمدينة غير مسكونة. كانت الأسوار التي ترتفع فوق هذه الأبواب ترفع سطحاً واسعاً وعريضاً يمتد على ثلثي طول مدينة بيت المقدس من جهة النظر إلى الشرق، ويقدر النظر طول هذا السطح بألف قدم وعرضه بستمائة قدم. ولهذا السطح مستوى تام تقريباً، إلا أنه يصبح عند المركز مجوفاً على نحو غير محسوس، وكأنه يذكرنا بالوادي قليل العمق الذي كان يفصل في الماضي رابية صهيون عن مدينة بيت المقدس. وكان هذا السطح الرائع الذي أعدته الطبيعة هو بلا ريب قد أنجزته يد الإنسان كما هو واضح، وهو بمثابة القاعدة المهيبة التي يرتقي عليها معبد سليمان، وهي تحمل اليوم مسجدين مسلمين تركيين الأول هو الصخرة El - Sakara الواقع في مركز الهضبة، وعلى الموضع ذاته الذي يُقال إن المعبد ينبسط عليه، ويقع الآخر على الطرف الجنوبي الشرقي من السطح ويلامس أسوار المدينة.

مسجد عمر

إن مسجد عمر أو الصخرة هو عبارة عن صرح رائع بعمارته العربية، فهو كتلة من الحجر والرخام لها أبعاد شاسعة من ثمانية جدران، وكان كل جدار مزيناً بسبعة أقواس، ينتهي كل منها بقوس قوطي، وفوق هذا الشكل المعماري هناك سطح على شكل شرفة، ينطلق منه صف آخر من الأقواس أقل عرضاً، ينتهي بقبة أنيقة مغطاة بالنحاس كانت مذهبة في السابق. وكانت جدران المسجد مكسوة بالمينا الزرقاء، وعلى اليمين واليسار تمتد الحواجز العريضة التي تنتهي بأعمدة موريسكية ضئيلة تتوافق مع الأبواب الثمانية للمسجد. وما عدا هذه الأقواس المنفصلة عن كل الصروح

Twitter: @alqareah

الأخرى تتواصل السطوح وتنتهي إحداها عند الجزء الشمالي للمدينة، وبينما ينتهي الآخر عند الجانب الجنوبي، وتنمو هنا وهناك بين المسجد أشجار سرو عالية مبعثرة، وبعض من أشجار الزيتون والجنات الخضر الرشيقة، فيبرز جمال العمارة واللون المتألق للأسوار بأشكالها الهرمية وخضرتها الغامقة المرتسمة على واجهات المعابد، وقباب المدينة.

ومن وراء هذين المسجدين وموضع المعبد، تنبسط مدينة بيت المقدس برمتها، وتنحبس إن جاز لي التعبير، أمامنا دون أن يفوت النظر رؤية سقف أو حجرة، كما لو كانت خريطة مجسمة لمدينة بسطها فنان على المائدة.

لم تكن هذه المدينة كما صوروها لنا، كومة بلا شكل، وأطلالاً مهدمة، ورماداً ألقيت عليه بعض أكواخ العرب، أو نصبت عليه بعض خيام البدو. ولم تكن مثل أثينا سديماً من غبار وأسواراً مهدمة، حيث يبحث الرحالة فيها عن ظل للصروح، وأثر شوارع، ورؤية لمدينة، بل كانت مدينة تشع بالضياء والأنوار، تعرض على نحو مهيب أسوارها السليمة المبنية، ومسجدها الأزرق بأعمدته البيض، وهناك آلاف من قبابها الرائعة التي يسقط عليها ضياء الشمس الخريفية، وتنبثق في حنان يبهر العيون. كانت واجهات منازلها قد لوحها الزمن والشمس بلون أصفر ذهبي، كما هي صروح باستوم (paestum)(*) وروما، وأبراجها القديمة كانت حارسة لأسوارها التي لم يكن ينقصها حجر أو متراس أو كوة رمي.

وأخيراً هنالك وسط هذا المحيط من المنازل وهذا السرب من القبب التي تغطيها قبة سوداء منخفضة، أكثر اتساعاً من الأخريات، تهيمن عليها قبة بيضاء أخرى، إنه قبر السيد المسيح، وموضع الصلب، وقد امتزجنا أو لنقل غرقنا هناك في دهليز القبب الشامخة

(*) مدينة إيطالية قديمة (80 كم) في جنوب نابولي، تُعرف المدينة اليوم بمعابدها الثلاثة التي بقيت قائمة منذ العصور القديمة.

Twitter: @alqareah

والصروح والشوارع المحيطة بها. وإنه لمن الصعب أن نتبين على هذا النحو موضع الصلب، وموضع القبر، واللذين ينبغي طبقاً لما يذكر الإنجيل، أن يكونا موجودين على رابية منعزلة خارج الجدران، وليس في مركز مدينة بيت المقدس.

لقد ضاقت المدينة من جهة جبل صهيون، وقد تم توسيعها بلا ريب من جهة الشمال لتعانق في نطاقها الموقعين اللذين صنعا عارها ومهدها، وهما موضع تعذيب الصادق Juste وموضع بعث الإنسان - الرب.

كنا نجلس كل نهار أمام الأبواب الرئيسية لمدينة بيت المقدس ونطوف حول الأسوار مارين أمام جميع أبواب المدينة الأخرى، فلم يكن يدخلها أو يخرج أحد منها، فلا متسول يجلس عند حدها، ولا حارس يظهر على عتبتها. ولم نكن نرى ونسمع شيئاً، فالفراغ هو ذاته، والصمت هو ذاته طوال ساعات النهار عند مدخل المدينة التي يسكنها ثلاثون ألف نسمة. وعندما كنا نمر أمام الأبواب الاثني عشر، كنا كمن يمر أمام الأبواب المتينة لبومبي أو هيركولاتوم!

ولم نرَ سوى أربعة مواكب جنائزية تخرج صامته من باب دمشق، وتتجه على امتداد الأسوار نحو المقابر التركية. وشاهدنا عند مرورنا أمام باب صهيون مسيحياً فقير الحال مات بالطاعون في هذا الصباح، وقد حمله أربعة من حفاري القبور إلى مقبرة الإغريق. مروا قربنا ومددوا جثة الميت على الأرض، وقد لفت ثيابه، وشرعوا بحفر مرقده الأخير بصمت عند أقدام جيادنا.

كانت الأرض حول المدينة قد قلبت حديثاً بسبب قبور شبيهة بهذه، وكان الطاعون يضاعف من عددها كل يوم، وكان الصوت الوحيد المسموع خارج أسوار مدينة بيت المقدس هو النحيب الرتيب للنساء التركيات وهن يبكين موتاهن. ولم أكن أعلم أن الطاعون هو السبب الوحيد لهذا العواء في الشوارع، ولهذا الصمت العميق الذي يلف مدينة بيت المقدس. ولم أكن أظن ذلك، لأن العرب والأتراك لا

Twitter: @alqareah

يستسلمون لمصائب الله، لقناعتهم بأن الإنسان لن يفلت من مصيره أينما كان، وليس هناك من طريق تنأى بهم عنها ـ إنه لتفكير رائع، ولكن يا ترى من الذي يؤدي بهم إلى النتائج الوخيمة!

على جهة اليسار من السطح والمعبد وأسوار مدينة بيت المقدس، تنخسف الرابية التي تحمل المدينة فجأة، وتتسع، وتتحول أمام الناظرين منحدرات خفيفة تسندها هنا وهناك بعض الشرفات من الأحجار المكورة.

تحمل هذه الرابية عند قمتها أو على مبعدة مائة قدم من مدينة بيت المقدس، مسجداً ومجموعة من الصروح التركية التي تشبه إلى حد ما ضيعة صغيرة في أوروبا، متوجة بكنيستها وناقوسها.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الكونتيسة دو غاسبران

يوميات رحلة إلى بلاد المشرق

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الكونتيسة دو غاسبران

مذكرات بابل المسيحية

ولدت الكونتيسة فاليري بواسيه في العام 1813 وتوفيت في العام 1894.

تنتمي إلى عائلة عريقة، تزوجت من إغنور دو غاسبران (1810 - 1871) الذي كان يمثل النبالة البروتستانتية في جنوب فرنسا، وهو حفيد أحد أنصار الجمعية التأسيسية، وابن نائب صار محافظاً، ثم وزيراً مع لويس فيليب.

نشرت دو غاسبران في العام 1843 كتابها الأول الذي كان يدور حول الزواج من وجهة النظر المسيحية، وكان بمثابة تأملات أولى حول الزواج المثالي. وقد غادرت دو غاسبران تريست في الخامس من تشرين الأول في العام 1847، ووصلت إلى اليونان وبقيت هناك حتى نهاية تشرين الثاني. ووصلت إلى مصر بداية كانون الأول ثم سلكت الطريق التقليدي من القاهرة صعوداً من نهر النيل حتى دندور في كانون الثاني 1848. وعند منتصف شهر آذار اجتازت صحراء سيناء حتى القدس، وبقيت فيها أثناء الأسبوع المقدس، ولكنها اضطرت لأسباب عائلية للعودة إلى بيروت دون أن تزور دمشق أو بعلبك.

لقد ظهرت رحلة دو غاسبران في العام 1848، وأعيدت طباعتها في العام 1850. وبعد خمسة عشر عاماً أوحت لها الرحلة إلى

Twitter: @alqareah

القسطنطينية كتاباً جديداً، مليئاً بالجاذبية التلقائية، وطرحت للمرة الأولى مشكلة حياة المرأة في الشرق. لقد كانت كتابات دو غاسبران تجسيداً للطابع الأخلاقي الاجتماعي والديني، وكانت تجسيداً للفكر البروتستاني الليبرالي في ظل الإمبراطورية الثانية.

كانت غاسبران تفرض على طاقم الرحلة المرافق لها في نهر النيل التقيد بالراحة الأسبوعية، وكانت تقوم بتوزيع الإنجيل على البدو، وكانت كتاباتها تتصف بشكل عام بالحيوية والحساسية والورع المخلص الخالي من التزمت، والكثير من الانجذاب نحو جميع أشكال الحياة. وقد كتب برشيه عن رحلتها بأنها مكتوبة بأسلوب مملوء بالسعادة والهوى وجموح الطبع الحازم والذكاء المتوقد، ووصف موهبتها بأنها ليست خلاقة فحسب، بل إنها حدسية على نحو عجيب وتكهنية وثاقبة، وإنها موهبة لا تبتدع إنما تعيد إنتاج الواقع بأمانة لاذعة.

Twitter: @alqareah

في القبر المقدس

عدنا من القبر المقدس، ولم يسبق لي أن رأيت شيئاً يشبه هذا الأمر على الإطلاق.

- مولاي إن قبرك لا يمكن له أن يكون في هذا المكان المدنس، في هذا المكان الذي يشبه معرضاً للأوطان، حيث يجتاح الحشد الضاج وشبه الداعر بأمواجه كل ساحات القبر، هذا الحشد الذي تعلق في جميع الأروقة، وفي جميع الطوابق وهو يغني ويصيح، فيهز صدى صرخاته الوحشية سقوف القبر! إن ما شاهدته عيني بوصفه لوحة كان لها لون وجمال لم تبلغه ريشة فنان أبداً، أما بوصفه عبادة فكان مرعباً.

الدخول إلى القبر المقدس

دخلنا محمولين بوساطة حشد الحجيج، كان الجنود الأتراك يحرسون المنافذ ويحافظون على بعض الممرات بفضل ضربات العصي العنيفة. استحوذ علينا اثنان من الحراس المسلمين وأفسحوا لنا المكان. كانوا يحملون العصي بأيديهم، وعند المدخل إلى القبر تجلى لنا حجر المروخ، ذلك الحجر الذي وضعوا عليه جسد الرب، وكان الجميع يسجدون أمامه ويرسمون علامة الصليب.

ومنذ تلك اللحظة أصبح من المستحيل التفكير بقبر المسيح إلا ونحن نحمد الرب لأنه قام بانتزاعه من البشر، فكان المصلى حاشداً

Twitter: @alqareah

بالمصلين، وفي كل الأروقة أو بالأحرى في جميع المقصورات كانت ثمة نساء متلفعات بالأوشحة البيض، وجباههن مثقلة بقطع الفضة، وأذرعهن مغطاة بالأساور، وأعناقهن مزينة بسلاسل الذهب. يتجمعن جالسات أو ممددات يحتضن الأعمدة بأيديهن، وكن يقضين الليل هناك.

من بين وجوه تلك النسوة وجوه بغاية النقاء، وكان بينهن من أحاطت وجهها بقطعة من قماش الكتان الأزرق الشبيه بتلك التي كان كارلو دو ليجيه يرمي بها على جبين العذراء في لوحاته.

كان ذلك الشعب يموج بأكمله ويقهقه بأعلى صوته، ويصفق بيديه، ويأكل ويشرب ويقفز، وكان الراهب اللاتيني يتلو القداس أمام مصلى القبر المقدس، وكان الجنود الأتراك يقومون بحراسته بضربات الكرباج. وكان الباشا المتزمت يمقت من أعماقه المسيحيين، وهو جالس إلى جانب البطريرك اللاتيني ويزم شفتيه المشمئزتين المحاطتين بلحيته السوداء.

اجتزنا الكنيسة بسرعة محشورين ومداسين ومحمولين بالموج البشري، رأينا الجلجلة وقبر آدم وشق الصخرة والمكان الذي نادى منه يسوع على مريم. وبينما كان الرهبان اللاتين يطفئون شموعهم ويحملون شمعداناتهم، سمحوا لنا بالتسلل إلى قبر المسيح. توقفنا أمام كتلة من الرخام، كان هنالك اثنان من الرهبان الكبوشيين ينظفون أدوات المطبخ، فرمينا على كتلة الرخام حزمة من الشموع وقطع قماش للتنشيف فلعلها تفيد في شيء؟

كان ذلك قبر المسيح!

آه لو كنت أصدق ذلك، لو كان بإمكاني تصديق ذلك لذاب قلبي ألماً.

ولكن يا له من معبد!

وهذه الصفوف الثلاثة أو الأربعة من الشرفات المحملة بالنساء

Twitter: @alqareah

والأطفال، وهذا الشعب من العرب والأرمن والأقباط واللاتين والإغريق، وهذه الأقمشة الباذخة، وهذه المنمنمات من الكشمير، وهذه الرؤوس المغطاة بالشعر المموج، وهؤلاء الشرقيون المتنوعون للغاية والذين يتسمون جميعهم بجمال أخاذ، وهذه الحيوية، وهذا الإسراف في الأشكال والهيئات، فيا له من منظر!

الضجة

تعالت من قبب الكنيسة ضجة لا توصف، فكان هنالك صياح وأناشيد واهتزاز أمواج شعب سكران، كانت الأروقة تحمل حتى قببها صفوفاً ثلاثية من النساء ذوات البشرة البيضاء والبشرة البرونزية، والمكسوات بحلي من الفضة والذهب. لقد كانت كل حافة وكل خيط بارز من الممر وكل التيجان وأعمدتها مخبأة تحت كساء بشري، وفي الأسفل هناك بلاط من الرؤوس المضطربة والمعذبة وأذرع محمومة، وعلى هذه الرؤوس المحمولة على هذه الأذرع وجوه رجال أصابها الجنون بشكل أهرامات بشرية، وهي تصرخ:

عاشت ماريا عاشت ماريا

Viva nostra Maaria! Viva nostra Maaria

كان هذا الصخب المهتز والمتكرر ألف مرة، وعشرة آلاف من المرات يشق الهواء، كانت تلك العيون مضاءة وشبه دامية، وتبدو تلك الأفواه بل تلك الأشداق وكأنها لجج.

كان هنالك ثلاثة رجال لن أنساهم أبداً ـ الأول يناهز الخمسين عاماً يرتدي زياً مبتذلاً، وقد انتزعت عمامته وحلق رأسه حتى القمة، ومن القمة يتدلى شعره الأسود الطويل حتى الكتف وتضرب الجدائل وجهه، ويهتاج كالممسوس. وقد صعد على الجمهور وتلوى على البلاط الحي وأزبد وصاح ولوح بذراعيه الموشومتين، وكان الآخر يلبس زياً على النظام الديني، كانت له نظرات متوحشة، وخدان شاحبان، وملامح باردة، وجبين من مرمر بحزوز واسعة، وشعر

Twitter: @alqareah

مجعد منكوش، وقد بقي ساكناً مستنداً إلى القبر، ومن ثم استولى الهيجان عليه فوثب وارتد الجميع، عندها أطلق ضحكة مخيفة، وصفق بيديه القويتين، ثم رفع من كانوا أكثر قوة منه وأرجحهم في الهواء ورمى بهم وسط الزوبعة. وبدا الثالث كما لو كان تجسيداً للعربدة المرحة والمبتذلة، فقد كان سميناً أبيض مورداً، ارتدى ثوباً مخططاً يكشف عن ساقين وذراعين عاريتين، ولا يغطيهما إلا بالكاد، ولم يكن على وجهه سوى مكان لضحكة وقحة. وقد كان يوسخ بمعانقاته كل من يلتقي به، ثم سارع بالمشاركة في كل الشجارات، فكانوا يدفعونه تارة ويهزونه تارة أخرى، وصار لعبة للحشد الذي كان مع ذلك مرتعباً منه.

كان هؤلاء الثلاثة يبرزون على هذه اللوحة التي كانت خلفيتها تتكون من وجوه مجنونة ومكشرة كتلك التي نراها في الكوابيس.

من وقت لآخر كنا نسمع دوي ضربة يد، إنها رجة كهربائية، فترتفع الأذرع، وكذلك الخفاف، فينشق المحيط وينقسم، وتهرع الموجتان الواحدة نحو الأخرى ويسيل الدم، فقد وصل الأتراك المسلحون بالكرباج وهم يضربون يمنة ويسرة، فينتزعون المسابح ويستخدمونها كالسوط، فيرمون بها في الهواء، ولكن حتى وهم في فجاجتهم تلك، كان هنالك نوع من الاعتدال الناجم عن احتقار عميق. ومما كان يفضح هذا الاحتقار أيضاً الابتسامة الغامضة التي كانت تسرح إلى شفاههم، فقد كانوا يشعرون بأنهم وحدهم الرجال الأصحاء وسط مستشفى المعتوهين هذا.

ليست لدي من كلمات. كلا لا أملك منها ما أستطيع أن أصف به ما رأيته، إنه حوش المعجزات، وهؤلاء المشردون في كنيسة القبر المقدس التي يتوسطها ضريح المسيح.

كنت أحب الحيوانات سابقاً أما الآن فإني أحترمها، ولعلنا لن نجد خمساً من القطط في الخليقة قادرة على أن تنحط بنفسها كما ينحط البشر.

Twitter: @alqareah

البشر! آه البشر يا لهم من مخيفين، كم يستحقون الرثاء، يا لهم من مكائن معطوبة، ومع أنها معطوبة إلا أنها تزداد سحقاً لما حولها؟ - وكأن ما نراه فرقعات وأزيز حريق - فلم تعد هنالك بعد من روح، ولم يعد هنالك من قلب، ولم يعد هنالك من ذكاء، ولم يعد هنالك من حواس خمسة للطبيعة - كما يقول سانشو - فليس هنالك سوى أجناس من البشر الفظّين الحانقين المدفوعين هنا وهناك بقوة الأشياء العمياء.

كنت أخال رؤية الشيطان وهو يفرك يديه خلف إحدى هذه الأعمدة، في حين كان الرجال ضحايا حقده الأبدي، يسكرون من كأس دنسه باسم المسيح، وفي كنيسة المسيح، في الوقت الذي يضطجع فيه المسيح في ضريحه.

الدراويش

الدراويش المولولون إذا ما قارناهم بالمسيحيين اليوم هم أناس عاقلون، فهنالك رئيس يقودهم ويتبع حماسهم المسعور، وبغير علم منهم لهم قواعد متناغمة. إن جنون الكرنفال الإيطالي هو جنون أناس بمقدورهم استرجاع زمام الأمور، أما هنا فإننا لا نجد سوى حيوانية شرسة، إنها أعياد فجور كتلك التي كان يشهدها الأقدمون.

اشتدت الصرخات ولوحت النساء بأوشحتهن، وشق الباشا مرتين أو ثلاثاً هذه الكتلة الحية، فهناك تموجات جبارة لا تقاوم، وتدعك آلاف من الكائنات البشرية التي تحملها وتعيدها، وهناك دوماً وجه ما متوحش وقد انقلب واستوى وابتلع، وفي الدرجة الأخيرة من التيه. وهنالك في بعض المرات ثلاثة أو أربعة من هذه الوجوه تظهر متعانقة، وتقفز على الرؤوس، وتنطمس ويتصاعد الزعيق كما لو كانت قذائف من الزبد، انبعثت من حول الصخور، وسقطت في البحر. فهنالك قفزات عملاقة نحو الثقب الأسود، حيث يخرج اللهب، وتعلق بها اثنان من الحجيج حاسري الرأس، وكان

Twitter: @alqareah

شعرهما منكوشاً بأذرعهما التي انتفخت عضلاتها، وهونت العاصفة عليهما، وأدارا إليها وجهيهما الرهيبين، وتصلبا معرضين أنفسهما للتمزق غير آبهين بها، ومن ثم تداعت الموجة النزقة كالغبار عند أدنى عارضة، وغشي عليها، أو اتجهت نحو مكان آخر.

كان الأثر عجيباً: رؤوس عارية ورؤوس محاطة بالعمائم أو مغطاة بمنديل دمشقي غامق الألوان، وهنالك أثواب أرجوانية صفر وذهبية وأسمال ماتزال محتفظة بروعة ألوانها، وأوضاع بهية، جميل هذا كله! إنه جمال جهنم ميكائيل آنجلو!

كان الجنود المسلمون يشقون بضربات كرباجهم وبالمسابح ممراً وسط المجانين، ويحافظون عليه بوساطة حبل للقطعان. هرع الحجيج إلى البيارق المقدسة، وأمسكوا بها ملوحين، وها هو رجل الإغريق يأتي بعدهم، ورجل الدين الأرمني، والقبطي، ورهبان، وأعيان، وبطارقة يرتدون الساتان الأبيض والذهبي، ولهم لحى بيض وقورة، ويحفظون عيونهم بورع، فكان منهم من يحمل عكازاً، ومنهم من يحمل مبخرة أو شمعة متقدة بشرارة سماوية. فكانوا يرتلون بخطى وئيدة، وتضاعفت الصرخات والقفزات والأهرامات البشرية والتصفيق بالأيدي والقرفصات، فقد كان سان جون، وسان بيير، والرب وأمه والقديسون مرسومين على البيارق، ويتجولون وسط فضيحة هذه الحفلة التنكرية.

آه كم كان الشيطان سيضحك من هذا، وقد أعلن هؤلاء الكهنة ورجال الدين هذا عن أنفسهم حكاماً وحيدين على النفوس، وقد أجازوا هنا أمام قبر المسيح وباسم المسيح القيام بأكثر الأعمال الجنونية فظاظة، فليأتوا الآن، فليأت الأرمن، والأقباط، واللاتين الذين كانوا يشتركون في هذا التقديس قبل أن يحرمهم الإغريق من إقامة الطقوس. فليأتوا ويتحدثوا عن الأبهة الروحانية لعبادتهم، فليأتوا ليصبوا اللعنة على هؤلاء التوراتيين الذين يسممون الشعب بمنحه كلام الله!

Twitter: @alqareah

ستصيح أحجار القبر المقدس عندما تستدعي الحاجة.

طاف الموكب ثلاث مرات حول الموقع الأثري، وثمة جنود يسيرون قبله وبعده، ويضربون المؤمنين بالعصي، ويدفعون البطريرك وقساوسته من أكتافهم، حتى دخل الأعيان إلى الحرم.

انحسر بحر الجموع إلى النافذة، وانبثق نور من الثقب الأسود، وجعل الصخب عقود السقف ترتج، وكانت آلاف من الأذرع المسلحة بالشموع تمتد وتتقاطع وتواصل الحماس من فرد إلى فرد. وانطفأ النهار تحت هذا اللهب الذي زحف من شمعة إلى أخرى حتى وصل الأروقة العالية، وأزاح ضياء جهنمي أصفر الشمس، وتوقف بخار أسود وتعلق فوق القبر، وعند ذاك لوح المجانين بالنار بيد، وعانقت اليد الأخرى أياد أخرى، وبدؤوا رقصاً مسعوراً، وطارت كل العمائم في الهواء، وحركت الرؤوس المحلوقة على النصف خصلها السود، وانقلب وانساب العرق على امتداد الوجوه، وكشفت الأثواب عن صدور عارية، واصطدمت سيول الأصوات ببعضها، وهزت ألسنة اللهب ضياءها على هذه المجاميع المتشنجة، وانتزع أحدهم الشموع الحارقة وطاف بالنار على جسده وخبأها في صدره، ومررها على وجهه وغمسها في فمه، فأصبح الرقص بشعاً بجسارته.

كان رجال الدين الثلاث الإغريقي والقبطي والأرمني والبطارقة على رأسهم، قد بسطوا البيارق وحملوا المباخر بأيديهم، وهم يرتلون الصلوات معلنين مرة أخرى إقرارهم لهذه الهلوسة الشائنة.

صوب بحيرة طبريا

كان السهل مزروعاً برمته ما خلا بعض انقطاعات عند تخومه وفي وسطه، إذ كان يغذي بيسر شعباً يتضاعف بكثرة والذي كان يمده بقوته الإخصابية.

يُقال إن الكثرة العجيبة لأنواع الشوك في يهوذا هي دليل على

Twitter: @alqareah

بورها، بيد أن هذه الملاحظة ليست صائبة، إذ أن الشوك والذي نرى منه اليوم أنواعاً كبيرة الحجم تتسم بكبر أوراقها وارتفاع سيقانها وبريق أزهارها، وهي قريبة من الخرشوف، ولا يظهر إلا في الأرض الصالحة، فضلاً عن أن الجميع يعترف بأن وجه البلاد قد تغير منذ خمسة عشر عاماً. إذ أن يافا التي كانت حواشيها قاحلة كالصحراء تتيه اليوم في غابة من أشجار البرتقال التي تملأ بتفاحها الذهبي مدن وقرى يهوذا، وتمتد الأراضي المزروعة في سوريا كلها، من الوادي حتى الجبال وتهبط الجبال إلى السهل وكأنها استعدادات لعيد ملكي، عيد الملك سليمان العائد على رأس شعبه.

ثم إن اللقالق كانت تتجمع على أشجار الزيتون لتمضية الليل هناك، أما نحن الذين نمنا تحت الخيمة فعلينا النهوض قبل الفجر، إذ أن النهار سيكون طويلاً وجميلاً.

الناصرة

الجمعة 5 آيار 1848

تركنا هذا الصباح حقلنا المحاط بأشجار الصبار، وستبقى حقائبنا في انتظارنا في الناصرة، بينما ننزل نحن إلى بحيرة طبرية.

سرنا في الوادي الضيق الذي يفصل جبل التابور Thabor عن جبال الجليل، وكان ممتلئاً بالعشب العالي وبالحصاد الأخضر وبأشجار البلوط التي تنمو في مجاميع وسط السنابل، وكنا نصغي كما هو الحال في كل منطقة التابور إلى هديل الحمائم المنبعث من أوراقها الكثيفة. فلم تكن الشمس قد أشرقت، وما زال الندى يلمع وكان الجو منعشاً والأوراق طرية، وتهبط السكينة من السماء إلى القلب:

يا جبال سوريا ووديانها، ويا قطعان الماعز الممتدة صوب

Twitter: @alqareah

المستودعات، ويا نباتات الجنوب والشمال، ويا ضياع توراتية مستلقية على سفوح الروابي، سوف لن أغادرك إلا والدموع في عيني.

عند الطريق القصي من الوادي ينفتح السهل الذي يهبط إلى بحيرة طبريا، هذه البحيرة التي لا نكشف وجودها إلا عند المستوى الأخير.

كانت الأرض غير مزروعة ولكن خصوبتها تدعو إلى الدهشة، وقد جعل البدو منها منطقة نفوذ خاصة بهم، لم يكن هنالك سوى قريتين على ضفة البحيرة وهما طبريا ومجدلة Magdala وقد زرعت أطراف من الأرض من حولها، أما ما تبقى فكان مرعى واسعاً. يبذر البدو أحياناً أجزاء من هذه الأرض، وفي الغالب يتركونها مستريحة حيث يهبط السهل ويصبح مغطى بأدغال العشب والزهور. ثمة هضبة من الأحجار اجتاحتها النباتات البرية، وهنالك من وقت لآخر علامات على وجود العديد من القرى التي كانت مشيدة هنالك في الماضي.

وعند مغادرتنا للمضيق، أشار أنطونيو إلى أطلال خان بدوي وكأنها أطلال قلعة، وكان هذا الخان يستخدم في السابق للبهائم، وكان التجار الذين يتجمعون فيه عدة مرات في العام، يتركون جيادهم وبقرهم فيه، ثم قال أنطونيو:

(إذن مايزال هناك لصوص والحمد لله وهم باقون حتى اليوم، وهذا هو السبب الذي جعلهم يحصنون الخان).

وإن لم يعد الخان موجوداً، فإن السوق ما يزال هناك، حيث يتجمع البدو والعرب كل أسبوعين حول هذه الأسوار التي تجتاحها الأحراش، ليتبادلوا فيها قطعانهم. لقد كان السهل مهجوراً، واختفت التابور خلف إحدى الثنايا، بينما استمرت جبال الجليل برسم قاع اللوحة.

كان جبل الشيخ بقاعدته الشاسعة الزرقاء وقمته المبتورة

Twitter: @alqareah

المغطاة بالثلج يهيمن على مدرج الجبال التي تتكور بين جذوره والبحيرة، وكنا نرى في بعض الأحيان بدوياً على فرسه وقد ألقى برمحه الطويل على كتفه، وأخذ يعدو عبر الأعشاب، أو يقتفي بمهل مرتسماً على الأفق الصافي، قمة اللوحة التي تنثني نحو البحيرة.

يوميات رحلة إلى بلاد الشرق
الجزء الثالث

Twitter: @alqareah

أوجين ميلشيور دو فوغويه

رحلة إلى بلاد الماضي

1867

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

أوجين ميلشيور دو فوغويه

التصوير الإثنوغرافي للشرق

ولد أوجين ميلشيور دو فوغويه في العام 1848، وتُوفي في العام 1910.

أتاح العمل الدبلوماسي الذي شغله دو فوغويه، لدى ابن عمه السفير في استنبول في العام 1871 حتى العام 1875، ومن ثم في القاهرة في العام 1876، الفرصة للإقامة في الشرق.

كانت روسيا تسعى آنذاك ـ بعد اندحار فرنسا أمام بروسيا ـ إلى أن تحل محلها في بلاد المشرق، وأثناء رحلة حج دو فوغويه إلى القدس ما بين تشرين الثاني وكانون الأول في العام 1872، التقى بمواطنين روس، فأذهله عمق إيمانهم وقوة النفوذ الإكليروسي عليهم، وكان الانطباع المهيمن على مؤلفه الأول (رحلة إلى بلاد الماضي).

وقد آمن أن روسيا المقدسة ما تزال تحتفظ بقوى روحانية كاملة، مقابل الشكية الواهنة لأوروبا العنيفة. ومما لا ريب فيه فإن هذه التجربة الشرقية كانت حاسمة لتحديد فهمه للعالم السلافي، فكانت رحلته إلى الأماكن المقدسة تتسم بالإيمان الواضح والنشوة الداخلية، وقد كانت غنائية على نحو بارز وعميق، وذات طابع ذاتي وخطابي في آن واحد. وكانت في أسلوبها السِّيَري تشبه نشيداً للفرح مقدماً للرب من نفس مندمجة تماماً بآثار الله على الطبيعة،

Twitter: @alqareah

وآثار النعمة الربانية عليها. وقد كانت تشتمل على الكثير من الحكايات والكثير من الشخصيات، ولكن الطابع الذي يحكمها هو الشعر الذي طفحت به كتابات فوغويه.

Twitter: @alqareah

رحلة إلى بلاد الماضي

البدو

كانت عظمة المشهد البدائية تحيلنا إلى العصور التوراتية، وتعود بنا من غير وعي منا إلى المشاهد البطريركية لأيام العالم الأولى.

كانت القطعان العديدة ترعى بحرية وسط الحقول الشاسعة لقصب السكر، وتدير الجواميس المتمرغة بكسل في الوحل عيونها البيض الواسعة التي تضيء على نحو غريب ومشفرها المائل للسواد، وترفع الجمال رؤوسها المتأرجحة الكبيرة بين الأعشاب. وهناك آلاف من طيور الماء من كل صنف تحلق فوقها، وكأن الإنسان يظهر هنا وهناك بريّاً وبدائياً على نحو يفوق كل وصف.

إنهم البدو الرعاة وهم أول من التقينا بهم، كان البعض منهم يحرس قطعانه منعزلاً، منتصباً في القصب، متكئاً على عيدانه الطويلة، مكتسباً فضاء أبيض يقف بلا حراك، وله هيئة متأملة مثل تماثيل صغيرة من البرونز، في حين كان الآخرون جالسين أو ممددين في ظل عدد من الشجيرات الصغيرة النادرة، صامتين، شرسين، ينظرون إلينا نمر دون أن تبدر منهم علامة دهشة على الرغم من أن الطريق التي سلكناها هي خارج المسار المعتاد للرحالة، ومن النادر أن يمر الأوروبيون فيها. كانت لهم عيون من نار، وأسنان بيض مثل العاج، وحدها تحيي الوجوه الشاحبة

Twitter: @alqareah

النحيفة من جراء الحرمان والتي لوحتها الشمس، وهي مصابة بالحمى البردائية.

إنهم من التركمان الذين يطوفون الأرض الحلوة، وتشكل خيامهم البائسة المصنوعة من بورياء الأسل، أو من جلد الماعز الأسود المشدودة بالأوتاد، على امتداد المسافات في المستنقعات، ضياع متنقلة، ونستطيع القول إنها مساكن بشرية لو لم تكن النار، وهي سمة الإنسان الأكثر حرماناً، تشتعل أمام أبوابها. وعلى الرغم من هذا الأمر، هناك عدد من هؤلاء البدو يدفع بيد غير مجربة عربة، إلا أن معظمهم يسهرون ـ عاطلين ـ على البهائم المشتتة في السهل، يتسلّون ببنادقهم أو رماحهم، وينظرون إلى السماء مثل الرعاة في خلدة Chaldee القديمة، فهم لم يخطوا طوال ستة آلاف عام خطوة واحدة، وسيعيشون مثل أولئك البشر الأولين، وسيموتون مثلهم، وقد يقول البعض، ومثلنا أيضاً. فماذا يلزمنا أيضاً كي نبلغ هذا المصير عينه؟

عين ملاح

عسكرنا في عين ملاح على ضفة عين ماء واسعة، وكانت هناك واحدة من هذه القبائل التركمانية التي ربطت جيادها أمام خيام البوري، مما أجبرنا على القيام بالحراسة ليلاً. ولهذا السبب فكرنا بالاستدارة نحو الغرب بدلاً من النزول إلى النهر حتى بحيرة طبريا، وإلى أن نتسلق الجبال لنذهب للنوم في صفد، فهذه المدينة الصغيرة المثيرة للفضول مجهولة من قبل الرحالة، مع أنه يصعب عليهم حذفها من مسار رحلتهم.

وتتجلى صفد فجأة من على المثلث المقلوب، المؤلف من قمم الرابيتين كواحة منعشة، تكسوها أشجار الزيتون والتين والكروم، وتضم شرفات منازل طريفة المظهر، بينما تتعدى المدينة ثلاث تلال مع المنحدرات التي تفصل بينها، وهي متموجة بأطلال قلعة قديمة.

Twitter: @alqareah

إن هذه اللوحة المنجزة مؤطرة بأبهة الجبال التي نشاهدها في الخلفية في الحال، وتتقاطع خطوط القمم وتمتزج خطوطها مثل تظليل رسم على نحو رديء، وتتدرج عند كل مستوى بأنصال زرق أكثر نعومة بدرجات من الأزرق النيلي الغامق، في الطابور القريب حتى اللازورد الغامض للجبال الأخيرة للسامرة. وقد بدا كل شيء جديداً علينا ومثيراً كلما توغلنا في المدينة الصغيرة الضاحكة، التي يُقال إنها تشعر بأنه ينبغي عذرها على أصلها الغامض (إذ أن الإنجيل لا يذكرها) بالنظر إلى رشاقتها الحالية.

الينبوع

أوقفنا جيادنا عند ينبوع وسط الأحجار البيض تحت أشجار الزيتون الجميلة، فأتت إليه فتيات جميلات يتمتعن بنقاء مثير للإعجاب لينهلن منه الماء عند طلوع النهار، ويمسكن بأذرعهن المثنية جرارهن الكبيرة الموضوعة على رؤوسهن، ويرتدين وشاحاً، مثل وشاح النساء في العصور القديمة، ولهن أشكال منحوتة تشبه أشكال حاملات القرابين.

إنها التوراة وقد تجلت فيها معبرة، فالأخلاق البدائية التي يُحكى عنها لم تتغير، وما زال يتم استقبال الغرباء عند النبع، حيث يتبادلون رواية الأخبار، وحيث تعقد الزيجات كما كان الحال في عصر ربيكا وألينور(*).

شرعنا في السير مقتفين الوادي الصغير إلى المدينة حتى وصلنا إلى الساحة الكبيرة، حيث تلتحم، بعد أن تهبط بسفوح ثلاثة من الكثبان، وتؤلف الأحياء الثلاثة: حي المسلمين، وحي اليهود، وحي الجزائريين. وقد جاءت قبيلة من مستعمراتنا في أفريقيا لتقيم هنا منذ حوالى (12 عاما) بعد وقوع حركة عصيان.

أقمنا خيمنا هناك، كان بالإمكان أن نرى خلال شق على جهة

(*) ربيكا هي رفقة بنت بتوئيل في التوراة، زوجة اسحق.

Twitter: @alqareah

اليمين زاوية من بحيرة طبريا. كانت البحيرة المبجلة تنام بهدوء بين حوافها المنحدرة وفي بوتقة من الصخور ذات الألوان الذهبية السمراء. وكانت الطبقة الزرقاء تسحر النظر ثم ينتهي الأمر بها إلى أن تسيل إلى ماء مثل الشِعب في هذه الجبال المحترقة في فلسطين. وكيف لنا أن نبين لأولئك الذين لم يغادروا أوطاننا أبداً والذين أفسدتهم الخضرة جاذبية ونعمة الماء في الشرق؟

كنا جالسين أمام الخيمة ونرقب باهتمام بالغ حركة الساحة التي كانت كبيرة قياساً بضيعة عربية تائهة في هذه الصحارى، ومتنوعة بهذا المزيج من الشعوب. كان اليهود الغريبو الأطوار والقذرون بملابسهم الأوروبية الرثة يلتقون بتواضع بالبدوي الذي كان على القدر ذاته من البؤس والقذارة ولكنه كان على الأقل يسير فخوراً عالي الرأس. وكان الشيوخ الجزائريون وجنود الوالي التركي يمرون بعجلة على جيادهم الجميلة، وكان هنالك دائماً مواكب حاملات القرابين بأوشحتهن البيض عائدات من الينبوع إلى المنزل، وأمام أبواب المنازل كانت ربات البيوت يطهين في أفران صغيرة مخروطية من الطين المفخور، لها ارتفاع قدمين أقراص الخبز المسطح الخالية من الخميرة، والمصنوعة من طحين الشعير. إنه الخبز البدائي الذي يؤكل في هذه المنطقة من زمن الأنبياء، فقد قال النبي إبراهيم لسارة عند استقباله للملائكة:

(اطهي الخبز تحت الرماد).

كان كل منزل يتكور بقبح تحت شجرة للزيتون أو الخروب مزروعة في زاوية الشرفة، وقد ظل ظهور المدينة الرشيقة في أذهاننا بوصفه إحدى أكثر المفاجآت إمتاعاً خلال رحلاتنا. فهذه المدينة قارنها شاعر المزامير بجدي ينط على كل وهادها وروابيها.

اليهود

أكملنا زيارتنا للحي اليهودي، حيث تحرك فضولنا إلى أقصى

Twitter: @alqareah

حد له. إن أولاد إسرائيل هرعوا إلى هنا واستقروا بأعداد كبيرة بانتظار المخلص الذي سيولد طبقاً للتقليد التلمودي في طبرية، ويدعو لإقامة عرشه في صفد، وهؤلاء اليهود يتمتعون هنا بالحماية البريطانية ويرجعون مباشرة إلى القنصل البريطاني في مدينة بيت المقدس.

طالما لفت انتباهي مثل هذا التجمع البشري. تخيلوا أن هنالك على جانبي زقاق طويل أكواخاً نتنة، يقبع فيها ألف متجر عادي يقف في كل واحد منها عجوز جدير بريشة الرسام رامبرانت، أو يشبه ساحر محفل السبت، فضلاً عن الأطفال ذوي خصل الشعر الطويلة المتدلية. إنهم يهود جاؤوا من شمال أوروبا، جاؤوا من كل مكان تقريباً ولا سيما من بولونيا وروسيا ومن فلاشي، واحتفظوا ببدلاتهم الحقيرة الغريبة التي يعرفها كل واحد منا، والمتكونة من لاوية(*) مدهنة ومرقعة، وقبعة مخروطية أو كسكيت الموجيك(**)، أو هذه القبعة اللامعقولة تحت هذه الشمس اللاهبة ألا وهي القبعة الواسعة في العراء ذات الجناحين اللذين يتجاوزان الرأس، وما يزال بعض الكهول من ذوي اللحى الطويلة البيضاء يحتفظون بشيء من الأبهة. ويتجلى آخرون كأكثر الأجناس ملاءمة لحلم رسام واقعي، يبحث في تجسيد للربا والجشع في أنوفهم المعقوفة وخصلتي شعورهم المتدلية الملولوبة على الصدغين علامة على طائفة القراء(***) وفي عيون حمر رامشة أضنتها الأمراض المختلفة، وعلاوة على هذه التعبيرات المشتركة بينهم، تقترن بهم السمة العادية للطبقات الحقيرة في أوروبا، حيث كانوا يعيشون تحت تعبير الرعب الدائم الذي يثيره النفور الذي يبديه لهم الشرق برمته.

ليس بمقدور شخص أن يعبر عن هذه الهيئة القذرة المستكينة،

(*) سترة طويلة تشبه ثوب الكهنة الأوروبيين، واللاوي هو عضو في قبيلة اللاوي لدى اليهود مهمته خدمة المعبد.

(**) الفلاح الروسي.

(***) يهودي لا يقر بنسبة رجال الدين بل يعتمد نصوص التوراة وحدها.

Twitter: @alqareah

ولربما كانت هكذا لتخفيف مشاعر الازدراء المتوجهة إزائها، وقد سبق لتاسيت أن لاحظ هذا عندما عبر عن اندهاشه من سلوكياتهم الحقيرة(*).

كانوا يتحدثون الألمانية، وكانوا يجيبون بالحذر الملازم لهذا العِرق على الأسئلة التي توجهها إليهم بهذه اللغة، وكانوا يقولون لنا بأنهم يهود جاؤوا من جميع أطراف العالم وأقاموا مدة عشرة أو اثني عشر أو خمسة عشر عاماً في هذه الأرض كي يموتوا عليها بسلام.

كان المكان الأكثر غرابة في هذا الحي الغريب هو المعبد.

ثبّتُ نظري على زجاجه الزيتي المضبب، ولم أستطع انتزاعها من هذه اللوحة الخليقة بإثارة خيال الرسام. كان كل ما هنالك من أثاث وزينة في الصالة المربعة المظلمة هو عدد من مصابيح القصدير المربعة المعلقة في السقف، ومصاطب وكراسي ذات أشكال قوطية، وعلى أحد الرفوف أجزاء ناقصة من التوراة والتلمود والمشنا، وأمام المقاعد جلس أربعة من الشيوخ. ولن أصف هذه الوجوه المنافقة الغارقة في لحاها الواسعة البيضاء، وفي أجنحة القبعات المصنوعة من الفراء، والواسعة مثل المظلات، وهم ينحنون على النص العبري ويتهجون بتنغيم حلقي وتأرجح بالرأس منسجم مع آيات أنبيائهم الذين وعدوهم بإعادة قيام صهيون.

كان هذا المشهد خليقاً بأن يقف المرء متأملاً فيه، هؤلاء إذن رجال لا تعدو حياتهم أن تكون سوى سباق محموم نحو الربح، فقد هجروا تجارة مزدهرة ربما في بلاد كانوا فيها أحراراً ومحميين، ليأتوا إلى هذه الضيعة الفقيرة الخالية من الحركة التجارية بلا نقود، وخضعوا للشتائم من قِبل المسيحيين والمسلمين على حد سواء، الذين يعاملونهم باحتقار أكبر من احتقارهم لكلاب البازار.

(*) غرسين دي تاسيت (1794 ـ 1878) مستشرق فرنسي وتلميذ دو ساسي، محرر المجلة الآسيوية.

Twitter: @alqareah

الناصرة

كانت هناك طريق متعرجة مكسوة بالبلاطات الكبيرة على الطراز الروماني تقودنا بنصف ساعة إلى سطح يتقاسمه ديران للعائلتين المسيحيتين: الإغريقية واللاتينية، وكان يمكننا أن نصل من التابور إلى الناصرة في المساء ذاته، إذا ما أسرعت جيادنا خطاها عبر الطرق المتموجة المشجرة الضاحكة، مقارنة بمرتفعات الجليل الشمالية. بدت المنازل الأولى في ثنية الأرض ملحقة بسفح رابيتها مثل عناقيد نبات كار الحجر. ولاحظت من جديد هذا المظهر الغريب للمدن العربية التي تمتزج شرفاتها وأسوارها الرومانية إلى حد كبير مع اللون الطبيعي للأرض، حتى إننا غالباً ما نقترب منها دون أن نراها، وكانت الناصرة مع ذلك من أكثر الضياع التي صادفناها نظافة وأروع بنياناً، فقد أضفت عليها الأبنية الدينية الأوروبية مظهراً مترفاً ومحترماً.

عسكرنا عند مدخل المدينة تحت أشجار الزيتون قرب الينبوع، فبعد زيارتنا للمعابد التي كرستها الأساطير الدينية آثرت أن أجلس عند هذا الينبوع وسط الأحجار المتيبسة حيث تأتي النساء لينهلن الماء، كما هو الحال في فلسطين القديمة. إذ ينبغي البحث في المظهر العام عن الأماكن، وفي العادة المحلية المستقرة عن الملامح الأولية اللازمة لترميم أطر الحكاية الإنجيلية وفهمها على نحو أفضل، فالينابيع لا تبدل أماكنها، ومعها لا تتعرض التقاليد للضياع، وإن ندرة هذه الينابيع وأهميتها الخاصة في عادات أهل الشرق جعلت منها شواهد طبيعية على كل الحوادث التي أشرت إليها في حياة المدينة. اقرأ التوراة من أولها إلى نهايتها، سترى أن كل المؤسسات البدائية وكل المشاهد البطريركية تحتشد حول أحد الآبار والينابيع، ومنها تتابع حكاياتها عبر العصور، وهي ما تزال حتى اليوم ملتقى القرية العربية، وهي المكان الوحيد الذي فيه من القوة ما يكفي لربط التجمعات التي تكون عادة عابرة إلى الخارج

Twitter: @alqareah

منه، إذ أن أدنى مصدر للماء هو إرث تتناقله بأمانة الأعراق والأجيال المتعاقبة، وهو في الوقت ذاته المؤمن لوثائقهم البدائية.

ولا ريب فإن مريم كانت تأتي إلى هذا المكان صباح كل يوم، واضعة برشاقة جرتها على رأسها على غرار هذه الشابات الجميلات اللواتي يمررن أمامي. وكانت ترتدي مثلهن القميص الأبيض الطويل المفتوح عند الصدر، وتتحدث بلغة قريبة من لغتهن، ولها ملامح إحداهن. وبالتالي ما إن ننظر إلى الأرض التي ولدن عليها حتى تنبعث الحكايات المؤثرة التي تعلمناها في طفولتنا من جديد بكامل واقعها الحي.

يجلس الشيخ العربي القرفصاء النهار كله على حصيرة في إحدى زوايا الصالة العارية، حيث يعلق أسلحته ويدخن السجائر، ويطهو على نار المنقل الخفيفة العديد من أكواب القهوة المعطرة بالكمون وبالأعشاب العطرية. هذه هي حياته، علاوة على الزيارات التي تتعاقب بلا انقطاع، أي أن ساكن المدينة أو بدوي الصحراء يدخل ويحيي سيد المنزل، ويجلس القرفصاء، يشعل غليونه أو سيجارته، ثم يخرج بعد نصف ساعة دون أن يكون قد تفوه بأكثر من عشرين كلمة، ولا يمكنني منع نفسي من الإعجاب مرة أخرى بذوق هذه المجالس وتحضرها. فهؤلاء الناس هم في النهاية قرويون وذوو وضع اجتماعي متواضع، وكم هو كبير هذا الاختلاف بين رصانة حديثهم ونبل تصرفهم وبين لا مبالاة شعوبنا وصخبها.

تزامن اليومان اللذان قضيناهما في الناصرة مع أعياد البيرام Bairam، ومنحتنا هذه المناسبة فرصة لحضور مشاهد تصويرية بيتورسكية، إذ اجتمع بعد الظهر شباب المدينة لمباراة الجري djerid.

مباريات الجري

إن هذه المتعة الرجولية التي انحدرت منها مبارياتنا في العصر

Twitter: @alqareah

الوسيط تنطوي على أهمية أخرى غير تلك التي تكتسبها سباقات الخيول لدينا، والحقل المغلق الذي جرى فيه السباق هو الساحة الحجرية المتربة المسورة ببساتين الصبار الهندي، وهي تمتد أمام خيامنا. فانقسم اللاعبون والذين ارتدوا أفخر ثيابهم إلى معسكرين، وأخذ كل جانب يدفع مطيته التي أدمى خواصرها الركاب الواسع الحاد في حركة تحدٍ نحو الآخر.

وما لبث الفرسان المهتاجون المنجنون على جيادهم المذعورة إن اختلطوا واصطدموا ببعضهم البعض، وهم يسعون إلى بلوغ بعضهم بوساطة رماح طويلة من الخشب متقاطعة في الهواء، ويمضون لضرب الهاربين في ظهورهم، أو يتعرضون على نحو خاطف لضربة المحاربين الماهرين، وسط التصفيق الحاد للمتفرجين. فعصفت غيمة في التراب تحت حدوات الخيول، وزركشت بالخضرة المصفرة لأشجار التين البري السترات المطرزة بالذهب، والمخططة بالأسود والأبيض، والكوفيات البرّاقة، والجزم الحمر العالية التي كان يرتديها اللاعبون.

هرع حشد كبير من المشاهدين حول الملعب الصغير، ويُتِم حضورهم اللوحة، وقد احتجبت النساء تحت أوشحتهن الطويلة البيض المتهدلة على تنوراتهن الوردية والبنفسجية، وثمة عدد لابأس به من الأطفال يرتدون اللون البرتقالي والأخضر التفاحي من الرأس حتى القدمين.

الطوائف الدينية

اطلعنا أثناء تجوالاتنا في المعابد والأطلال على مدينة الماضي، إذ أن زيارتنا إلى سكانها أعطتنا أفكاراً حول مدينة بيت المقدس الحالية. وكان أهم هذه الزيارات هي تلك التي قمنا بها البارحة إلى بطريرك الأرمن الغريغوريين، المقيم على جبل صهيون في الكنيسة القديمة لسان جان لو ماجور، هذه الكنيسة التي تعود إلى طائفته حالياً كانت ديراً فسيحاً ومشيداً على نحو جيد، وفيه

Twitter: @alqareah

مدرسة تشبه نوعاً ما تلك المدارس التي نجدها في أنحاء تركيا الأخرى، فهي مزودة بالخرائط والكتب الأوروبية، وأدوات الفيزياء وهنالك أيضاً مطبعة، وتشهد جميعها على أن هذه الطائفة الصغيرة الجادة والذكية تمثل هنا ـ كما هو الحال في أوروبا برمتها ـ جزءاً لا بأس به من الحركة الفكرية. ولم نستطع أمام المطابع التي يديرها عمال مهرة يطبعون الأناجيل باللغة الأرمنية إلا أن نعبر عن إعجابنا في الفكر الشرقي المأخوذ بالسلاح العجيب لحضارتنا، وهو يتجسد على الأوراق الرطبة بأحرف غريبة وبلغة غامضة.

كان لامارتين يطلق على الأرمن بسويسريي الشرق، وفي قوله بعض الصحة فيما يخص صدقهم، وصلابتهم، وقدراتهم الاستثنائية على العمل والتوفير، هذه الميزات التي وضعت في حيازتهم على الأقل ربع الثروة المنقولة في جميع المراكز التجارية لبلاد المشرق.

إنهم أبناء الجبال، فقد انحدروا من مرتفعات القوقاز، وهضاب الفان التي كانت مهد عرقهم، ثم فرقهم القدر على نحو عجيب، ولعلهم أبلغ مثال على ثبات الرباط الوطني الذي عززه الرباط الديني، وصانه من بين الأعراق المشتتة في الشرق. فبعد أن تفرقوا على سطح هذه الإمبراطورية الشاسعة ومملكة الفرس، نسي معظمهم لغة الآباء ولم يعودوا يفقهون سوى لغة الشعوب التركية والعربية التي اختلطوا بها، غير أنهم وحيثما جمعتهم المصادفة يتعرفون على بعضهم البعض، ويجتمعون في طوائف مميزة، ويتحالفون ويؤازرون بعضهم، ويلتفون حول المذبح مصوبين عيونهم نحو الرئيس الأعلى لدينهم، وهو البطريرك الباقي في أشمياد زين في جبال موطن الأم. وقد عرفوا كيف يبرهنون بفضل الميزات الخاصة التي تحدثت عنها، كالثبات والتوارث على أهم مقومات الشعب ألا وهي الطابع الوطني.

بطريرك مدينة بيت المقدس

بطريرك مدينة بيت المقدس رجل مايزال شاباً للغاية، له قامة

Twitter: @alqareah

عملاقة، وهيئة نبيلة نكية، وكان حسب ما يقال طالب حقوق في باريس، وفيها تعلم التصوير، وصار يمارسه بنجاح كبير، وعندما عاد إلى الحياة الشرقية عرف في حياته مع المطارنة أشد المؤامرات مكراً. فبعد أن تحالف المتآمرون ضده حاولوا تسميمه مرتين، إلا أنه نجا منها بفضل بنيته القوية ورمى بالجناة إلى السجن، ثم أصبح لا يجرؤ على الأكل إلا ما تعده له شقيقته. إنه فعلاً لمصير غريب مصير هذا الحبر الذي بدأ في بلد لاتيني، وانتهى تحت تاج الأسقف في واحدة من مآسي ألف ليلة وليلة.

أرونا في صباح هذا اليوم تحديداً على جبل الزيتون العديد من الأطلال الأثرية التي تم اكتشافها حديثاً، وهي تشهد على وجود مستعمرة أرمنية بالغة الأهمية تعود إلى أحد العصور السحيقة على الهضبة التي أصبحت مهجورة في أيامنا. وتتحدث الحوليات الأرمنية عن أميرات من عائلة ملكية اعتزلن في مدينة بيت المقدس حوالى القرن الثامن الميلادي. أينبغي عزو هذه الأطلال إلى هذه الأميرات؟

إنها عبارة عن أجزاء معمارية وبلاطات من الفسيفساء بغاية الغرابة وذات طراز رفيع مع كتابات أرمنية، وأضرحة ونعوش من الرصاص مدعمة بالصليب، وفيها حاجيات عادية ومصابيح، وبعض الأشياء المصنوعة من الطين المفخور مطمورة في سراديب الدفن طبقاً للتقليد المؤثر والرمزي الذي روته لنا الوثنية في العصور المسيحية الأولى. فقد كان الميت في الرموس القديمة لجزر الأرخبيل يمدد ويوضع في يده مصباح، وهذا يعني أن يعهد إليه بضياء ينزل معه إلى الأبدية، ويستضيء به في عتماتها المخيفة. واليوم عُثر على المصابيح داخل النعوش، وسط قليل من الغبار، لقد ترك الميت مصابيحه وفتح عينيه أمام النهار الأبدي.

الحرم

استطاع مسجد عمر ـ بفضل خفوت وتكسر أنواره المنبعثة من

Twitter: @alqareah

زجاجاته المعقدة تارة، أو التي توّجها مكعبات الفسيفساء الكريستال والمذهبات في السقوف، وتطفئها تارة أخرى أعمدة الرخام السمّاقي والسجاد الفارسي - أن يبلغ قمة التأثير، وربما تحسده حتى الكاتدرائيات الأكثر غرابة عندنا.

كم قضيت من الساعات العجيبة وأنا أتابع بنظري حركاته، وأصغي إلى الأساطير التي كان يرويها لي الإمام عن الصخرة، مذبح الضحايا القديم، وهي قطعة من الصخر غير المصقول حتّه الزمن، وقد انتصب بعريه الأصلي وسط كل هذه المواد القيمة المتقنة فنياً، فبعد أن مستها يدا داود تعلقت في الأعلى تمسك بها الملائكة فوق الفجوة.

أما المسجد الأقصى وعلى الرغم من غرابته الشديدة نسبة للآثاري، إلا أنه ينطوي على أهمية أقل نسبة للزائر العادي، كما أن المصادفة جعلتنا نعثر فيه على موضوعات في غاية الأهمية. فما زال المسجد الكبير في المدينة العربية يحتفظ حتى يومنا هذا بما كان للكاتدرائية من أهمية في مدننا في العصر الوسيط، أي مركز كهنوتي استشفائي صغير تتجمع حوله مساكن الخدم، والملاجئ، والمستشفيات، والمدارس، ويتم توفير التعليم في هذه المدارس في المعابد.

دخلنا إلى الأقصى في ساعة الدرس تحديداً، كان الطلبة يرتدون بذلة كهنوتية، قفطاناً أسود، وعمامة بيضاء، يقرفصون على ركبهم، وبيدهم ريشة القصب، ومحبرة النحاس محمولة على الحزام، ويشكلون حلقات غير متساوية حول المدرسين، وذلك تبعاً للأهمية الصغيرة أو الكبيرة لهؤلاء المدرسين فلم يكن للمبتدئين منهم سوى قلة من المستمعين، أما أصحاب الشهرة وأعلام المدرسة فهم يجتذبون ما يقارب الخمسين والستين من الأتباع عند أسفل المنصة التي يقفون عليها، وكان هنالك أمام كل واحد من هؤلاء العلماء مصحف مفتوح، مهما كان العلم الذي يلقنه، وهو يقرأ درساً من النص المقدس مرتلاً إياه على وتيرة واحدة، ومن ثم يعلق عليه

Twitter: @alqareah

على طريقته. وتفضل أحد هؤلاء المدرسين بأن يشرح لنا تفصيلياً نظام تكوين هذه التجمعات وتقسيم التعليم المقدم فيها، وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما وجدنا فيها الملامح والتكوين الداخلي ذاته لجامعاتنا في القرن الثالث عشر، أو بعبارة أخرى كان نسخة مطابقة منه، فالامتيازات والوجود المستقل ومزج الدراسات الأدبية بالدراسات الكهنوتية مشتقة جميعها هنا من القرآن، كما كانت هناك في أوروبا مشتقة من الإنجيل. وكان هؤلاء هم رجال الدين، وهذا هو الاسم الحقيقي لهؤلاء الطلبة الذين ما إن يتدرجوا بالقانون المدني وبالشريعة حتى يمدوا المجتمع الإسلامي بما يحتاجه من القضاة والأئمة والحكام والكهنة، ويقطن هؤلاء الطلبة عادة في الحي المحيط بالمسجد الذي لا يمكن للسلطة العلمانية اختراقه، ويتمتعون بالحصانة والصراحة حيث لا يقاضيهم أحد سوى المحكمة الجامعية.

حافظ التعليم على صرامة التقسيمات الإسكولائية والحق الشرعي والحق المدني والنحو والرياضيات والموسيقى، إذ تنضوي المعرفة الإنسانية كلها تحت هذه العناوين، وتصدر جميعها من الكتاب المقدس، كما أن الأسانيد القانونية للسوربون القديمة عندنا موجودة في أكثر الجامعات شهرة، مع أنها لم تبلغ الروح النقدية للسوربون إلا أني تمكنت من أن أتبين في كلام الشخص الذي كان يطلعني على هذا الجانب من الحياة الإسلامية، وجود اعتقاد راسخ بأن للجامعة في حالات معينة حق تفسير القانون، بل ونقض القرارات المطلقة لأمير المؤمنين Commandeur des Croyants.

وهكذا تمكنت وأنا أتجول بين التلاميذ المجتمعين في فناء المسجد، وهم يدونون ملاحظاتهم فوق ركبهم أن أتخيل نفسي وسط كهنة شارع فوار، وهم يفسرون أرسطو، لشدة ما بدا إلي هذا الشرق الساكن، وأنا أتأمل ـ وأنا لا أمَلّ من تكرار هذا الأمر ـ إزاء الذي يريد استنطاقه كنسخة حية وتجلٍ صادق لتاريخنا الماضي، نحن الذين نواصل سيرنا.

Twitter: @alqareah

وكان هنالك في موضع الخوري في المسجد، كرسي القاصد الرسولي، وهو كرسي أنيق ومحمول على عامودين يمثلان عامودي الفردوس، وليس بمقدور أحد المرور بينهما سوى الذي اختاره الله لذلك. كانت الحوانيت الداخلية لجذعي العامودين قد بليتا قليلاً من جرّاء المحاولات الدنيوية للحجّاج والأفندية البدينين الذين جرَّبوا بصعوبة قابلياتهم على بلوغ السعادة الأبدية.

وغالبا ما نرى هناك العديد من الموظفين الصارمين من ذوي المراكز العالية والمتصفين بالبدانة التي تعتبر في كل مكان بمثابة امتياز لدى الناس الراضين عن أنفسهم وعن ثرواتهم. إن البدانة هي أشبه ما تكون بالزي الرسمي للإدارة لدى الأتراك، حيث يلف البائس ويدور ويتصبب عرقاً كي يمر من خلال الباب السماوية من وراء الملا الشاب، حاسداً إياه لأول مرة على نحافته الورعة، عندها يقوم رجل الدين متصنعاً الرصانة وضاحكاً في نفسه، بسحب القاضي اللاهث بيديه كلتيهما. يا لها من جهود عابثة، إذ أن صاحب السيادة لم يستطع المرور، فيغادر وقد أصابه الخجل قليلاً، ولاينسى أن يمنح قبل ذلك هدية سخية إلى دليله، كي يحكي هذا إلى الجمهور، كيف أن القاضي خرج منتصراً في الامتحان المفروض على المؤمنين، إذ أنه حريص على الاحتفاظ بهيبته إزاء رعيته.

وطاب لنا أثناء تجوالنا في الحرم التوقف لدى الأولياء وأضرحتهم ذات القبب المثيرة، والتي لها شكل القلنسوة، وكانت مطرزة بأقوال السنة مكتوبة بالخط الكوفي، وأن نتفحص أطلال الباب المذهبة الجميلة، والمداميك القديمة لبرج أنطونيا، إلا أن الممالك الأرضية استدعت انتباهنا بجاذبيتها الملغزة فنزلنا إليها عبر منفذ يقع عند الزاوية الجنوبية الشرقية، وسط بناءات عملاقة واقفة أو مضطجعة على الجانب في الظل المهيب للسقوف المعقودة التي تحملها غابات من الأعمدة الشبيهة بالأبراج، والتي عمل الخيال الشرقي على جعل الجن والأشباح الشريرة تعشعش فيها. إن الملك سليمان هو الذي ربطهم بجهنم المصطنعة، ولأنه كان خبيراً

Twitter: @alqareah

بالوصفات السحرية فقد أجبرهم على وضع هذه الأعمدة الحجرية التي لن يكون بإمكان جيش أن يزعزعها، وإلى دعم هذه السقوف الحاملة لسطح معابده، وإلى حفر هذه الشبكة من أنابيب الماء وأحواضها لنقل المياه من الجبال البعيدة، أو لسكب دماء الضحايا، ومن ثم القيام بحبسهم إلى الأبد بأحجار هذه الأعمدة، وبئساً للأرواح التي تتيه في هذه الدهاليز الجهنمية دون أن ترمي فيها حصاة صغيرة، إذ إن الجن ستمسك به وتتقاذفه في الليل الأبدي مثل كرة مسحورة.

ولسوء الحظ إن العلم الإشراقي القاسي قد نزل هو الآخر إلى هذه العتمات، ونظر إلى ماكنة الأحجار وانحناء الأقواس وتصميم الأروقة المشابه تماماً لتصميم أروقة الباب الذهبي. وها نحن مجبرون على الاعتراف بأن أكثر البنى التحتية العملاقة قِدماً من بين هذه يعود إلى العصر الروماني، والجزء الأعظم منها يعود إلى آخر الخلفاء.

الديانة الميتة

مساء الأمس قرأت مرة أخرى في كتاب جوزيف حكاية احتضار القومية اليهودية التي لفظت أنفاسها في هذا المعبد بالذات، وقد تفحصت بقاياه مثل حياة ترتد إلى القلب قبل أن تنطفئ. فأنت عندما ترى أمة إسرائيل وقد هلكت بعد أن أنجزت مهمتها، سيقودك تفكيرك اللاواعي إلى تلك الحشرات التي تزحف على امتداد شهور طوال، دون أن يحدثها قلبها بأنها تحمل داخلها ندرة شكل أفضل، عندما تحين الساعة ويتم التحول وتختفي النغمة عندها يصعد الوليد على أجنحته المشعة إلى النور.

وكذلك فإن الشعب المتهور الذي سلم روحه إلى أعراق أكثر تبصراً، فقد سقط جثة بذاته وهو يدافع عن جثة عبادته، وقضت الفوضى والقمع والبؤس على ما تبقى من المنظمة العبرانية، ومرة

Twitter: @alqareah

ما هبت نسمة الخلاص على يهوذا وظهر المسيح، إنه هو، وهرع الناس إليه واتبعوه، ثم رأوه يقضي نحبه على صليب الحاكم الروماني، وشد المستعبد من قبضته، وسقط الشعب المسكين من جديد أكثر ضعفاً بعد أن خاب أمله الجديد.

حائط المبكى

إن السور العظيم المحيط بالحرم من جهة الغرب داخل المدينة، والقريب من جسر المشابه Macchabees، حافظ وحتى مستوى مرتفع منه على نفسه كما كان في الأزمنة البائدة، حيث كانت إسرائيل ما زالت تستحوذ بسلام على مدينة داود.

كانت مداميكه كتلاً ضخمة بين حجرتين، وتتراجع لها هيئة غير مصقولة ومهيبة. إنها بقايا آثارية ترجعها التقاليد إلى الملك سليمان، وثمة رواق يقع بين هذا الحائط والمساكن الحديثة، وكان اليهود الذين حرم عليهم دخول الحوش قد حصلوا من الأتراك مقابل المال على حق المجيء إليه، والبكاء على الأطلال، وهذا التقليد قديم جداً، ويعود إلى عصر تفتت إمبراطورية طيطوس. وقد فرض كل من الرومان والفرس والصليبيين والمسلمين بالتعاقب ضريبة ثقيلة على مظهر التدين هذا، وواصل البخلاء المبعَدون دفعها إلى الحكام المتعاقبين على موروثهم، لاعتقادهم أن المسرة الناجمة عن لمس أطلال ملكهم العظيم وباب السور الأبوي الذي تم طردهم من خلاله، هي أغلى ثمناً من المال!

ويشهد لنا سان جيروم على قدم هذا التقليد في إحدى رسائله:

(سترى هذا الشعب المكفهر يأتي ليبكي على أطلال معبده).

وإلى هذا المكان ينبغي على الفيلسوف الذهاب ليتأمل في حيوية بقاء الأديان والنبذ الغريب للعائلة العبرانية، وعند أسفل السور العملاق، وعند لصق أول مدماك منه، بلغت ذروته الرؤوس

Twitter: @alqareah

ثمة حشد متراص، يتزاحم ليغطي بقبلاته ولمساته ودموعه الأحجار المقدسة. كان بعضهم يرتدي ملابس البلد وهو القمباز الحرير بألوان فاقعة، ولكن الغالبية العظمى منهم هم اليهود القادمون من بولونيا وروسيا والفلاشي، وقد كانوا يرتدون تلك البذلة العجيبة التي لفتت انتباهنا كثيراً في صفد عندما رأيتها للمرة الاولى، وانخرطت النساء المتلفعات بأوشحتهن في هذه المعاناة الورعة.

ها هم جميعاً هنالك، المئات منهم يعانقون الأحجار بأيديهم المعقوفة، يحركون رؤوسهم وأجسادهم مع تموجات صلواتهم الشرقية، ويرتلون بأنغام حادة مراثي الأنبياء، بعض الأحيان يخفت النشيد وتتأرجح الرؤوس، ثم تنطلق صرخة رئيس الجماعة، فيعود الحبل الطويل لقلنسوات الفراء والعمائم والقبعات الأوروبية بالصعود والنزول مع حركات موحية مجنونة، وكان الكثير منهم يبكون حقيقة على الحائط المقدس والقاسي الذي يحجب عنهم رؤية المواريا وحوش سليمان. وكان المسلم الذي يذهب للصلاة في المسجد يسخر من المنبوذين الشائنين، والسياح الأوروبيين الذين أتوا في جولة للتسلية يضحكون ملء أفواههم على تفاصيل المشهد المضحكة، وكان هؤلاء اليهود الذين لا يؤثر فيهم الاحتقار أو الشتيمة يرمون من تحت على الكافر نظرة مليئة بالحقد، ويواصلون احتفاءهم المحزن دون أن يدعوا أحداً يلهيهم عن ذلك.

وينتاب المتفرج تقزز لا يوصف لرؤية هذا المصاب الأزلي وهذا التعصب الذي لا تعتريه شائبة، رغم افتقاره إلى ما يغذيه، فيعتصر القلب ويشوش الفكر، فأي استحضار تاريخي يقاوم بالاستغراب والاستبعاد، ذلك لأن هذه الواقعة تكمن في ظهور هذا الشعب الذي ينتمي إلى أعماق العصور الأسطورية فيظهر وسط الحياة الحديثة. فهو على غرار مشهد بار جيوراس Bar - Gioras الذي خرج إلى الرومان لكي يلعن اغتيالاً قديماً يعود إلى ألفي عام. وها هم يصلّون ويبكون بانفعال دائم الشباب، باستعمال لغة هامدة على أطلال معبد مكرس لعبادة ميتة.

Twitter: @alqareah

عيد الميلاد في بيت لحم

(نوئيل نوئيل)(*) إن أردت الاحتفال بهذا المولد السعيد فعليك الذهاب إلى بيت لحم، فإلى بيت لحم يهرع هذا الحشد الذي يرتدي ملابس العيد ويندفع من باب يافا، وإلى بيت لحم يتجه الشعب والملوك والنجوم (مع أنه لا ينبغي الاعتماد كثيراً على هذه الأخيرة) ليمضي هذا المساء.

عصف إعصار هائج عنيف هذه الليلة، ويعد هذا الأمر من العوارض المناخية النادرة في هذه المناطق. لم أستطع المغادرة إلا عند الصباح، فقد غمرتني الأمطار الطوفانية، وتلمست طريقي عبثاً في الريف الذي تحول إلى بركة سوداء، كما لو كان فوهة فرن، وتعثر فرسي حتى اللبان بمستنقعات الماء، ولم يكن هناك مايرشدني في العتمات سوى قرع الأجراس البعيد المنبعث من بيت لحم، وهي تعلن عن الخبر السعيد وتنشره.

ورغم هذه الصعوبات ملأ حشد متحمس بيتورسكي الدير اللاتيني، والبازليك، والمغارة، ولعلك تخمن شدة الزحام الذي يجتذبه بيت لحم في ليلة الميلاد. إنه حقاً أمر إلهي أن يكون الإغريق قد حافظوا على التقويم القديم، فلو كانت الاحتفالات الرسمية المسيحية لجميع هذه الطوائف المتخاصمة تحمل التواريخ ذاتها، لأصبحت الأماكن المقدسة ساحة قتال دائم.

بعث الباشا بفوج للحفاظ على النظام، فازدان العيد بمظهر احتفالي خاص، فليس من النادر أن ترى في تركيا الجنود المسلمين وقد عظموا بحضورهم فخامة الاحتفالات الدينية المسيحية. كانوا يرافقون المواكب وقد رفعوا السلاح إكراماً للإله الغريب، وعسكر الفوج في الأجنحة المهجورة للكنيسة التي أصبحت رواقاً عادياً منذ أن فصلها الإغريق عن الكورس (جوقة المرتلين في الكنيسة)

(*) نوئيل هو عيد ميلاد سيدنا المسيح وتعني الله معنا.

Twitter: @alqareah

بحائط. وإن بدت اللوحة حزينة بالنسبة للآثاري، فإنها بالنسبة للمسيحي لا تقدر بثمن. كانت الخيول المربوطة ترن ركائبها الواسعة المصنوعة من الحديد، وأغطية سروجها التي كانت تهتز بالتعاويذ المصنوعة من المعدن، وهي تهبط بالفرسان العرب ببذلاتهم الفاخرة: بناطيل منتفخة، ستر مطرزة بالذهب ومزينة بأشرطة ذات ألوان براقة، وأحزمة من الحرير الأحمر المرصع بمسدساتهم ومقابض خناجرهم. وكانوا يرتدون كوفيات متعددة الألوان، أو عمائم بيضاء مربوطة حول الرأس. وقد يملأ هذا الحشد البازليك(*)، ويتجمع في الفسح الموجودة بين الأعمدة الصخرية، حيث يتشاجر أو يومئ باليدين مع بائعي المسابح والشموع والحلوى، وكان عدد النساء كبيراً، وكما تعلم فقد حافظ على ارتداء لباس خاص ببلده بيت لحم، وهو لباس قريب بعض الشيء من اللباس القديم، يتألف من قميص من الصوف الأحمر والأزرق المفتوح عند الصدر، وما يشبه التنورة من القماش ذاته، ووشاح طويل أبيض مطرز ومثبت برشاقة بقبعة عالية، وهي ليست سوى التاج القديم لدى النساء الشرقيات. وتبدو هذه القبعة المجدولة بالصوف، وحبات المحار، وحلقات النحاس، وقطع النقود مع العقد المعلق عليها، وكأنها حانوت حقيقي لصراف، ويكمن الترف الباذخ في أن يجمع فوقها المئات من قطع النقود من كافة الأزمنة والمصادركافة، كما لو كانت مكاناً لوضع الكنوز القديمة للعائلة، فكان هنالك الثالر(**) والسكا(***) والقرش والفلورين(****) والدوكا(*****) وبعض العملات التي يعود أصلها إلى البندقية وجنوه، فضلاً عن وجود الميداليات والسلاسل والحلي من كل شكل، والحلق في الأذنين والمرفقين والمعصمين والكاحلين. فتتقدم بنات

(*) كنيسة قديمة إيوانية الشكل أو كاتدرائية كاثوليكية ذات امتيازات خاصة.
(**) قطع نقود رومانية قديمة.
(***) نقد إيطالي.
(****) نقد فضي هولندي.
(*****) نقد فضي في البندقية القديمة.

Twitter: @alqareah

بيت لحم الجميلات بصدورهن، فيصدر عنهن رنين هذه المصوغات، وهن متلفعات بأوشحتهن بأناقة ونبل لا مثيل له.

لقد احتفظت الحياة البسيطة والبدائية للأجناس الشرقية بهذا الحنان القديم، الحنان النقي الهادئ والذي ضاع منا بسبب عمل الفكر المتواصل، والتركيز العصبي، والنشاط المقلق للحياة الحديثة.

وهناك وسط هذا الهرج والمرج الجنود الأتراك الصارمون والصامتون يتحلقون للتدفئة حول النار المشتعلة في الأروقة الجانبية لجناح الكنيسة، وهم بالقرب من بنادقهم المنتصبة في حزمة مقابل الأعمدة البيزنطية في هذا المعسكر الارتجالي. كان بعضهم يطهو الطعام وآخرون يدخنون الشبوق، فكانت ألسنة اللهب تكتسب ألواناً برَّاقة وسط هذه الطرابيش، وتصعد لولبية لتوقظ الشخوص المقدسة الفسيفسائية. كانت هيبة حضور هؤلاء الجنود تضفي نمطاً عجائبياً على العلماء الصارمين المتجمعين في الكنيسة والذين بدوا كما لو كانوا يتحركون على ذهب الجدران، وينظرون باستياء بعيونهم الكئيبة الصقيلة إلى هذه الأسلحة، وهذه النار، وهذا الحشد ولا بد أنهم قد شاهدوا في حياتهم المشاهد ذاتها، عندما أدى نهب البازليك من قبل الجنود الفرس إلى إيقاف نزاعاتهم الدقيقة.

وكانت حشود الناس تتسارع للدخول إلى مغارة الميلاد التي كانت تحت كورس الكنيسة، وكان النزول إليها يتم عبر سلمين نصف دائريين، يعود الأول إلى الإغريق والثاني إلى اللاتينيين. وكانت المغارة مربعة بطول عشرة إلى اثني عشر متراً، وكانت الصخور قد كسيت في كل مكان بالمرمر والسجاد والمصابيح، وكان الكنز الذي انحنى المسيحيون عليه منذ عصور طويلة في هذا الموضع المقدس، وقد كان واحد من تلك المصابيح المضاءة على الدوام والتي تتدلى من السقف، قد قدم هدية من الملك لويس الثالث عشر. وعلى الجانب المواجه لشرق الكنيسة ثمة حفرة على شكل عش داخل الصخرة،

Twitter: @alqareah

تؤشر إلى الموضع الذي ولد فيه المسيح بالضبط، كما تشهد على ذلك النجمة الفضية التي أثارت ضجة مأساوية كبيرة في السياسة المعاصرة. وثمة حفرة أخرى في الجنوب، وهي مصلى المذود، وهي المكان الذي تعبد فيه المجوس، وتتصل المغارة بممر متعرج في الصخر، وتؤدي إلى العديد من أماكن الصلاة المكرسة طبقاً إلى مختلف التقاليد، ثم تعود لتنفتح بعد عدد من الدرجات إلى الدير اللاتيني.

ملأ حشد المؤمنين الكنيسة الصغيرة للفرنسيسكان، وأغلق السلم، ثم سجد بورع في قبو الكنيسة المشعة بالأنوار. إنه لمنظر أخاذ، ترى فيه سكان بيت لحم من الشيوخ العرب بلحاهم البيض وهم يسارعون للوصول إلى المذود، ودرجات المذبح، والنجمة الفضية. وفي اللحظة التي دخلت فيها بمشقة كبيرة إلى المكان المقدس، كان المحتفل بالقداس يقرأ هذا الدرس من الإنجيل (ووضعوه في المذود)، فأذهلتني هذه المصادفة، وغمرتني احتفالية المكان وذكرها بالفرح، وأصابتني الحمى الحماسية المنعشة من كل هذه القلوب والشفاه. فشعرت وقد غمرني الانفعال المشترك بين الجموع، أنني أنقاد بعذوبة إلى جاذبية هذه العبادة التي كان كل شيء فيها عظيماً، إنها الساعة التي يسيل فيها النبع الخفي للصلاة، والذي يتسرب قطرة فقطرة إلى أعماق الروح، كما ينساب ضياء السماء إلى مهد الصخرة هذا.

أمضيت شطراً من الليل في التجول في انعطافات المغارة، كنت أضيع تارة في الحشد الراكع أمام المذود، وأتيه تارة أخرى في التراجعات المقهورة الناجمة عن التوسع الذي يحدث في النفق الأرضي الطويل. إنها أماكن الصلاة المكرسة للأتقياء، إلى سان جيروم، وإلى سان بول، ولا يأتي أحد ليعكر وحدتهم. فكانت موسيقى المؤمنين غير المرئيين وأناشيدهم تصل إلى مسامعهم مخنوقة، كما لو كانت منبعثة من إحدى أروقة سراديب الميت.

Twitter: @alqareah

شعب مدينة بيت المقدس

مقابل كل هذه التفرعات للعائلة المسيحية، وكما كان إسماعيل مقابل أخوته، كانت القبيلة اليهودية الحقودة المغلقة على نفسها تنمو في البؤس، رغم مالها من بعض المؤسسات التي نشأت بفضل ما جاد به أخوتها في العقيدة من الأثرياء المقيمين في أوروبا. وهل هناك من حاجة لأصف مرة أخرى دون أن أكرر نفسي، إيمانها الذي لا يتزعزع وأملها العنيد اللامجدي وغموض عبادتها وعيشها وتدنيها؟

على الرغم من تجاهل وازدراء الآخرين لهم فهم محشورون في حي مخنوق ومعابد مشبوهة ومطمورون ومطرودون من جميع الأماكن التي تكرسها التوراة والإنجيل والقرآن. إن اليهود يعلّلون النفس أكثر من أي شعب آخر بمطامح مستقبلية وقناعة بميلاد وطني، فهم يفدون من جميع أركان أوروبا غرباء كما حاولت أن أرسمهم، بالانتظام الغريزي للطيور المهاجرة، ليزيدوا أضرحة أجدادهم عدداً. إن عددهم يعطينا فكرة عن أهميتهم الدينية والسياسية التي هي لا شيء في الواقع.

والأغلبية هم من المسيحيين والمسلمين، هؤلاء المسلمون هم من بدو الصحراء أو من عرب الحاضرة وما تبقى من الموظفين والجنود الأتراك. ويحلّق هؤلاء بهدوء فوق المجموعات الأخرى، وينظرون هم أيضاً إلى مدينة بيت المقدس بوصفها مدينة مقدسة يبجلون في حرمها النبي، وينادون على المؤمنين للصلاة من أعلى أبراج النواقيس التي تحولت إلى منارات، ويراقبون المسيحيين في المدن المقدسة التي منحوها لهم، ويفرضون احترام بعضهم البعض بفضل ما لهم من سلطة لا ينكرها عليهم أحد، وهي عامل لتحقيق الموازنة وضرورية، ويصون هذا المزيج من العناصر المتنافرة ويمنعه من التداعي في الفوضى والدماء.

هذه هي المجموعات الأساسية التي تتنافس على هذا المشهد

Twitter: @alqareah

الضيق، ولا يسعني الدخول في التفصيل الممل للدسائس والنزاعات والمؤامرات التي تحاك وتتشابك كل يوم فوق حقل التنافر والتخاصم بين المجموعات. فقد أبقاهم التبشير الديني والمطامح الوقتية في هذه الحالة من الحمى الدائمة التي تفاجئ الأجنبي إلى حد بعيد، وسرعان ما تستحوذ عليه إن هو لم يحترس.

رحلة إلى بلاد الماضي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

غوستاف فلوبير

رحلة إلى الشرق

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

غوستاف فلوبير

الشرق والشفاء من الروح الرومانطيقية

ولد فلوبير في العام 1821، وتوفي في العام 1880.

عاد من رحلته التي قام بها مع مكسيم دو كامب بمذكرات تم الكشف عنها بعد موته، ويعود تأريخ آخر طبعة كاملة لهذه المذكرات إلى العام 1948. ومع أن فلوبير كان مسحوراً منذ زمن بالسراب الشرقي، إلا أنه لم يعثر على أرض الواقع ما يرضي أحلامه التي بقيت أحلاماً أدبية. وفي الواقع فإن فلوبير في هذا الصدد، كان يقف على مفترق طرق، إذ كتب ما بين 1845 - 1846، حكاية شرقية تحت عنوان أبناء الدرويش السبعة، ثم كتب ما بين آيار وأيلول 1849 (إغواء القديس سان أنطوان) وأدت ردة الفعل المنذهلة لأصدقاء فلوبير ونصيحتهم له بالالتفات نحو موضوع أكثر تحديداً، وذي طابع واقعي، في اللحظة التي كان يستعد فيها للمغادرة إلى الشرق، إلى انعكاس هذا الأمر على رحلته فجعلته حاقداً مزيفاً على الشرق الذي كان قد شعر مسبقاً بأنه قد انخدع به، والذي لم يعد مفيداً له، والذي صار يمثل مأزقاً أدبياً. وبالمقابل من مكسيم دو كامب الذي كان يكد من جميع الاتجاهات فيخط الحروف الهيروغليفية، ويصور المعابد، بدأ فلوبير شارد الذهن، يقلب في ذهنه ما ستؤول إليه روايته مدام بوفاري.

Twitter: @alqareah

علماً بأن اسم بطلة هذه الرواية قد خطر على باله بينما كان واقفاً على ضفاف النيل، ويفسر دو كامب الذي نقل لنا هذه الرحلة أنها قد عادت إليه دفعة واحدة وبقوة عندما كتب سالامبو.

Twitter: @alqareah

مدينة بيت المقدس

هذا هو اليوم الثالث الذي نمضيه في مدينة بيت المقدس، ولم يحصل لي بعد أي من الانفعالات المتوقعة مقدماً، فلا حماسة دينية، ولا إثارة في الخيال، ولا حقد الكهنة، والذي يعد هو بحد ذاته شيئاً متوقعاً، وإني لأحس أمام كل ما أراه بأني أكثر فراغاً من برميل.

في هذا الصباح عند قبر المسيح كان يمكن لكلب أن يكون أكثر انفعالاً مني.

على من يقع اللوم، على رب الرحمة؟ عليهم؟ عليك؟ أو علي؟ أظن أنه يقع عليهم أولاً، وعلي من ثم، وعليك في الأخص.

ولكن كم من الزيف في هذا! ويا لكذبهم! يا له من طلاء، وتمويه، ودهان صنعوه للاستغلال والإشاعات والترويج!

مدينة بيت المقدس هي ركام جثث محاط بالأسوار، والشيء الأول المثير للفضول الذي التقينا به هناك هو محلات الجزارة. فهناك داخل ما يشبه الساحة المربعة المغطاة بتلال من القاذورات حفرة كبيرة، وفي الحفرة هناك دم متخثر، وكروش، حيوانات، ومصارين مائلة للسواد والسمرة، حرقتها الشمس وانتشرت في كل مكان.

كانت تفوح من المكان رائحة قوية للغاية، وكان ذلك جميل من حيث أنه قذارة صادقة. وإليك ما قاله رجل يجيد عقد المقارنات وذو تلميحات ذكية:

Twitter: @alqareah

(إن أول ما رأيناه في المدينة هو الدم).

كان كل شيء صامتاً، ولم نكن نسمع صوتاً، ولا أحد يمر، وهنا وهناك على امتداد السور اتخذنا مكاناً لأنفسنا، وهناك يهودي بولوني طويل وملتح، يضع قبعته الكبيرة من وبر الثعلب على رأسه. كانت البازارات مغلقة، إنه البيرم(*) وهذا يستوجب عدداً من إطلاقات المدفع عند كل فرض من فروض الصلاة أثناء النهار والليل.

بدت واجهات المحلات وقد تآكلت بفعل التراب، وقد تهدم بعضها، وكانت هذه المحلات مغطاة طويلة وضيقة وحادة ومستقيمة، ولكنها أنيقة، جميلة المنظر.

كان كل شيء مقوساً في مدينة بيت المقدس، وكنا نمر من وقت لآخر تحت نصف قوس أو ربعه، وقد أقيمت المساكن تحت هذه الأبنية العتيقة. وفي كل مكان، كان هناك قوس فوق رؤوسنا، خلاف مشارف الحي الأرمني الذي كان جميلاً للغاية، وكان كل شيء فيه فسيحاً، وكانت الطرق فيه شبه مستحيلة على الخيول. وفي الشارع الذي كان يقع فيه فندقنا كانت هناك جثة كلب تتململ بهدوء تحت أشعة الشمس، دون أن يخطر في بال أحد دفعها إلى مكان آخر. وهناك الخم، كانت حيطان الجدران مخيفة ومن نوعية رديئة!

ولكن كان هناك على أية حال عدد أقل من بقايا الرقي مما كان في يافا.

كانت الخرائب في كل مكان، وتفوح رائحة الرمس والقنوط، فيبدو وكأن لعنة الله تحوم على المدينة المقدسة للأديان الثلاثة، والتي تموت من الضجر والركود والهجران. ومن وقت لآخر يمر أرناؤطي مسلح في هذه الشوارع الخالية المنحدرة، وتسطع الشمس

(*) العيد الإسلامي، والبيرم الكبير هو عيد الأضحى، والبيرم الصغير هو عيد الفطر.

Twitter: @alqareah

فوق الخرائب وعلى الحفر الواسعة. وهناك كما كان في صور أو صيدا ويافا وعلى الساحل برمته أطفال بوجوه جميلة، وفتيات صغيرات بوجوههن الشاحبة المحاطة بشعر أسود مهوش.

وكان دليلنا الشاب يوسف فتى مراهقاً، له ما بين الثامنة عشرة والعشرين عاماً، كانت عيناه السوداوان وهيئته الأنثوية جذابة، ويحمر خجلاً بتواضع ورقة، وكان الجنود الأتراك (حتى الباشا) مغرمين به، ويصيحون به عندما يمر قرب الأسوار:

ca wadja Iousouf ‹Ca wadja Iousouf guel bourda(55)

كان الدير الأرمني واسعاً ونظيفاً، وفيه أحواش داخلية عديدة، وشرفات وسلالم - وكان فيه أبنية للرهبان وأخرى للحجاج - وظهر لي أن الأرمني يتمتع بنفوذ كبير هناك في الشرق. وهناك الكثير من الأشياء غير المجدية، والتي تعبّر عن ثراء أصحابها، كوجود درابزين حديدي على الشرفات، كما أن الكنيسة كانت مدهشة بثرائها، وبلغ الذوق الرديء فيها عظمته. فهل يكفي الشيء أن يكون مبالغاً فيه كي يصبح جميلاً؟ تباً للذي لا يدرك ما هو الإفراط!

كساء من الخزف الأزرق بقامة رجل، أعمدة مربعة وعلى اليسار مصلى عكا، وقد تم تأسيس المكان حيث اضطهد فيه المسيح بدائرة، وتحت الصومعة المحاطة بالزهور والمشاعل ترى رأساً مقطوعة تحت إناء، وتشمل الصومعة المذهبة قاع الكنيسة كلها. وتشتمل على ثلاثة أقواس صغيرة يقع أكبرها في الوسط - كانت اللوحات بوجه عام رديئة، وتمثل صوراً للبطارقة - وفي الأعلى مشاهد من حياة المسيح، والقديسات العذراوات مع الطفل الصغير، وحولهن هالات من الفضة مثلهن مثل الطفل الصغير - كما ترى الوجه المرسوم داخل إطار من المعدن، وتضع إحداهن في إصبعها خاتماً ماسياً رائعاً - لوحة الشهداء، حيث يظهر الأشخاص الذين يجلدون سان اتيان، متوحشين وحشية متعمدة، فضلاً عن كونها مضحكة. ها هم (أشرار) حقيقيون:

Twitter: @alqareah

والأسد الذي كان يلتهم على جانبها قديساً، لا علم لي به، كما أنه أيضاً حسن للغاية، قد بدا أكبر من باقي جسمه، وقد بدا القديس لوران على مشاعل لا حدود لها. ومن جهة الباب لوحة لشهيد الأبرياء التي نتبين فيها على الأقل بعض النوايا، فثمة طفل عند المستوى الأول للوحة، وهو يموت متقيئاً.

وكلما تفحصنا هذه الكنيسة بالتفصيل يتلاشى الانطباع الأول، وإن عبارة هنري هاينه (الكاثوليكية هي ديانة الصيف) حقيقية وحسية وفي غاية العمق، إلا أن هذا لا يمنع ارتباط هذه العبارة بالنسبة لي بفكرة العصر الوسيط، ومن ثم ارتباط العصر الوسيط بفكرة المطر والضباب. آه أيتها الكنائس المسكينة في وطني، وحيطانها المخضرة بالشتاءات، كم أحبك! فعلى المستوى الديني لم يعد الأمر يرتبط بعالمنا نحن، إن لوثر عاد بروتستانتياً من إيطاليا ليون العاشر.

وجدنا في الكنيسة الإغريقية لقبر السيد المسيح الزخرفة ذاتها، وكانت شيئاً جذاباً حيث يضيء النور الساطع كل شيء، ثياب النساء البيضاء، العمائم والسترات الملونة للرجال، جماعات من الناس واقفة تستدير صوب المذبح، وبطارقة بلحى بيض، رجال إغريق أتوا ليقبلوا كل مشاهد المسيح الموجودة على الحاجز الذي يفصل الكنيسة عن الكورس الحقيقي. أما الكنيسة الأرمنية فمليئة بالآثار غير المألوفة، وهناك أكاليل طويلة من بيض النعام الملون المتدلية من السقف، وعلى الباب إلى اليسار، جرس من الفلز، صفيحة يدق عليها عوضاً عن النواقيس.

وهناك شارع يقود إلى منزل يونس بيلات أنه شارع (حنا ـ حارت ـ حاتا)، منزل فيرونيك على اليمين، منزل منخفض ذو بوابة صغيرة نصف مطمورة في الأرض، مثل المنازل الأخرى، ومنزل يونس بيلات، ثكنة واسعة، إنه السراي، كنا نرى من شرفته العليا مسجد عمر فوق موضع محدد.

وفي صباح اليوم التالي، نهضنا في الساعة السادسة، وذهبنا

Twitter: @alqareah

لنرى يهوداً يبكون أمام بقايا حيطانهم، هذه الحيطان المشيدة عند القاعدة، أحجار هائلة، تذكرنا بالجهود الضخمة التي بذلت لبناء الأهرامات في مصر. إنها مربعة ومزينة بتجويف مربع الأضلاع، يشبه التجويف الذي يعمله النجار بمنجره على الأبواب - يهودي عجوز في أحد الأركان رأسه مغطى بثوبه الأبيض، قدماه عاريتان، بينما كان يرتل شيئاً في كتاب، وظهره يستدير صوب الحائط، ويتمخطر على عقبيه. وهناك البناء ذاته، والحائط ذاته على الجهة الأخرى من المعبد على الجانب الشرقي، وما إن مررنا من هناك حتى التقينا بيهود آخرين كانوا بلا ريب عائدين من المكان ذاته.

حلقت ذقني لدى الحلاق الذي كان يحلق لي وهو يضحك دون أن أعلم السبب في ذلك. لقد حلق لي بالماء الساخن، وهناك دخنا الشيشة في أحد المقاهي، وعند مغادرتنا للأريكة الخشبية التي كنا نجلس عليها، لمحنا حوضا كبيراً مربعاً (حوضاً أو سلماً) مليئاً بالمياه المائلة للخضرة، ومحاطاً بالأسوار المحفورة هنا وهناك. وفي أماكن قليلة كانت هناك نوافذ صغيرة غير منتظمة، إنها الأسوار الخلفية للمنازل التي تحيط بها.

رجعت إلى الفندق، قرأت عذابات المسيح في الأناجيل الأربعة - القيلولة - تناولنا الغداء عند (بوتا) رجل من الخرائب. رجل الخرائب في مدينة الخرائب ينكر كل شيء، وبدا لي بأنه يكره كل شيء إلا الأموات، ويستعيد العصر الوسيط، وهو معجب بدو مايستر، وهو يتعلم البيانو حالياً، ويعترف بأنه ليس حفار قبور. إنها مرحلة من حياة هذا الرجل الذي أتعبته التجارب، وتمثل حياته نسيجاً من هذه التجارب، فقد عمل طبيباً، وعالم طبيعيات، وعالم آثار، ومن ثم قنصلاً، وبعد أن جرب هذه الميادين لم يعد يرغب بتجربة غيرها، أو هذا يكفي، فلتكن الإنسانية على شاكلتي. هذا ما يقوله كل أولئك الذين لم يستطيعوا الهيمنة عليها أو فهمها. وقام سيادة المستشار، والذي كان ذا ميول كاثوليكية جديدة، ومن أنصار الموسيقى الجادة، وهو يجهل هوميل Hummel وسبوهر Spohr

Twitter: @alqareah

ومندلسون Mendelssonn بأن أزعجني بعزفه مقطوعات لهاندل، مع أني لم أطلب منه عزفها لي، فقد كانت يده اليمنى تعزف على نحو أسرع من يده اليسرى، إنهم حقاً أناس مساكين.

قبر السيد المسيح

الخميس زيارة إلى قبر السيد المسيح

أثارنا المظهر الخارجي بأجزائه الرومانية، وخابت توقعاتنا على المستوى الآثاري. كانت مفاتيحه بيد الأتراك، ولولا هذا الأمر لتصارع المسيحيون بجميع مذاهبهم عليه. كان الحراس ينامون في داخله، وبالقرب من الباب على أريكة، ولكنك ترى الكنيسة مغلقة:

(إذ أنها تبقى مغلقة كل أيام الأسبوع، عدا يوم الأحد).

عليك أن تمر برأسك عبر إحدى هذه الثقوب التي صنعت لهذا الغرض في الباب، وعند ذاك ترى حجارة المروخ تحت مصابيحها، وترى رجالاً أتراكاً على أرائكهم، وتتبادل الحديث معهم. وجدنا صاحبنا الإيطالي اللاجئ في قبر المسيح، إذ حبس نفسه فيه عمداً، أو يعيش هناك ليل نهار مؤقتاً طبعاً، كي يستلهم من شاعرية هذه الأماكن شيئاً، فيا له من فنان أنا أظنه بالأحرى وغد حقير، ويحتال على الآباء اللاتينيين، كي يأكل لفترة طويلة في ديرهم بالمجان.

وهناك شيء هيمن على ما سواه، إنها اللوحة، التي تصور شخص لويس فيليب كاملاً، والتي كانت تزين قبر. المسيح، يا له من مضحك، إذن أنت مثل الشمس، وتهيمن على العالم برؤيتك وضيائك المتألق الممتد حتى قبر المسيح. وما يدهش أكثر من غيره بعد ذلك، هو الفصل الواقع بين الكنائس، فهناك من جهة الإغريق، ومن ثم اللاتين، والقبط، وهو فصل واضح.

إنه اجتماع اللعنات المتبادلة، وقد ملأني هذا بالكثير من البرود والسخرية من أني غادرت المكان دون أن أفكر بأي شيء آخر،

Twitter: @alqareah

وسأل مسيحي هناك الترجمان الذي كان بصحبتنا إن لم أكن باشا، وقاني الله من حمل أية فكرة متعجرفة. فقد كنت أذهب إلى هناك ببلاهة وطبيعية وبلا هيجان وبكل تواضع قلبي الهادئ. أكانوا سعداء كل أولئك الذين ذرفوا الدموع بحب سماوي هنا!

ولكن من له علم بمغادرة المريض من خيبات العصر الوسيط، وبمرارة الحجاج في الماضي، وما شعروا به عندما كانوا يُسألون من قبل أولئك الذين كانوا يرمقونهم بحسد:

(حدثونا عما رأيتم حدثونا).

احذر الحجي (مثل عربي).

لقد حرّم على الأرمن الذين يحجون إلى مدينة بيت المقدس، وتحت طائلة التحريم أن يتحدثوا لدى عودتهم عن رحلتهم، خشية أن يثير ما يقولونه التقزز لدى أخوتهم، ويدفعونهم إلى العدول عن الذهاب إلى هناك. مسيو دو بوجلان، إن خيبة الأمل إن حصلت، سوف أسقطها على نفسي وليس على الأماكن.

عند عودتنا دخلنا إلى الكنيسة البروتستانية، كان فيها رجال يرتدون الأسود ويجلسون على مقاعد على الجانبين، ورجل آخر يرتدي ياقة الكهنة، ويجلس على المنبر إلى اليسار ويقرأ الإنجيل. كل الجدران كانت عارية، وكان المكان يشبه مدرسة ابتدائية أو صالة انتظار في محطة للقطار. أفضّل الأرمن والإغريق والأقباط واللاتين والأتراك والفيشتوا والفتش وياماكان على هؤلاء. وداعاً، أسعدتم مساء، هذا يكفي، فلنخرج من هنا، فما إن بقينا ربع دقيقة حتى أصابني ضجر حقيقي عميق.

وبعد الظهر ذهبنا مع ستيفانو وأسوف ويوسف وساستي واثنين من المكاريين (البغالين الذين يكرون البغال) لزيارة أضرحة الملوك، وجبل الزيتون، وسيلوه، ومنزل كايف.

Twitter: @alqareah

في الغرب من المدينة كانت أضرحة الملوك، دخلنا إليها عبر ما يشبه مغارة مفتوحة فتحة على اليسار، حيث يتوجب الانحناء للمرور. إنها سلسلة من الصالات (هناك طابقان) فيها تجاويف في الحائط، المدخل صغير ومربع - وكل قبو صغير يضم عادة مكاناً لثلاثة توابيت واحد في القاع واثنان على كل جانب - وعلى جانب هذين الآخرين هناك ثقوب صغيرة في الحائط على شكل هرم مجوف، صنعت لاحتواء المصابيح الرمسية، فبعد أن رأيناه في مصر لم نعد نرى سوى الرديء جداً، إنه عمل ماهر لقلاع الحجارة، وهذا كل ما في الأمر. كانت حديقة الزيتون عبارة عن أرض مسورة بجدران بيض، تقع أسفل الجبل الذي يحمل الاسم نفسه. ريح شديدة، كانت أشجار الزيتون بأوراقها الشاحبة الفضية تهتز، وكان النسيم لاسعاً، رغم الحرارة، طريق أبيض للغاية، والسماء ضاربة للزرقة، وفي الأعلى هناك من فوق المنارة المهيمنة على جبل الزيتون مشهد لمدينة بيت المقدس، حيث ترى المدينة المدرجة تمتد من الغرب إلى الشرق، ثم تنحني من جهة الأضرحة، ومن جهة وادي يهوشافاط الذي يغير اسمه عند عين سيلوه ويصبح وادي قدرون. وفي مسجد الصعود أتى رجل عجوز له أنف مهرج، يرتدي معطفاً أصفر، ليفتح لنا، ورأينا حجراً محاطاً بإطار من الأحجار، يرى المؤمنون عليه أثراً لقدم المسيح، ففي هذا المكان وثب صاعداً نحو السماء. في هذا المكان عند المساء ذهبنا لزيارة بوتا، فوجدناه بصحبة أب اللاتين المبجل.

الاثنين - غادرنا في السابعة والربع إلى بيت لحم، وكان الطريق جميلاً إلى حد ما حتى دير إيليا الإغريقي.

وفي الدير لم يكن هناك سوى المربيات والقهوة، ورجل طيب نوعاً ما، وهو الباباس الإغريقي ذو اللحية البيضاء، والذي بدا لي منبهراً بالفكرة الحاذقة التي عرضها عليه مكسيم وهي أن البروتستانتيين الذين كانوا في الأصل يهوداً، تحولوا عن دينهم،

Twitter: @alqareah

وكيف أن هؤلاء يوشكون أن يصبحوا أسياداً لمدينة بيت المقدس. ومن هنا حتى بيت لحم، كانت الطريق حجرية جبلية تشبه الصحراء، ومن وقت لآخر نرى عدداً من نساء بيت لحم بملابسهن المقلمة، وقد وضعن على الصدر قطعة مربعة بلون الحديد، إنهن الفتيات اللواتي يضعن حول رؤوسهن وشاحاً من قطع ذهبية، وترتدي النسوة قلانس فيها عروتين برأس مدبب تغطيان الأذنين، وعند الجهة الأخرى نضدن قطعاً معدنية الواحدة فوق الأخرى، ومن الخلف هناك قطع أخرى تتدلى كأنها خيوط ميداليات كبيرة، أما النطاق العلوي للقلنسوة، فهو من اللباد السميك، ويصبح عند الأغنياء محاطاً بحلقة من الذهب.

بيت لحم قرية كبيرة من الأحجار، وأمامها وادي، أو بالأحرى قمع واسع، ومضايق، ثم مضايق أخرى، تؤدي إلى الأولى، أو تنطلق منها - شيدت القرية من الأحجار إنها أبنية متينة عند الدخول إليها. شاهدنا نساء ينهلن الماء من بئر وسط الجمال، وعلى اليسار كان المكان منفراً إذ كانت فيه مراحيض المدينة - ومن هناك رأينا في مكان ليس بعيداً، ومن الحقل الذي كان في الأسفل، نساء ينشدن بوجع. كانوا يدفنون ميتاً، وعندما وصلنا إلى الكنيسة الأرمنية كان يُقرأ فيها قداس الأموات - كان سقف الكنيسة من الخشب، وكان الجزء الأول منها منفصلاً عن الباقي بحائط وأعمدة مستديرة، وتيجان أعمدة عليها ورقة السنبل، مطلية، قبيحة المنظر، وصفّين من الأعمدة على كل جانب، وبقايا موزاييك غير واضحة. كما رأينا في قبر المسيح الأرمن على المصلى الأول على يسار المدخل، والإغريق في المصلى الكبير، في الوسط والصغير على اليمين، واللاتينيون منفصلون عن الاثنين الآخرين، وهم تافهون إلى حد يبعث على اليأس، مع احترامي لمغارتهم في سان جيروم الفقيرة والمظلمة. كان في الكنيسة الإغريقية رافدة مذبح مصنوعة من الخشب المصقول، والمنحوت، والمذهب، كما كانت البوابة التي في

Twitter: @alqareah

الوسط مذهلة بأكملها، وهناك بين رافدة المذبح لوحات، فهذا سان جان يمسك بيده اليمنى طبقاً عليه رأسه المقطوع (أيكون هذا تأليهاً).

وهل لهذا السبب قاموا برسم أجنحة له في المكان الآخر؟

وعلى اليمين صور تمثل سان نيكولا، وسان سيبيردون واقفين معاً، ومن الوجه زيّن الطابق الثاني في الجزء العلوي من رافدة المذبح بلوحات أصغر من تلك التي تمثل مشاهد من حياة المسيح، وعلى مستوى استناد الرافدة وبخط ينزلق على الدرابزين، هناك لوحات من الطراز ذاته محمولة في إطار وضعت ليقبلها المؤمنون.

ومن الركن على اليسار، قبالة رافدة المذبح هناك لوحة لإبراهيم وإسحق، وعلى المستوى الأول من اليمين كان إبراهيم يصلي إلى الرب، وعلى اليسار كان يسير مع إسحق نحو مكان القربان مع الحمار الذي يحمل الحطب وينحني رأسه على الأرض (لكي يمكنه من السير بشكل أفضل أو لكي يرعى)، وفي المستوى الثاني يحمل إسحق الحطب على ظهره وبيده السكين.

وفي المستوى الثالث، كان إسحق ممدداً، وإبراهيم يهم بذبحه، وهناك خروف مربوط بحبل أسفل إحدى الأشجار. وفي كل اللوحات ترى إبراهيم وإسحق وقد أحيطت رؤوسهم بأقراص ذهبية، ما خلا إسحق عندما يكون ممدداً، ويتهيأ للذبح.

وهناك لوحة من النوع ذاته، في جهة اليمين في مدخل المشهد قرب المصلى الإغريقي الثاني، وفي وسطها (إطارها نصف كرة) العذراء، وقد نزل الحبل عليها بشكل لسان طويل من النار. وفي وسط الصدر يقف المسيح وذراعاه تمتدان مثلها، وهو في سن النضج. كان محمولاً على ثنية ثوبها الممتدة من ذراع إلى أخرى، كما أن العذراء هي نفسها موجودة وسط قرص الهالات الرمحية المضيئة، وفوق الحبل يحلّق الأب الرب إلى القمة، ونحو هذه الهالات

Twitter: @alqareah

ينحني البطارقة والأنبياء على الجانبين، وينظرون إليه وهو ينزل على العذراء. وتشغل هذه اللوحة المشاهد المختلفة لحياة المسيح، وتشغل العذراء المركز فيها ولكنها تفتقر بطبيعة الحال إلى أية علاقة مأساوية مع باقي اللوحة. وبالقرب من المصلى الثالث أو المذبح الثالث في الكنيسة الإغريقية هناك عذراء رائعة بيزنطية مع طفلها الصغير، وكانت الحاجبات المكسوة مغطاة بقماش البروكار المرصع بكومة من الأشياء البراقة. وكانت العذراء تضع وشاحاً أسود من شبكة (أي تغطي رأسها كما تفعل النساء عندنا)، عليها أشرطة فضية، ويخرج من إكليلها المحشو بالزينة مايشبه ذيل الطاووس. كانت بعينين زرقاوين، وهي ثقوب رسم عليها رأس طفل ملاك.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

إدوارد شوره

مزارات الشرق

1898

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

إدوارد شوره

قدسية الشرق والبحث عن المصير

ولد إدوارد شوره في العام 1841، وتُوفي في العام 1929.

كان هاوياً متحمساً لموسيقى فاغنر، أشاع في فرنسا المأساة الموسيقية، وباشر كذلك بوضع تأريخ باطني للأديان، وقد أهدى كتابه (الأماكن المقدسة في الشرق) إلى الشبيبة الحرة. وكتابه هذا هو أكثر من كتاب في الرحلة، فقد قدمه على أنه وصف للشرق الذي طالما عاشه من خلال أفكاره.

فهذا الكتاب الذي يحمل عبارة توجيهية فضلاً عن عنوانه، هو عهد تربوي، عهد به على نفسه، ليقوم بمهمة تعليمية ذات ثلاثة أبعاد هي: هي العلم والفن والعائلة.

ويتعلق الكتاب بالحياة الشاملة، والحقيقة الكونية، وهو بإشارته إلى هذه التوليفة المعالجة، إنما أراد أن يريح الضمير المعاصر بقوله:

(نحن نبحث دون علم منا، وبولع في هذا المهد لأعراقنا، وعلومنا، وفنوننا، وحضارتنا، وديننا، عن مفتاح مصائرنا).

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

مزارات الشرق

مدينة بيت المقدس

لم يكن هناك في المدينة المكفهرَّة أية عربة تسير، أو عابر سبيل، بل نواقيس تدوي أصواتها في الهواء، كانت الأزقة ضيقة مثل خنادق صغيرة لا ترى أعماقها، فلا ورد ولا حدائق سوى شجرة سرو وحيدة هنا وهناك في المرج العاري، وقناطر خالية حولها. وكانت المنازل شبه خالية من النوافذ، وتضيق حول بعضها البعض عقب رعب المصائب الماضية أو في انتظار الأمجاد القادمة.

وكانت شرفاتها ذات الدرابزينات تعلوها القبب الصغيرة، وكانت هذه التحدبات البيضاء تضفي على المدينة ـ لمن يراها من الأعلى ـ هيئة المقبرة الإسلامية. بيد أن ما يلفت النظر هو قبتان ضخمتان سوداوان تهيمنان على جميع القبب الأخرى، تنتصب الأولى في مركز المدينة ـ إنه القبر المقدس أو ضريح المسيح ـ وتشغل الأخرى موضع معبد سليمان، وعند الزاوية الجنوبية هناك مسجد عمر، وضريح يهوه، وتختفي منازل الأحياء، وتنطمس تحت أضرحة الآلهة. كانت هاتان القبتان الحالكتان تضفيان على مدينة بيت المقدس طابعاً فريداً ـ أي سمتها الحزينة المؤسفة وتطلعها غير اللائق.

كانت المدينة المقدسة هناك تصلي، وتنتظر غائرة بين جبالها مع كل قبابها شبيهة بخيم بني إسرائيل الكالحة بسبب إشعاع شمس المشرق، ويحيط المدينة دهليز من الروابي الشديدة الانحدار بلون

Twitter: @alqareah

أخضر شاحب، مرصعة بالكنائس الصغيرة، والأديرة، والمستشفيات بأفق السوداوية والندم. وهناك من بعيد، وخلف جبل الزيتون، خط أفقي أزرق غامض عالٍ في السماء يستوقف النظر مثل حائط القدر، إنها سلسلة جبال مؤاب.

في الأيام الأولى تجولت في مدينة بيت المقدس من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب دون أن أغادر أسوارها، وكان يراودني شعور من يقطن في دير أو ثكنة أو سجن. كنت أختنق وأشعر بالقلق من مدينة النائين والأسرى والحراس الغيورين، ومقابل هذا كنت أحلم بمعابد من المرمر الأبيض وبأبطال الرياضة العراة تحت الشمس، والفرسان الأحرار في سهول السبسب في العالم الجديد. وكنت عند عودتي في المساء إلى صمت الدير، أشعر بنوع من الارتياح بين الفرنسيسكان الأبويين الضاحكين، لأني لن أرى بعد كل هذا الحزن المكتوب على الأحجار والوجوه.

كانت المدينة صارمة وصامتة، وإن المرء يضيع بين دهليز أزقتها الضيقة التي تصعد وتهبط في التواءات المنازل العالية ذات النوافذ الشبيهة بالثقوب والمغطاة بالقضبان الحديدية أو الخوص، وتندمج الأحجار الرومانية في هذه الأسوار مع الأحجار المسيحية والإسلامية التي غالباً ما تهدمت، ولكنهم عادوا وبنوا على الأطلال منازل على طراز القلاع. وتجد في كل لحظة ممرات تزحف بلاطاتها تحت المنازل، فهنا ترى قوساً يعود إلى زمن هيرودتس يشرف على الشارع، وهناك جانب من حائط سارزين يمتطي الشارع وينظر إليك بحقد من خلال منافذ الرمي الحديدية، وعلى مسافة أبعد هنالك دير يسد الطريق ببابه ذي القوس القوطي المغلق، يعلوه تمثال المسيح المصلوب. وإنك لتتيه تحت أروقة الكنيسة حيث يركع القساوسة للصلاة بين الشموع، وتضيع في الأنفاق الطويلة والبازارات والأسواق حيث تضيء المصابيح المناظر المظلمة، وحيث يعج البدو والجمال دون أن يرى بعضهم البعض في طرق ضيقة لا تنتهي، وإنك لترى في كل مكان كلاباً سائبة لا سيد لها، كلاباً صفراء نحيفة مثل

Twitter: @alqareah

بنات آوى محنطة، وكانت هذه الحيوانات المسكينة تنام جائعة هنا وهناك على القاذورات وهي تتوسل بعيونها الذابلة الخائرة العزيمة.

اليهود

الحي اليهودي المحشور بين حي الأرمن وحي المسلمين وحرم مسجد عمر، هو الأكثر غرابة في شكله، إذ يسكنه شعب حقير يتكاثر في دهليز من الأزقة، ويتراكم في منازل أبوابها واطئة، ونوافذها مشبكة بالقضبان لا تسمح بنفاذ شعاع النور. وأغلبية هؤلاء اليهود هم من السفارديم أو اليهود القادمين من بولونيا، لهم عيون زرق، وشعر أشقر، كان شبابهم يرتدون قبعات من القطن مدببة، وسترة لاوية (سترة طويلة تشبه ثوب الكهنة اللاويين) بنية، وضيقة عند الخصر، ويلبس فقراؤهم معاطف بلا أكمام، وتجارهم كبار السن يرتدون معاطف الفراء البالي، بينما يسير الحاخامات في دلماسية مشجرة، بخطوات وئيدة. ولجميعهم تقريباً الشباب والمسنون تسريحة الشعر المجعد، وتنسجم هذه التسريحة مع ملامحهم الدقيقة والمتميزة، وتضفي على جميع هذه الوجوه شيئاً من الأنوثة. وإنك لتخال رؤية الغطرسة من تحت العبودية، والغنج مع القبح المخيف، ولكن يا لها من تجاعيد أسطورية وأنوف معقوفة، تتبينها تحت هذه القبعات المصنوعة من الفراء الطويل الوبر. فتحتها رؤوس مرابين مرائين عظيمة، وقد جردوا من قوتهم فيلقون عليك نظرات ماكرة وعدائية من خلف نظاراتهم.

يعيش الشباب والشيوخ من هؤلاء اليهود محشورين في غيتو، ومع ذلك فإن هذا الحشد البائس الذي تدعمه أنشطة الأليانس الإسرائيلية العالمية يزداد على الدوام، ويشكل الغالبية من الشعب. فالاضطهاد دفع بهم نحو الأرض المقدسة، فضلاً عن الرغبة في أن لا يدفنوا بالغرب وأن يدفنوا في وادي يهوشافاط. كما يمنع أي يهودي من الدخول من خلال قضبان الحرم الشريف إلى داخل المعبد

Twitter: @alqareah

القديم، إذ سيتعرض آنذاك إلى القتل من قبل الجنود الأتراك، مثلما هو ممنوع على المسيحيين التجرؤ والدخول إليه دون حماية موظف القنصلية. كما أنه سيكون من العار عليه رؤية معبد سليمان وقد أبدل بمسجد عمر، فضلاً عن أنه سيخاف من السير على قديس القديسين المخصص للكاهن العظيم، وذلك لأنه مهما دنس أعداء شعب الله هذا المكان فإنه يبقى في تفكير إسرائيل مخصصاً ليهوه. ولذلك فإنك غالباً ما ترى وجه الحاخام الشيخ قد امتقع وتحركت تجاعيده من ارتعاش الغضب أمام نظرات الأجنبي المتفحصة.

ما إن نعبر حي اليهود إلى حي المسلمين حتى نلحظ سريعاً تغير الجنس والدين والمناخ الأخلاقي، فهذا الحي يشبه جميع بازارات الشرق. هنالك الشوارع البيتورسكية الطويلة القذرة المظللة بالحصر، والبدو طوال القامة، وهم يسيرون بفخر ولا مبالاة، لهم هيئة جانبية تشبه هيئة العقاب، وبشرة محترمة، يسحبون خلفهم معاطفهم الطويلة البنية في الغبار. ونرى كذلك نساء مصر يجلسن مقرفصات، لهن أثداء متدلية، ونظرات تشبه نظرات الحيوانات، وهناك عرب بلحى بيضاء، جميلون مثل البطاركة، ففي الفكرة البسيطة والهدوء العظيم الذي يغلف حياتهم، والبرنس الذي يلفون به أجسامهم، ترى النبي إسماعيل بهيئة من يقول:

(مروا يا أيها المسيحيون ويا أيها اليهود فمن كان بإمكانه أن يمنع العماد خيراً من الله؟ إنه هو الذي نعبده. مروا أيها المسيحيون ويا أيها اليهود نحن بنو الخيمة ستسقط مدنكم خراباً وسترحلون كالغبار، ولكن الصحراء الشاسعة والخيمة التي تسافر لن تتغير مثل الله، نحن بنو الله والصحراء).

الحي المسيحي

أما الحي المسيحي فهو مختلف للغاية، فالعالم اليهودي والعالم الإسلامي يتسمان جميعهم بملمح وحيد وقوي، أما في الحي المسيحي فعلى العكس فإن كل شيء فيه من صروح وملابس ووجوه

Twitter: @alqareah

تحمل سمة الاختلاف، والنزاعات الداخلية، والعمل المتواصل الذي يشطر العالم المسيحي، فضلاً عن وجود أخلاقية وذهنية أشد تركيزاً. فهناك فوق المساحة الصغيرة للقبر المقدس حيث نهبط عبر سلم كما لو كنا نهبط إلى الخندق، مواكب الحجيج القادمين من كل بلدان العالم، ومن جميع الكنائس المسيحية. وهناك يتقاطع الكهنة مع المؤمنين بين عروض الحاجيات المقدسة، فالكهنة الإغريق يمتازون بهيئتهم المتسلطة تحت قبعاتهم الواسعة السود، ويبدون كما لو أنهم يفكرون:

(نحن الأسياد هنا منذ عهد بيزنطة ولن نتخلى عن منطقة نفوذنا).

وتعبر أشكال الرهبان والقساوسة اللاتينيين عن حياة دينية نشيطة، وتبشير محتدم، فهذه العيون التي تلمع بالإيمان الحي، تبشر بإدعاء حبر روما وخليفة القديس بيرو ويسوع المسيح بالهيمنة الروحية على العالم.

إدوارد شوره

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

آرنست رينان

حياة المسيح

1867

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

آرنست رينان

الاستشراق وروح المسيحية

ولد آرنست رينان في العام 1823، وتُوفي في العام 1892.

بعد تخرجه من الحلقة الدراسية لسان سوليبس، حصل رينان على جائزة فولني في العام 1848 عن مؤلفه الضخم (مقالة تاريخية ونظرية حول اللغات السامية) وقد بقي مخطوطة مدة طويلة.

في العام 1852 تقدم بأطروحة الدكتوراة حول (ابن رشد) وفي السنوات التالية ساهم في العمل في المكتبة الوطنية، وشارك في مجلة العالمين، وفي صحيفة المناظرات. اقترح عليه نابليون الثالث القيام ببعثة إلى سوريا في إطار الحملة العسكرية التي أرسلتها فرنسا لحماية المسيحيين، وعندما وصل رينان إلى بيروت في الثامن من تشرين الأول بصحبة شقيقته هنرييت أقام في عمشيت، وأشرف على التنقيبات التي أجريت في بيبلوس حتى شهر كانون الثاني من العام 1861، ثم انتقل إلى صور، وسافر في شهر أيار إلى فلسطين، ثم قام بنزهة إلى جبل لبنان في حزيران.

باشر رينان بكتابة حكاية آلام المسيح، وما أن عاد إلى بيروت، وإلى عمشيت في أيلول حتى أصيبت شقيقته بمرض خطير. وبينما كانت تحتضر كان أخوها قد بدأ بكتابة حكاية آلام المسيح، ثم أصيب هو أيضاً بحمى جعلته يهذي. وماتت أخته في صبيحة

Twitter: @alqareah

الرابع والعشرين من أيلول، وانتقل هو إلى بيروت بعد أن أغمي عليه، وتم ترحيله إلى فرنسا.

عين رينان بروفسوراً في الكوليج دو فرانس، ولكن بعد أن ألقى محاضرة ينكر فيها ألوهية المسيح، ووصفه بالإنسان الذي لايضاهى، تم تعليق محاضراته، ثم طرد من الجامعة.

صدر كتابه حياة المسيح في الرابع والعشرين من حزيران من العام 1846، وقد نال نجاحاً واسعاً.

قام بزيارة شخصية للشرق برفقة زوجته، وزار القاهرة والإسكندرية، وصعد النيل نحو الفيلاي، ثم عاد إلى القاهرة. وزار بيروت والأراضي المقدسة، وكتب كتباً مهمة مستوحاة من رحلته إلى الشرق.

Twitter: @alqareah

الغنوصيون

لم تزل الناصرة حتى يومنا هذا مكاناً رائعاً للإقامة، لعلها المكان الوحيد في فلسطين الذي تشعر فيه الروح بأنها تحررت من الثقل الذي يعتصرها وسط هذا القنوط الذي لا مثيل له. فالناس في هذا المكان ودودون وبشوشون، والحدائق فيها يانعة الخضرة، وقد وضع أنطوان مارتير في نهاية القرن السادس لوحة ساحرة لخصوبة ما يحيط بالمكان، مقارناً إياها بالجنة.

تترامى بعض الوديان الواقعة على الجانب الغربي منه، والينبوع الذي كانت تتحرك حوله حياة وحيوية المدينة الصغيرة قد تهدم، وصارت قنواته المشققة لا تعطي سوى الماء العكر. بيد أن جمال النساء اللواتي يتجمعن حول الينبوع ليلاً قد تمت ملاحظته في القرن السادس، في هذا الجمال الذي تتبين فيه هبة العذراء قد بقي على حاله على نحو يدعو للدهشة. إنه نموذج الجمال السوري بكل رشاقته المليئة بالخدر الحالم، وليس هناك أدنى شك في أن مريم العذراء كانت تأتي إلى هنا كل يوم تقريباً وهي تحمل جرتها على كتفها، متخذة مكاناً لها بين رفيقاتها اللواتي بقين في الظل. ولاحظ (أنطوان مارتير) بأن النساء اللواتي يحتقرهن المسيحيون في الأماكن الأخرى تجدهن ممتلئات بالبشاشة، وحتى في أيامنا هذه نجد أن الأحقاد الدينية أقل حدة في الناصرة مما هي عليه في الأماكن الأخرى.

يبدو أن الأفق من هنا ضيق، بيد أن المرء إذا صعد قليلاً، وبلغ الهضبة المعرضة لهواء الجبل والتي تهيمن على أكثر المنازل

Twitter: @alqareah

ارتفاعاً، يصبح أفق المشهد أمامه رائعاً، وتنبسط على جهة الغرب خطوط جبل الكرمل الرائعة، والتي تنتهي برأس حاد يبدو وكأنه يغوص في البحر. ومن ثم تمتد القمة المزدوجة التي تشرف على مجدو وجبال نابلس بأماكنها المقدسة التي تعود إلى عصر البطارقة من جبال (جيلبوه Gelboe) هذه المجموعة البيتورسكية التي ترتبط بها الذكريات الجميلة والذكريات الرهيبة لـ(سويلم) و(عين دورة)(*) و(جبل التابور) بشكله المستدير الذي كان الأقدمون يشبهونه بالثدي. وبالإمكان أن نتبين من خلالها إحدى المنخفضات الواقعة بين جبل (سولين) وجبل (التابور) ووادي (نهر الأردن) وسهول (بيرا) العالية التي تشكل الجانب الشرقي من الخط المتصل.

وهناك في الجانب الشمالي جبال (صفد)، وهي تميل نحو البحر وتحجب (مار جان عكا) إلا أنها تفسح المجال لرؤية خليج حيفا. هذا هو الأفق الذي كان المسيح يراه، وهذه الدائرة المسحورة حيث ملكوت الله، حيث كان يتجلى له العالم خلال سنوات طوال، حتى إن طفولته لم تكن تخرج إلا قليلاً من الحدود المألوفة. إذ أن بإمكان المرء أن يرى في ما وراء الجانب الشمالي وعلى سفوح حرمون قيصرية فيليبس وحدها الناتئة من عالم الوثنيين، ويشعر بوجود جبال يهوذا الحزينة على الجنوب خلف جبال السامرة العابسة، والتي حفت بفعل الرياح التمردات القاسية الحارقة والموت. ولو كان العالم قد بقي مسيحياً، مع إدراكه لمفهوم أفضل مما يعنيه احترام الأصول، وأراد أن يستبدل الأماكن ذات القدسية المزيفة الشحيحة التي ارتبط الورع الديني بها منذ العصور البدائية، بأماكن مقدسة حقيقة أخرى، فعليه أن يبني معبده فوق مرتفعات الناصرة هذه. فهناك وعند النقطة التي شهدت ظهور المسيحية، وفي المركز حيث سار نشاط مؤسسها ينبغي أن تقام الكنيسة العظيمة، حيث سيكون بإمكان جميع المسيحيين أن يصلوا فيها.

(*) عين دورة هي موضع في فلسطين يقع جنوب جبل التابور، وعرافة عين دورة ذكرت في التوراة (صاموئيل الأول الجزء السابع والعشرين)، وهي التي أظهرت إلى سويل شبح صاموئيل الذي أعلن اندحاره وموته في معركة جيلبوه.

Twitter: @alqareah

وهناك أيضاً على هذه الأرض، حيث رقد يوسف النجار وآلاف من سكان الناصرة المنسيين الذين لم يجتازوا واديهم، سيكون الفيلسوف في موضع أفضل من أي موضع آخر في العالم، كي يتأمل أحوال البشر ويواسي نفسه من الكذب الذي تلحقه هذه الأحوال بميولنا العزيزة علينا، وأن يطمئن على الهدف السماوي الذي يتبعه العالم رغم الإخفاقات العديدة، والغطرسة الكونية.

هناك طبيعة أخاذة تسهم في تكوين هذه المروج التي تتسم باعتدالها، وبأنها إن جاز لي القول أقلّ توحيدية في هذه الطبيعة التي أضفت على جميع أحلام الجليل مظهراً مثالياً جذاباً. وإن أكثر مناطق العالم خوفاً هي المنطقة الواقعة جوار مدينة بيت المقدس، وعلى العكس منها نرى أن الجليل هو بلد أخضر وظليل وضاحك للغاية. إنه حقاً بلد نشيد الإنشاد، وبلد الأناشيد التي تتغنى بالحبيب، إذ يصبح الريف فيها في شهري آذار ونيسان بساطاً أخضر، وتكتسي ألوانه نقاوة لا تضاهى، وإن الحيوانات في هذا الريف صغيرة الحجم، بيد أنها في منتهى الرقة، فهناك الترغلات الرشيقة الحية، والشحارير السوداء الخفيفة التي تحط على الغصن دون أن تثنيه، وهناك قبرات لا تهاب الدنو من المسافر، وسلاحف الجداول الصغيرة بعيونها المتقدة الناعمة، واللقالق التي كانت لها هيئة مستحبة رصينة. فهي ما إن تتجرد من خجلها حتى تترك المرء يقترب منها، وتبدو كأنها تدعوه، وليس هناك أي بلد في العالم تنبسط فيه الجبال بمثل هذا التناغم، وتوحي بما توحيه هذه من الأفكار الرفيعة.

يبدو أن المسيح قد أحب على نحو خاص هذه الجبال، إذ أن أفعاله الأكثر أهمية قد جرت عليها، وهي أفضل مكان يلهمه. فعليها أقام مع الأنبياء القدامى مباحثاته السرية، وكان يظهر على أتباعه، وقد تغيرت هيئته.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

بيير لوتي

مدينة بيت المقدس

1895

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

بيير لوتي

الرحالة المبرأ من السحر

ولد بيير لوتي في العام 1850، وتُوفي في العام 1923.

إن هذا المؤلف الذي نسته الثقافة المعاصرة قد عبّر نيابة عن جيل بأكمله عن الجاذبية السوداوية لاستنبول، وفي مجموعة من الكتب التي لا ينفصل فيها الخيال الرومانسي عن الذكرى السّيرية، نجد أن ما جذب جوليان فيو ضابط البحرية إلى ضفاف البوسفور هو إمكانية أن يفقد المرء هويته ليمتزج بحياة مختلفة، شعبية، شاعرية، حيث أن جميع اللقاءات تكون متاحة. إن هذه اللعنة الرومانسية للمتعة تنتهي بالقبر مما أضفى على رؤية لوتي في أعماله الأخيرة للمدينة طابعاً جنائزياً مضطرداً، ورمزاً على تركيا المحتضرة. لقد قابل لوتي باستمرار البرقشة الكوزموبوليتية لمدينة بيرا مع الرصانة التأملية لأيوب أو مع المسجد الأخضر في بروس، وهو يترك قارئه في مؤلفه (المبرؤون من السحر) مع غزليته الأخيرة في بيكوس، بعيداً عن البازار العالمي.

في ربيع العام 1894 قام لوتي برحلة حج مخيبة للآمال إلى الأراضي المقدسة، بدأها باجتياز صحراء سيناء شباط ـ آذار، والتي أوحت إليه بأجمل كتب رحلاته، ثم أقام في القدس من آذار وحتى آيار، ثم أمضى الربيع في الجليل، وأخيراً في دمشق وبعلبك وبيروت. وقد شاهد لوتي الأراضي المقدسة ووصفها بطريقة جميلة

Twitter: @alqareah

وحاذقة، وقد زار في العام 1907 مصر بدعوة من الزعيم القومي مصطفى كامل باشا، وقد أهدى لوتي كتابه موت الفيلاي إلى الزعيم العربي بعد عام من ذلك.

لقد أحب لوتي البلاد الإسلامية، وكتب كتابين عن الأراضي المقدسة، «الجليل» الذي صدر في العام 1896، و«القدس» الذي صدر في العام 1895.

Twitter: @alqareah

مدينة بيت المقدس

الحرم

ذهبنا إلى الحرم الشريف عبر طرق ضيقة عابسة على الرغم من وجود الشمس، كانت الجدران القديمة خالية من النوافذ، مصنوعة من بقايا تعود إلى كل عصور التاريخ، وفيها تندمج هنا وهناك حجارة عبرانية ومرمر روماني. وكنا كلما تقدمنا يتحول كل شيء إلى خرائب أكثر خواء وأكثر جموداً، حتى وصلنا إلى ذلك الحي المقدس المحفوف بالحزن اللامتناهي، والمشتمل على المسجد الذي كانت جميع منافذه تحت مراقبة الحراس الأتراك الذين يمنعون المرور منها.

استطعنا بفضل أحد الانكشاريين اجتياز هذا النطاق المتزمت، عند ذاك وصلنا بعد أن عبرنا سلسلة من الأبواب المتداعية إلى ساحة شاسعة أشبه بصحراء كئيبة، حيث كان العشب ينمو بين البلاط. وفي الوسط وبعيداً جداً عنا نحن الذين وصلنا من إحدى زوايا هذه الساحة الواسعة، ينتصب وحيداً صرح مدهش، أزرق برمته، وهذه الزرقة هي زرقة رائعة نادرة، ويبدو كأنه أحد القصور القديمة المسحورة المكسوة بالتركواز، إنه (مسجد عمر) فيا لها من عزلة فخمة عاتية، هذه التي استطاع العرب إبقاءها حول مسجدهم الأزرق!

كلما تقدمنا في هذه العزلة على البلاطات الحجرية الكبيرة البيضاء، والمكسوة بالأعشاب، كلما توضح لنا كساء المسجد

Twitter: @alqareah

الأزرق، وكأنك ترى على الجدران حلياً متدرجة الألوان ومتفرعة بين التركواز الشاحب واللازورد البنفسجي، مع قليل من الأصفر والأخضر والأسود التي استخدمت باعتدال من خلال آرابسك دقيق.

فهناك وسط عدد من أشجار السرو والزيتون المسنة للغاية والمحتضرة، سلسلة من الصروح الثانوية الصغيرة المتناثرة وسط الساحة، تقف مثل موكب للمسجد الذي يتجلى مثل أعجوبة خارقة في الوسط. وهنالك ميرحاب Mirhabs صغير من المرمر، وأقواس خفيفة وأقواس نصر قصيرة، وكشك بأعمدة مكسو هو الآخر بالحلي الزرق، وكأن كل شيء قد انحرف بفعل العصور واكتسى مظهراً سوداوياً مهجوراً على هذه الساحة الواسعة، حيث وضع الربيع بين البلاطات أكاليل من زهور المارغريت، وبراعم الذهب، والهرطمان المجنون

ونرى عند اقترابنا منه بأن الأبنية الأنيقة الهزيلة السارازانية، مكونة من بقايا الكنائس المسيحية والمعابد القديمة. وكانت الأعمدة وأفاريز المرمر مصنوعة من طرز متنافرة مأخوذة هنا من مصلى للصليبين، وهناك من بازليك الإمبراطوريات الإغريقية، أو من أحد معابد فينوس.

دخلنا إلى المسجد العجيب المحاط بالفضاء المهجور والخالي من الحركة، في اللحظات الأولى كان الظلام يخيم عليه تقريباً، ولم نكن نتبين سوى تشويش لروعة أخاذة. لقد كانت ثمة إضاءة خفيفة للغاية تسقط من تلك الزجاجيات المعروفة في الشرق كله، والتي كانت تزين مجموعة النوافذ الصغيرة المقوسة في الأعلى، وإنك لتظن أن الضياء يمر عبر الزهور والأرابسك المصنوع من الأحجار الكريمة. إنه الوهم الذي أراد صانعوا الزجاج في الماضي أن يجعلوا منه شيئاً غير قابل للتقليد.

شيئاً فشيئاً، اعتدنا على الظلال، ورأينا على الجدران، وعلى الأقواس الصغيرة، وعلى السقوف تلألؤ كساء من القماش المطرز

Twitter: @alqareah

بالصدف والذهب على خلفية خضراء، ولعله كان من قماش البروكار القديم المشجر، أو من جلد قرطبة الثمين، أو لعله من قماش أجمل وأندر من كل هذه، والذي سنتعرف عليه فيما بعد على نحو أفضل عندما ستعتاد عيوننا التي بهرها شعاع الشمس على بلاطات الساحة، وعلى ظلمة هذا المكان المقدس جداً.

كان كل عمود من هذه الأعمدة المحمولة على تيجان مذهبة مصنوعاً من مادة مختلفة لا ثمن لها، فكان ثمة عمود من الرخام البنفسجي المعرّق بالأبيض، وآخر من الرخام السمّاقي الأحمر، وآخر من ذلك الرخام الذي لم نعد نعثر عليه منذ قرون والذي يسمى بالأخضر العتيق Vert Antique. كانت قاعدة الجدران العالية وحتى المستوى الذي تبدأ فيه التطريزات الخضر الذهبية بالتلألؤ مكسوة بالمرمر، وهي عبارة عن طبقتين واسعتين شُطرتا من وسطهما، ووضعت القطعتان جنباً إلى جنب، على نحو شكلت فيه رسوماً متناسقة مثل تلك التي نحصل عليها في صناعة الأثاث عن طريق تصفيح الخشب.

كانت النوافذ الصغيرة الموضوعة قريباً جداً من تحدب السقف تعكس أحجارها الإشعاعات من الأعلى، وتمتلك كل واحدة منها رسماً ولوناً مختلفاً، فتبدو مؤلفة من زهور المارغريت، من الياقوت الأحمر، والأخرى التي على جنبها مكونة من أرابسك دقيق من الياقوت الأزرق الممزوج قليلاً بالزبرجد الأصفر، وبعضها من الزمرد الأخضر المرصع بالزهور الوردية.

إن ما يصنع جمال هذه الزجاجيات بشكل عام وجميع الزجاجيات العربية، هو أن الزجاج بدرجات ألوانه المختلفة لا يتحدد فجأة كما هو الحال لدينا بخط من الرصاص. فهيكل الزجاج مصنوع من صفيحة من الجص سميكة جداً، ومفرغة ومثقبة طولياً بعدد لا ينتهي من الثقوب الصغيرة بأشكال متغيرة، ويشكل مجموعها رسماً رائعاً. فالمقطعات الزرق والصفر والوردية والخضر مركبة في قاع فتحات النور ذات الجوانب المائلة، ولذا

Twitter: @alqareah

فإننا لا نراها إلا وقد أحيطت بما يشبه الهالة التي هي عبارة عن انعكاسها هي داخل طبقة الجص، وقد نتج عن ذلك آثار ملطفة منسابة تشبه الصدف والأحجار الكريمة.

الآن أصبح بإمكاننا أن نميز على نحو أفضل هذا الكساء الذي يغطي التقوسات والتحدبات، إنها من الفسيفساء العجيبة التي تغطي كل شيء، ولها مظهر البروكار والزركشة، إلا أنها أجمل منها بكثير وأطول عمراً من أي نسيج على الأرض. وقد حافظت على مدى القرون ببريقها وبرقشتها لأنها مصنوعة من مواد شبه أبدية، وبعدد لا يُحصى من المقطعات المرمرية من درجات الألوان كلها، ومن الصدف والذهب. وعلى العموم فإن الأخضر والذهبي هما اللذان يهيمنان، وهي تمثل مجموعات من الزهريات الغريبة حيث تخرج الباقات الصلبة وتعود لتسقط باتساق، ولهذه الباقات أشكال من الأوراق المتعارف عليها منذ الأزمنة البعيدة، وكل زهور الأحلام القديمة. إنها على الأخص عناقيد عنب مكونة من عدد لا يحصى من أنواع المرمر الأخضر، وأغصان الكروم لها استقامة بدائية وتحمل عنباً ذهبياً وعنباً من الصدف، ومما يحد من رتابة اللون الأخضر ما يظهر هنا وهناك فوق الخلفية الذهبية من أنصاف الزهور الكبيرة الحمر ممتزجة بكسر من المرمر السماقي والمرمر الوردي تحت الومضات الملونة المنسابة من الزجاجيات. كانت عظمة الحكاية الشرقية برمتها تتلألأ وتلتمع وتأتلق في ظل وصمت ذلك المكان الخالي على الدوام، والمحاط بالساحات الخالية حيث كنا نتجول وحيدين. كانت العصافير الصغيرة الأليفة على الحرم المقدس تدخل وتخرج من خلال الأبواب البرونزية المفتوحة على الدوام، وتحط على أفاريز الرخام السماقي وعلى الذهب والصدف تحت الأنظار المتسامحة لاثنين أو ثلاثة من الحراس ذوي اللحى البيضاء والراكعين للصلاة في زوايا الظل، وعلى الأرض المبلطة ببلاطات الرخام ثمة بسط السجاد الفارسي والتركي القديم، وهنالك الألوان الجميلة الذابلة. ويبدو لك الوسط الواسع لهذا المسجد الدائري عند

Twitter: @alqareah

دخولك إليه غير مرئي للوهلة الأولى، ومحاطاً بحاجز مزدوج - الأول من الخشب المزخرف الدقيق على طراز المشربيات العربية - والثاني من الحديد مشغول على الطراز القوطي، وضعه الصليبيون هناك عندما جعلوا من هذا المكان كنيسة مسيحية بشكل مؤقت. وإن أنت ارتقيت إحدى دكات الرخام سيكون باستطاعتك أن تجول بنظرك في الداخل المحجوب للغاية، وإنك تتوقع رؤية المزيد من الكنوز العجيبة نظراً للمحيط الرائع الذي يسورها، ولكنك تصاب بما يشبه الدهشة المرعبة أمام ما يتجلى لك، إنه شيء ما حالك ولا شكل له في الوسط، إنها ظلمة هذا المكان الرائع، شيء ما يرتفع على نحو غير منتظم مثل موجة عالية سوداء جامدة، مثل صخرة برية فوق ذروة جبل، إنها قمة جبل موريا التي يقدسها المسلمون والمسيحيون، إن ماضياً عملاقاً ساحقاً لكل أشيائنا الحديثة الغثة يُستحضر أمام هذه القمة الميتة المحنطة التي لا تتلقى ندى السماء أبداً، والتي لا تعطي نباتاً ولا طحلباً على الإطلاق. بيد أنها هنا كما كان الفراعنة في لحودهم يجثمون بعد ألفي عام من الاضطرابات، منذ ثلاثة عشر قرناً تحت ضفاف هذه القبة الذهبية، وهذه الأسوار العجيبة التي شيدت لأجلها وحدها.

في البدايات القلقة للإسلام كان هذا المسجد الذي زاره النبي محمد في الحلم يتنافس مع الكعبة المقدسة، وكان المسلمون الأوائل يديرون وجوههم نحو صخرته في صلواتهم، وحتى اليوم ينظر إليه العرب، إلى الساحة المحيطة به مع كامل النطاق الرائع والخالي للحرم الشريف الذي يحرس البوابة الأتراك بوصفه المكان الأكثر قدسية بعد مكّة والمدينة. وحتى منتصف قرننا كان المسجد محمياً بضراوة، حتى أن المسيحي كان سيجازف بحياته لو حاول التغلغل إليه، ومنذ عدد قليل من السنوات فقط فتحت منافذه لجميع البشر من كل الأديان ما عدا الأيام المقدسة، شريطة أن يكون بصحبة الزائر أحد الانكشاريين الحامل لرخصة من باشا مدينة بيت المقدس. مع ذلك ولخشية دينية لا يدخل إليه اليهود أبداً، وكان في الماضي معبداً

Twitter: @alqareah

للرب، وهم يخشون في السير بلا علم منهم فوق موضع قدس الأقداس الذي لم يتحدد موضعه بالضبط.

ونحن نتجول الآن فوق خشب الحور وفوق الأحجار الكبيرة البيضاء تحت الشمس الجميلة لهذا الصباح الربيعي - مجموعة صغيرة تائهة في عزلة هذا المكان المقدس للغاية - تفتقر بعض الأماكن للبلاطات، عند ذاك نرى الحشيش والزهور وقد نمت بحرية مثلما تنمو في البراري وتتجمع حول المسجد التركوازي اللون، بينما تنتظم على نحو مختلف جداً الصروح الصغيرة الغريبة وتحيط به. وهناك الكشك الأزرق والمرحاب وأقواس النصر المصنوعة من الرخام، وعدد من أشجار الزيتون البائدة، وأشجار السرو المحتضرة.

درب الآلام

إن هذه الطريق التي نبجلها في أيامنا هذه، والمعترف بها منذ القرن السادس عشر فقط هي خيالية في تفاصيلها، بيد أنها واقعية بلا ريب في اتجاهها وفي خطوطها الواسعة، لا شيء في هذا الحي سوى الخرائب التي تحيط بقصر بيلاطس Pilate. لقد تغيرت الأشياء على نحو أقل مما حصل في المناطق الأبعد عند مشارف الصلب، فالطريق الروماني المبلط القديم موجود ربما على بعد أقدام تحت الأرض المرتفعة اليوم. وإن بعضاً من هذه الأسوار القديمة مطمورة أكثر مما كانت عليه في السابق، لكنها ما زالت تقف على الأماكن ذاتها، فقد شهدت ربما مرور المسيح وهو يحمل صليبه.

كانت الطريق هذا المساء مهجورة ومظلمة في نهاياتها، مع قليل من الضياء الذهبي المحتضر، وفي الأعلى منها وعلى ذروة أحجارها الحمر توشك الشمس المنخفضة على الانطفاء. سمعنا صوت الأرغن والأناشيد الدينية وهي ما زالت تنبعث من كنيسة الآباء من سانت آن، بعد ما أغلق الآباء أبوابهم.

Twitter: @alqareah

ويصعد الطريق بمشقة ضيقاً مظلماً بين صفين من الأسوار القديمة، تتخلله في بعض الأماكن القناطر الكبيرة، وبقايا الأقواس ملقية عليه المزيد من الظل. كانت جوانبه التي ترتفع إلى ثلاثين قدماً مبنية بالأحجار الرومانية الواسعة، أو السرازينية(*) بلون دموي واحد، وترى هنا وهناك في مواضع كثيرة تداعي هذه الأحجار، ونباتات متسلقة، ومن مسافة إلى أخرى تسندها الدعامات الضخمة المتآكلة.

وهناك طريق أخرى تتقاطع مع هذه الطريق، وهي خالية ومهجورة مثلها، وهي مثلها بلا نوافذ ولا فتحات من أي نوع، وهي مسقوفة على طولها بالقناطر الواسعة الثقيلة، وهي نصف دائرية، وذات أقواس قوطية، وتمضي لتتلاشى بعيداً في ظلمة الأموات الغريبة. وإنك لتلحظ عدداً قليلاً من الأشباح يخطفون في نهاية ممراته نساء محجبات وبدواً متلفعين بمعاطف رمادية.

(Hic Flagellavit) هذا ما تقوله صحيفة في الرخام الأبيض مدمجة فوق أحد الأبواب. آه إنها كنيسة عذاب المسيح، وما يلبث أن يبدأ طريق الآلام، وهذه الثكنة التركية (مشيدة فوق موضع قصر بيلاطس المحطة) وهي الأولى في طريق الصليب. واعتباراً من هنا وحتى القبر المقدس ستكون المحطات التالية مؤشرة بالعلامات والأعمدة.

ازدادت موسيقى آباء سانت آن، تشوشنا كلما ابتعدت، وهي على وشك أن تتلاشى الآن بعيداً مني رغم الخشوع الصامت والتام الذي يسود مدينة بيت المقدس وقت الغسق.

ولكن هاهي الآن أناشيد أخرى تعلو، ومزامير أخرى وصلوات وأصوات أرغن مرت أمام دير آخر تحت القوس الروماني Ecco Homo(**)، إنهن فتيات صهيون يرتلن خلف هذه الجدران لمجد المخلص، ويواصل درب الآلام صعوده المكفهر

(*) السرازين هم المسلمون، وآثرنا الإبقاء على الكلمة لما لها من إيحاءات استشراقية.
(**) كلمة باللاتينية تعني (ذلك هو الإنسان).

Twitter: @alqareah

المتوحد، تتخلله بعض التكسرات والمنعطفات المفاجئة بين المنازل الكئيبة. انتهى اضمحلال الانعكاسات الذهبية الأخيرة من على رؤوس الأحجار العالية، وأخذ غناء بنات صهيون بالتلاشي، ولكن من أعلى هذه الأسوار التي تحبسني بدأ الآن يرتسم على السماء الحامية ركن يعلو على مدينة بيت المقدس بلون رمادي مظلل، إنها كومة من القبب الصغيرة تعود إلى مئات الأعوام مع منارتين متوجتين سلفاً بأنوارهما الليلية إكراماً لشهر رمضان.

لم نعد نسمع مزامير بنات صهيون، ولكن انطلقت صيحات دينية أخرى تمجد الله من جميع أنحاء المدينة، اخترقت الهواء مثل صواريخ طويلة. إنهم المؤذنون الذين يدعون لصلاة المغرب.آه مدينة بيت المقدس مقدسة أنت للمسيحيين، مقدسة للمسلمين على الدوام، إما بصوت النواح وإما بصوت الصلاة، ومازالت الطريق تصعد، تتخللها أحياناً بيوت السارازين مثل جسور كئيبة. لقد أُلقيت فوقه منازل تنظر إلى الطريق من الأعلى عبر نوافذ صغيرة حذرة مزررة أو مشبكة بالحديد. انتهى المؤذن من دعوته، وألقى الغسق والصمت بسحرهما على طريق الآلام، وقد بدت لي في الأمس عادية ومخيبة للآمال تحت شمس النهار، إذ أن غموض الظل غيّر من هيئتها، وإن لاسمها وحده ـ وأنا أقول في نفسي ـ موسيقى مقدسة. تبدو الذكرى العظيمة تغني في كل مكان من الأحجار.

وصلت على مهل إلى المحطة السابقة في طريق الصليب إلى تلك البوابة الفضائية التي خرج المسيح منها، من مدينة بيت المقدس ليصعد إلى الجلجلة. عند ذاك تحتم علي أن أجتاز موضعاً ضاجاً ومظلماً مزدحماً بالعرب وبالجمال، حيث دخلت إليه مباشرة بعد الهدوء، وبعد عزلة المدينة المنخفضة. إنه (بازار الزيت)، حي من الأزقة الصغيرة المسقوفة بأكملها بالأقواس الدائرية، شيّدها الصليبيون وأصبحت اليوم مركزاً دائماً لتجمهر البدو. كان الظلام يخيم عليه.

أضيئت المصابيح في المتاجر الصغيرة، حيث يباع الزيت والحبوب هناك، فتدافعنا في الأروقة الطويلة مع المارة الذين

Twitter: @alqareah

يرتدون برانس، وقد دوخنا صراخ الباعة، والأجراس الصغيرة المعلقة في أعناق الجمال، ثم عاد الهدوء من جديد. وعند خروجنا من هذا البازار المسقوف انطلقت الأناشيد الدينية مرة أخرى.

وصلت إلى نهاية درب الآلام، أي إلى القبر المقدس، وكالعادة كانت بوابة البازليك مفتوحة على مصراعيها، ويعلو فيها صوت التراتيل.

هذا المساء ينشد الأرمن، وهم يرتدون كاغولية الحداد قرب المداخل، ويبخرون حجر المروخ ويسجدون لتقبيله. كان أحدهم وهو رئيس المحتفلين يرتدي ثوباً من الذهب، ويعتمر قلنسوة حمراء، وبعد أن انتهوا صاروا يبتعدون تبعاً للطقوس في الدهليز المظلم للكنائس، وعلى عجلة دائماً كما لو كانوا يتعجلون للذهاب والتعبد في مكان آخر. وفي جزء آخر من هذا المكان المكرس لكل العبادات، يتم كل يوم تبخير كل حجارة فيه وتقبيلها وسط الدموع، وما إن تلاشى نشيدهم في الأقواس البعيدة حتى دنا صوت آخر، وصعد من الأعماق المظلمة قوياً ثقيلاً مثل صوت حشد يسير، مثل حشد يتقدم يهمهم بالصلاة، يهمس بصوت خفيض، إنهم قوم من حجاج القوقاز. كنت رأيتهم يدخلون هذا الصباح إلى مدينة بيت المقدس، وهم يرجعون الآن من أماكن الصلاة الكائنة تحت الأرض. سوف يخرجون من هنا بعد انقضاء نهارهم، وحينما وصلوا إلى مكان القبر طافوا حوله، وقبلوا كل حجارة فيه، كانوا يرفعون بأيديهم أطفالاً صغاراً كي يتمكنوا من تقبيلها أيضاً، وكانت عيون الجميع مرفوعة نحو السماء، غارقة في الدموع، منذهلة، فهل حقاً ليس هناك من يسمع كل هذه التوسلات، حتى وإن كانت طفولية ومشركة وملطخة إن أردنا الابتذال الساذج؟

كنيسة ضريح العذراء

ما إن دخلنا إلى الكنيسة حتى فاجأتنا الظلمة، وعبقت رائحة العفونة حادة، رائحة المغارة المختلطة برائحة البخور. كانت هناك

Twitter: @alqareah

أسمال معلقة، وأسرة حقيرة مفككة يستخدمها حراس المكان المليء بالفضة والذهب، وكان أمامنا سلم أثري يغوص في الأرض تحت مايشبه جناح الكنيسة، مائلاً هو الآخر، وينحدر بسرعة مثل السلم نحو الأعماق المظلمة. إن هذا الشِعب المائل ذا التقوسات القوطية البدائية الثقيلة هو من صنع الصليبيين الذين أزالوا الأنقاض من الكنيسة البيزنطية التي كانت قد تحولت ذلك الوقت إلى مسجد، وكادت الكنيسة تقوض حتى منتصفها، وكان بالإمكان أن نقرأ فوق الأحجار الرئيسية لما تبقى منها إشارات إلى العمال الفرنجة في القرن الثالث عشر. وعندما لحظنا تلف درجات السلم والتماع اللون الأسود على الحيطان، أدركنا في الحال قِدم ما نرى.

نزلنا وكان ما رأيناه في الأسفل يشبه المغارة أكثر مما يشبه الكنيسة، فقد كانت تهبط من السقف رواسب حجرية رائعة، وهناك المئات من مصابيح الفضة والذهب معلقة كالأكاليل أو المسابح. لم يكن ذلك القبو منتظماً، إنما مضطرباً، فهو يشتعل على زوايا مبهمة، وكانت أماكن الصلاة في المغارات الخمس أو الست تحاول كل منها الانعزال عن الأخرى، حتى أننا وجدنا هناك في زاوية قرب الضريح وسط العديد من الرموز المسيحية ما يشبه المسجد للمحمديين الذين - كما نعلم - يكنون تبجيلاً خاصاً للعذراء أم النبي عيسى. ففي هذا المكان وجدنا تعارضاً أكبر مما رأيناه في القبر المقدس بين أبهة الحلي القديمة المتراكمة في كل مكان وبين التلف الناجم عن تقادم السنين والتداعي والهيئة البالية المحتضرة للأقواس نصف المهدمة، والأحجار غير المصقولة، والبناء البدائي، وقطع الصخور السردابية، إذ كان كل هذا مغطى بالدخان وبلون مائل للسواد ينضح بالرطوبة عبر بيوت العناكب والغبار.

كان الجو مظلماً هناك، كما لو كنا في مدفن للموتى، كانت ثمة أروقة معتمة مغلقة منذ قرون، وبدايات السلالم تؤدي في الماضي إلى أماكن لا علم لأحد بها، وتؤدي حالياً إلى باطن الأرض، وهنالك أضرحة أخرى أيضاً يبدو أنها تعود إلى سان جوزيف، وسانت آن،

Twitter: @alqareah

وإلى ذوي العذراء، وهنالك أيضاً صهريج للمياه يحتوي على ماء عرف بمعجزاته، وهنا وهناك ترى قماش بروكار قديم مسمراً على الصخور، يتدلى مثل الخرق، أو مطرزات شرقية قديمة ملقاة على الأسوار متكسرة ومتحللة. وكانت الشموع والبخور تطلق دخانها هنا بلا توقف في الجو المأتمي الخانق لهذا المكان، وتحت هذا النوع من الفضة والذهب الذي هو عبارة عن مجموعة من المصابيح والثريات المقوسة وفق جميع الطرز، ومن جميع الأزمنة المقدسة.

وبينما كنا نصعد من ظلام القاع عبر السلم العريض الأسود الذي أقامه الصليبيون، جاءنا من الخارج صوت غناء وقور بهي، إنه غناء جماعي ينشده رجال بأعلى أصواتهم وهم يسيرون. إنها مراسيم دفن الأرشيمندريت، وكانت الحشود تنتظره فظهر لنا عرضاً عند خروجنا من الكنيسة التحت أرضية، وفي الضياء الذي ظهر علينا من جديد فجأة.

على رأس الموكب كانت حشود الناس تسير، كانوا يرتدون أثواباً من البروكار، ويحملون ساريات، وصلباناً من الفضة، وشموساً من الذهب، ومن ثم أتى القساوسة والمنشدون في هذا المسير المأتمي، وأخيراً تقدموا بالأرشمندريت العجوز. مر حاسر الوجه، شاحباً ممدداً على الزهور، واجتاز سرير (قدرون)، كان محمولاً وقدماه إلى الأمام أعلى من رأسه. أخذوا يرفعونه فوق الجبل المقدس حيث سينام، وكان بالقرب منا ـ نحن الذين كنا ننظر إليه واقفين لصق أبواب الحديد القديمة ـ ثمة مسلمون راكعون وهم يديرون ظهورهم إلى الموكب. كانوا يصلون إلى مريم قبل أن يهبطوا إلى ضريحها، وكانوا يرتدون العمامة الخضراء، عمامة الحجاج العائدين من مكة. كانت صلواتهم تجمعهم بمظهر من مظاهر الإسلام البحتة وقد اختلطت على نحو غريب بموكب المراسيم الأرثوذكسية الروسية القديمة. وكان مجمل ما رأيناه يلخص السمة التي تتصف بها مدينة بيت المقدس، من كونها بابل الديانات.

Twitter: @alqareah

عندها ذهبنا إلى (الجسماني) كان كل ما أردته هو الصمت، فللمرة الأولى في حياتي سأدخل ـ وأنا قلق للغاية ـ في هذا المكان الذي كان لاسمه وحده وعن بعد سحر كبير وعمق. ولم أكن أتوقع رؤية كل هذا الحشد، وكل هذه المراسيم الباذخة في الدفن، وهؤلاء الناس العاديون المحتشدون هناك لرؤية العرض.

الجسماني

من أجل الدخول إلى حديقة الجسماني ينبغي الطرق على باب أحد أديرة القساوسة الفرنسيسكان الذين يحرسون هذا المكان بعناية قصوى. إنها حديقة صغيرة ذات أناقة متكلفة محاطة بسور أبيض رسمت عليه لطخات تمثل طريق الصليب، وهناك بجانبه ثماني أشجار للزيتون لها من العمر آلاف الأعوام، بل قد تكون معاصرة للمسيح. بيد أنها محاطة بالقضبان لمنع الحجاج من قطع أغصانها، وحولها حواشي صغيرة زرعت فيها زهور ربيعية عادية وقرنفل أصفر وشقائق النعمان، ويقوم أحد الرهبان بنقشها. لم يبقَ هناك شيء من الذكرى العظيمة في هذا المكان العادي فقد أنجز القساوسة هذه التجربة الصعبة إذ حولوا الجسماني إلى شيء حقير ومبتذل، وإنك حين تغادر تشعر بأن مخيلتك قد خابت، وقلبك وقد انعصر.

ولحسن الحظ بإمكاننا أن نقول لأنفسنا بأن موضع صلاة المسيح العظيمة لم يتم تحديده، وربما كان على مقربة مائة متر من هناك، أي بالقرب من دير الفرنسيسكان على الجبل الحجري الحزين، وبأن هناك بساتين أخرى من أشجار الزيتون، لها قيعان قديمة، وسيكون بالإمكان العودة إليها خلال الليالي الهادئة الباردة، لنتأمل وحيدين، وننادي الظل.

ثم ما تلبث مشاعر الماضي العظيم أن تستولي علينا من جديد عندما نجد أنفسنا مع هبوط النهار في الجزء البكر والحزين لوادي جهنم. قال لنا الأب بلان:

Twitter: @alqareah

(انظروا هنا فما زالت بعض المظاهر المعاصرة لحياة المسيح موجودة هناك، وأشار إلى الأشياء التي تغيرت، وإلى الأشياء التي بقيت على حالها فوق هذا المنظر الإنجيلي المكفهر.

وتوقفنا وسط شواهد القبور على هذه الأرض المليئة بالعظام البشرية، كانت وجوهنا مصوبة نحو مدينة بيت المقدس التي بدت من هذا الجانب تهيمن على وادي الأموات، وكأنها مادة مدينة شبحية. أما الشكل العام للجبال فقد بقي ساكناً عند المشارف القريبة من السفح الشرقي الذي نزلنا منه، وهناك خلفنا كانت سيلوه التي هي كومة من الخرائب والمغاور الرمسية، وهناك عرين للبدو المتوحشين، وهم ينظرون إلى الوادي المظلم الذي كنا فيه. وكان على يسارنا ثمة أوفيل القديمة مهجورة، ولم تعد سوى رابية مغطاة بأشجار الزيتون، وبقايا الأسوار، وكان هناك أمامنا رابية مغطاة من الأعلى، وقد انتصبت الأسوار الواسعة المنتشرة في مدينة بيت المقدس متوجة السفح المقابل بالنار وبلون رمادي غامق. كانت مستقيمة وموحدة الشكل، وكان على امتدادها وفي وسطها وفي حصن مربع ناتئ ما زال يرتسم هناك، باب مغلق على نحو كئيب.

ولم يكن هناك من شيء حتى في الخارج، إذ أن مشارف مدينة بيت المقدس الخربة الغريبة كانت شبيهة بمشارف الأموات، وليس هناك من مارة أو غربان أو قوافل أو شوارع، ونكاد لا نرى سوى عدد من الممرات الوحيدة بين القبور، وثمة قطعان من الماعز تصعد على الجوانب الحادة للوادي.

اليهود

في مساء يوم الجمعة حانت اللحظة التقليدية التي يذهب فيها اليهود كل أسبوع للبكاء في مكان خاص تنازل المسلمون عنه لهم فوق خرائب معبد سليمان الذي لن يعاد بناؤه أبداً.

Twitter: @alqareah

أردنا المرور من موضع البكاء قبل حلول المساء، فبعد أن قطعنا الساحات الخالية بلغنا الأزقة الضيقة المغطاة بالقاذورات، ووصلنا أخيراً إلى ما يشبه الحظيرة التي تعج بحركة حشد غريب ينوح سوية في صوت خفيض. وبعد أن حل الغسق كان قاع الساحة المحاط بالأسوار الحالكة مغلقاً، يقع تحت بناء سليماني عظيم، إنه قطعة من محيط المعبد مكونة من كتل مخيفة متشابهة، وكان هناك رجال بأثواب طويلة من المخمل يتحركون كما لو كانوا دببة تترنح في الأقفاص، وقد أداروا ظهورهم لنا. وكانت وجوههم تتجه صوب قطعة الحطام العملاقة، وهم يلطمون جباههم بأحجاره، ويهمسون بنوع من الغناء الرتيب المرتجف.

كان أحدهم الذي لا بد أنه كان حاخاماً أو منشداً يقود على نحو مشوش هذا الغناء الجماعي الحزين، بيد أن الآخرين لم يكونوا يتبعونه إلا قليلاً، فكان كل واحد منهم يحمل بيده كتاباً عبرانياً ويطلق نواحه كيفما شاء.

كانت الأثواب ملونة. وهناك مخمل أسود ومخمل أزرق ومخمل بنفسجي أو قرمزي مبطن بالفراء الثمين، وكانت كل القبعات من المخمل الأسود تحاط بحواشيها بفراء من وبر طويل يلقي بالظل على أنوفهم الحادة كحد السكين، ويلقي ظله على نظراتهم الخبيثة. كانت جميع الوجوه تستدير نصف استدارة لتتفحصنا، وكانت ذات قبح خاص، قبح يبعث القشعريرة فينا. لقد كانوا مخيفين للغاية، وضامرين للغاية، وماكرين للغاية، وكانت لهم عيون صغيرة جداً، عيون ماكرة ودامعة تحت جفون متهدلة ميتة، وبشرتهم بيضاء أو وردية كشمع رديء النوعية، وعلى آذانهم جميعاً خصلات من الشعر ملولبة تتدلى مثل الموضة الإنجليزية للعام 1830، فتكمل تشابهاً مقلقاً مع السيدات العجائز ذوات اللحى.

وهناك على الأخص الشيوخ، لهم تعبير دوني ماكر وحقير، ولكن كان هناك أيضاً من هم شباب جداً، وعدد من اليهود الصغار جداً، بهشاشة حلوى السكر المصبوغ، والذين لهم تسريحة شعر

Twitter: @alqareah

مجعدة مثل الكبار، ويترنحون مثلهم، ويحملون أيضاً الكتاب المقدس، فضلاً عن أن جميعهم كانوا هذا المساء من السفارديم أي من اليهود القادمين من بولونيا، وهم يهود ذابلون وشاحبون جراء قرون من الارتزاق والربا تحت سماء الشمال، ويختلفون كثيراً عن الأشكناز وهم أخوتهم العائدون من إسبانيا والذين لهم بشرة سمراء، ووجوه جميلة كالأنبياء.

انتابني وأنا ألج مركز الشؤون اليهودية شعور بالذهول وعدم الارتياح، أقرب ما يكون إلى الخوف، فأنا لم أرَ في أي مكان آخر ما يشبه هذه المغالاة، لا نموذج تجار الملابس والأسمال، ولا بائعي جلود الأرانب الشيوخ لدينا، ولم أرَ أنوفاً مدببة مثل هذه الأنوف الطويلة، والشاحبة إلى هذا الحد. ففي كل مرة كانت تصدمني المفاجأة والتقزز حين تستدير إحدى هذه الظهور الشائخة المحدبة تحت المخمل والفراء نصف استدارة، فأرى زوجاً جديداً من العيون يصوب جانباً نحوي بشكل خاطف بين الخصلات المجعدة المتدلية، ومن تحت زجاج النظارات. حقاً إن صلبهم للمسيح قد ترك أثراً لا يُمحى، ولعله ينبغي أن تأتي هنا وترى بعينك لتقتنع وبشكل قاطع، بيد أن الشيء الذي لا جدال فيه هو أن هناك علامة خاصة مكتوبة على هذه الجباه ووصمة عار دمغت هذا العرق كله.

كانوا يرددون سوية، وكانت ثمة أصوات ترتعش على وتيرة أجسادهم المترنحة السريعة، وهم يقرؤون مراثي إرميا، جالسين مقابل المعبد لصق الحطام الأخير لرائعتهم الماضية.

- من أجل المعبد الذي هدم، صرخ الحاخام.

- نحن جالسون متوحدون ونبكي، يجيب الحشد.

- من أجل أسوارنا التي أطيح بها.

- نحن جالسون متوحدون نبكي!

- من أجل أسوارنا التي أطيح بها.

Twitter: @alqareah

- نحن جالسون متوحدون ونبكي!

- من أجل جلالته الذي مر، ومن أجل رجالنا العظام الذين هلكوا.

- نحن جالسون متوحدون ونبكي!

كان هناك اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الشيوخ يذرفون دموعاً حقيقية، وقد وضعوا كتبهم داخل حفر الصخور لتتحرر أيديهم فيلوحون بها فوق رؤوسهم إشارة إلى اللعنة.

وإن كانت جميع الرؤوس المهتزة واللحى البيضاء موضوعة أسفل حائط المبكى فذلك لأن بني إسرائيل يعودون من جميع أرجاء العالم حيث تشتتوا إلى هنا عندما يشعرون باقتراب أجلهم، وذلك ليدفنوا في وادي يهوشافاط المقدس، فازدادت مدينة بيت المقدس ازدحاماً بالشيوخ المتعجلين للموت فيها. إن هذا الأمر بحد ذاته فريد من نوعه، فبعد كل هذا الشقاء الغريب وبعد كل هذه القرون من النفي والتشتت ما يزال هناك تعلق لا يتزعزع لدى هؤلاء بوطن مضاع!

ولا يلزمنا سوى القليل حتى نبكي معهم! ولكن. لو لم يكونوا يهوداً!

لو لم نشعر بقلوبنا وقد تجمدت على نحو غريب من رؤية وجوههم البشعة.

ويبدو أن هذا المساء هو مساء خاص للالتزام بالحداد لأن الساحة كانت مزدحمة، وكان هنالك آخرون يصلون في كل لحظة متشابهين دائماً، لهم القبعة ذات الوبر ذاتها، والأنف المعقوف ذاته، والخصلات الملولبة على الطريقة الإنجليزية على الصدغين. لهم الحقارة والقبح ذاتهما، والثياب الملونة ذاتها، يمرون مطأطئي الرؤوس على كتبهم المفتوحة، متخذين هيئة من يقرأ المراثي، ويرموننا من الجانب ومن تحت بنظرات تشبه وخز الإبر، ثم يمضون

Twitter: @alqareah

ليزيدوا من كومة الظهور الشائخة تحت المخمل والتي تتدافع على امتداد خرائب المعبد هذا، مصدرين الطنطنة ذاتها وقت الغروب، وكأنهم فرق من الذباب المزعج الذي يتجمع أحياناً ملتصقاً أسفل الأسوار.

- عد بأطفال مدينة بيت المقدس! أسرع، أسرع يا محرر صهيون!

وتلمس الأيدي العجوزة الأحجار، وتصطدم الجباه الشائخة الحائط في إيقاع واحد، ويرتعش الشعر العجوز والتجعدات القديمة.

وعند مغادرتنا للمكان صعدنا نحو المدينة العالية عبر الشوارع الضيقة المظلمة، كنا مانزال نلتقي بين آونة وأخرى بأصحاب الأثواب المخملية والأنوف الطويلة الذين يسرعون للهبوط وهم يسيرون بمحاذاة الحائط لبلوغ موضع البكاء القذر. لقد تأخروا قليلاً فحَلّ الليل، ولكن كما تعلم لديهم أعمال![*].

رأينا من بعيد فوق المنازل الصغيرة السود والسقوف القريبة تحت الوميض الأخير للشمس الغاربة هيكل القباب الصغيرة التي كانت تغطي جبل صهيون. عند خروجنا من إسطبل الشؤون اليهودية هذا الذي كنا نحس فيه رغماً عنا بهواجس سرقة، وعيون شريرة وملعونة أحسست بالراحة. لقد رأينا بدلاً من هذه الرؤوس المطأطئة القامات العربية الجميلة، وبدلاً من الأثواب الضيقة الأرواب الفضفاضة النبيلة للعربي، ومن ثم أُطلق المدفع من الحي المسلم ليعلن عن رؤية هلال الشهر الجديد ونهاية شهر رمضان. ولذا فإن مدينة بيت المقدس ستعود لتصبح من جديد سارازينية[**] لبعض الوقت خلال يوم البيرم الديني[***].

(*) هنا سخرية مبطنة من حب اليهودي للربا والأرباح كما هو واضح من العبارة.
(**) كلمة يطلقها الغربيون على المسلمين.
(***) العيد بالتركية.

Twitter: @alqareah

البحر الميت وأريحا

كان النهر أمامنا، يجري بين الضفاف الجبلية المهجورة حتى الأفق المشوش، له هيئة لا متناهية، وكانت مياهه البيضاء الزيتية تحمل بقع القار، مبسوطة تحت تجعدات عريضة متقزحة، فضلاً عن ذلك كانت حارقة إن نحن شربناها مثل مشروب لاذع. وإذا ما دخلنا فيها حتى ركبنا سيكون من الصعب علينا السير فيها نظراً لثقلها، فليس بالإمكان الغوص فيها أو حتى السباحة فيها في الوضع الطبيعي، بل يطفو المرء فيها على السطح مثل طوافة من الفلين.

وكان الإمبراطور تيتوس في الماضي قد ألقى فيها على سبيل التجربة عبيداً ربطوا مع بعضهم بسلاسل من الحديد إلا أنهم لم يغرقوا.

وكان هناك على الجانب الشرقي من صحراء الرمال التي سرنا فيها لتونا مدة ساعتين، خط ذو لون أخضر زمردي جميل، يسير متعرجاً وسط هذه الأماكن الخربة، الأماكن الصفراء الرمادية والتي لا تنتهي عند الشاطئ المأتمي، إنه نهر الأردن الذي يأتي محفوفاً بصفين من الأشجار وبخضرة نيسان الطرية للغاية، ليصب في البحر الميت. واصلنا السير لمدة ساعة أخرى عبر الرمال والأملاح، فبلغنا هذا النهر ومياهه المقدسة.

بدأت جبال يهوذا وموآب تلقي بظلمتها الواحدة على الأخرى كما حصل في الأمس تحت سحب حالكة، كانت القيعان والسماء سوداء هناك، وفوق بريق الأرض المكفهر كان هناك سائس بغال سوري من بيروت، فتى طويل القامة ساذج له من العمر خمسة عشر عاماً، كنا قد استأجرناه في مدينة بيت المقدس مع بغله كي يحمل حقائبنا، فشرع بالبكاء قائلاً لنا بأننا اصطحبناه إلى هنا لنضيعه، وصار يتوسل إلينا كي نعيده. لم يكن قد رأى في حياته نواحي البحر الميت، وقد أدهشته هذه المظاهر غير العادية والمعادية، فاستولى عليه ما يشبه الذعر الفيزيولوجي من الصحراء، ولذا فقد تطلب الأمر منا مواساته كما لو كان طفلاً صغيراً.

Twitter: @alqareah

كان هناك عدد من الروافد التي تدمدم فوق الرمال والأحجار معلنة عن اقتراب النهر، ومن ثم امتلأ الهواء بالبعوض والذباب الأسود الذي هوى علينا بدوامات عمياء فجأة. وأخيراً وصلنا خط الخضرة الطرية الرائعة الذي يتعارض إلى حد غريب مع ما حوله من مناطق، فهناك أشجار الجوز والبندق والتمر الهندي والقصب، فقد أستكشفت مع بعضها كالغابة. كان نهر الأردن بين هذه الأوراق التي تحجب بستائرها السميكة المشهد، وهو يسير متثاقلاً نحو البحر الميت بمياهه الصفراء الغرينية.

إنه النهر الذي يغذي منذ آلاف السنين هذا الخزان المسموم اللامجدي، والذي لا منفذ له. لم يبقَ منه اليوم سوى نهر عادي في الصحراء، وقد هجرت المدن والقصور ضفافه، وهبط عليه حزن وصمت لا ينتهيان، مثلما هبط على كل فلسطين المهجورة. وهو في هذا الوقت في العام وعند اقتراب عيد القيامة يبقى يتلقى الزيارات الورعة، إذ تهرع إليه جموع الحجاج ولا سيّما من بلاد الشمال، يأتون إليه يقودهم القساوسة فيستحمون فيه بأثواب بيضاء، كما كان يفعل مسيحيو العصور الأولى، ويحملون بورع معهم إلى أوطانهم البعيدة قطرات من مياهه، أو قوقعة، أو حصاة من قاعه. أما بعد فيعود النهر ليصبح متوحداً على امتداد أشهر طوال بعد انتهاء موسم الحج، ولا نرى هنا سوى عدد من القطعان، وعدد من الرعاة العرب الذين هم شبه قطاع للطرق، وهم يمرون من مسافات بعيدة.

أريحا

عند منتصف النهار عدنا إلى أريحا التي سنغادرها غداً صباحاً، وبقي لدينا ساعات المساء الهادئة لنتجول أثناءها في الواحة الصامتة.

تجولنا طويلاً خلال ساعات المساء اللامعة في الممرات المبهمة من الأحراش الشوكية وجداول المياه الحية، اصطحبنا راعٍ عربي

Twitter: @alqareah

صغير بعيداً جداً، ليرينا أكوام الحجر التي تشكل ما يشبه حفرة ضخمة. كان بوسعنا أن نميز بين الأعشاب والعوسج بعض الكتل الأثرية المنحوتة، فأي من مدن أريحا الثلاث التي نراها مهشمة هنا أمامنا؟ إنها على الأرجح أريحا هيرودتس، ولكن لا علم لنا بشيء على وجه التحديد، علاوة على أن دقة التفاصيل المجملة لهذا الماضي الميت لا تهمنا إلا قليلاً!

مع مغيب الشمس الرائع كنا شبه تائهين وسط هذه الغابة المأتمية المرمية مثل الكفن العريض على الأرض العامرة بالرفات البشري. عجلنا من خطواتنا متعرضين لأذى أشواك البيلسان أثناء جولتنا المتوحدة، ولم نلتقِ إلا بقطيع من الماعز واثنين أو ثلاثة من البدو لهم هيئة سيئة، مسلحون بالعصي، إلا أننا سمعنا من بين الأغصان هياجاً مرحاً أثارته العصافير من كل لون والتي اجتمعت لقضاء الليل هنا، واستمعنا إلى هديل الترغلات يأتينا من كل جانب.

كان السهل الواقع أسفل البحر والذي كنا نسير عليه محاطاً بالجبال من جميع الجهات، وكان هناك أولاً على مبعدة ألف متر تقريباً جبل الأربعين، وقد برزت قمته الحمراء من فوق الغابات، هذا الجبل الذي تقول التقاليد بأن المسيح قد اعتزل فيه للتأمل خلال أربعين يوماً، وقد بقي هذا الجبل فترة تسعة عشر قرناً يشبه (طيبة).

كانت هنالك مغاور يسكنها القساوسة النساك والزهاد ذوو الشعر الطويل، وتمتد سلسلة جبال يهوذا إلى الغرب وقد خيم الظل عليها. أما في الجنوب فقد ركزت قمم جبال اللواطية جميع إشعاعات المساء الأخيرة، وفجرتها بإشراقة عابسة فوق هذه الطبقة المظلمة التي هي البحر الميت ـ مع ذلك فإن كل شيء لا يعد بشيء بعد الخرائب والرمال الوردية للأرض العربية العظيمة التي احتفظنا بذكراها وصورتها محفورة في أعماق عيوننا.

وعند الغسق الساخن وبينما كنا نجلس أمام الرواق الصغير لنزل أريحا، رأينا راهباً قادماً مسرعاً فوق جواده الجامح، يرتدي

Twitter: @alqareah

ثوبه الأسود، وقد أطارت الريح شعره. إنه أحد النساك في جبل الأربعين، وقد حرص على أن يكون أول من يصل إلينا ليعرض علينا الحاجيات الصغيرة المصنوعة من خشب جرش، والسبع من قواقع نهر الأردن، وعند هبوط المساء نزل آخرون غيره، وكان لهم الثوب الأسود ذاته، والشعر المنثور حول وجوههم التي تشبه وجوه قطاع الطرق، ودخلوا إلى الفندق ليعرضوا علينا منحوتات صغيرة ومسابح متشابهة.

كان الليل فاتراً وثقيلاً نوعاً ما ومختلفاً جداً عن ليالي مدينة بيت المقدس الباردة، وما إن التمعت النجوم حتى بدا في كل مكان عزف جوقة الضفادع تحت التشابك الحالك للبيلسان ـ كان عزفاً متواصلاً وفي غاية الخفوت حتى بدا وكأنه مشكل من صمت هادئ. وكنا نستمع كذلك لعواء كلاب الرعاة هناك على جانب المعسكرات الغربية، ثم ومن بعيد جداً جاءنا صوت الطبل والمزمار البدوي الصغير يعزفان لاحتفال بري ـ وفي لحظة ما كان جاءنا الصوت المتميز جداً عن غيره، الصوت الحاد الحزين للضبع أو لابن آوى.

والآن ها هي الألحان غير المتوقعة الصادرة عن حانات برلين، هذه الألحان التي انفجرت على حين غرة وكأنها تتناغم ساحرة وسط هذه الأصوات الخافتة الساكنة لأماسي جودي العتيقة. إنهم السيّاح الألمان الموجودون هنا منذ غروب الشمس، معسكرون في خيام الوكالات، مجموعة من الكوك جاؤوا ليتفرجوا ويدنسوا هذه الصحراء الصغيرة المتاحة لهم. وبعد منتصف الليل وعندما صمت كل شيء، عاد صوت الشحارير التي ملأت الواحة بموسيقى مرهفة دقيقة من الكريستال.

الطريق من أريحا الى مدينة بيت المقدس

تركنا أريحا منذ الصباح وصعدنا مرة أخرى إلى مدينة بيت المقدس، كانت هناك ـ في الدروب التي قطعتها الجداول الصامتة على العشب الأخضر، بين أشجار البيلسان الخضراء ـ حركة

Twitter: @alqareah

الفرسان العرب النشيطة، الذين يعدون تحت شروق الشمس فوق جيادهم ذات السروج الملونة بألف لون. دخلنا عند خروجنا من السهول العميقة إلى المناطق الكلسية البيضاء في جبال يهوذا، فأعيتنا الحرارة الحارقة، وصارت جيادنا تسير بمشقة على هذا الطريق الذي يصعد في تعرجات سريعة. كنا نرتفع تدريجياً فوق هذه المنطقة الغربية تحت كل البلدان والبحار، وكان الضياء ينسكب حاراً باهراً على بياض الصخور والأرض.

كان ظلنا في غابة السواد يطوف على الأحجار البيضاء العامرة بالسحالي، أسود كذلك المارة الذين كنا نلتقي بهم، والذين بات عددهم يتزايد الآن مثلما في أول الأمس، كانوا يسيرون في مواكب لا تنتهي تقريباً. وكان البدو يسوسون مئات من الحمير الصغيرة، والكثير ثم الكثير من المسلحين بالبنادق والسكاكين والخناجر، وقد شدوا حبال الصوف حول جباههم، ولفوا زوايا لفاحهم مثل أذني حيوان، مؤلفين جماعات بدائية جذابة، جماعات من الرجال الممشوقين الصهب، والذين كانوا عند لقائهم بنا يظهرون لنا من خلال ابتسامة التحية أسناناً من البورسلين، بينما كانت الجمال مربوطة في خط طويل، وتعود قطعان الماعز العديدة مع رعاة فتيان لهم عيون الغزال.

استمر موكب المارة على الطريق، وأمامنا الآن مجموعة من الحجاج الفلاحين القبارصة الذاهبين إلى نهر الأردن. كانوا رجالاً ونساء وأطفالاً يمتطون البغال أو الحمير، وخلفهم لحى شقراء أو صهباء وقلنسوات من الفراء، إنهم الروس، المئات من الروس، كان أغلبهم من الطاعنين في السن، ومع ذلك يسيرون بثبات. كانوا هم أيضاً فلاحين شيوخاً بشعور بيضاء، وعجائز يضعن النظارات على أنوفهن، كن منهكات ويترنحن في سيرهن. كان الجمع يتقدم محتمين بفقرهم ضد هجمات البدو، متكئين بسيرهم على العصي، وكانوا يتقلدون الأواني المعدنية أو القناني الفارغة التي سيملؤونها بورع من النهر. إنهم جد وجدة سيعودون ربما حتى الأرخبيل وحتى

Twitter: @alqareah

ضفاف البحر المتوسط بقليل من المياه المقدسة التي سيعمدون بها أحفادهم.

كانوا يلقون علينا التحية عند التقائهم بنا، إلا أنهم كانوا يفتقرون إلى الإيماءة الجميلة التي كانت للبدو، ويفتقرون إلى ابتسامتهم الحلوة، بيد أن تحيتهم التي كانت أكثر ثقلاً بدت أكثر صراحة ووثوقاً.

عند أسفل القمم الرمادية عادت قيعان الوديان إلى خضرتها الفاقعة، وقد سرحت عليها القطعان وهي ترعى، وكان الرعاة الفتيان في البرانس، يعزفون على المزامير، وفي المكان ذاته الذي وقعنا عليه أول أمس وجدنا الطيور ذاتها جاثمة على الأغصان، وقد ارتسمت هاماتها على السماء فوق رؤوسنا. وكان هناك الجمال التي وضعت معها صغارها في الحقول، وأخيراً صفوف الورد وهي ترصع الصخور في كل مكان بنقاط حمر ووردية. وفي منتصف الطريق توقفنا في خان القوافل الذي احتشد اليوم بالناس، وخان القوافل هو نوع من القلاع لحماية المسافرين ومطاياهم من قطاع الطرق، وتتشابه هذه القلاع جميعها من الشرق إلى الغرب، ففيها حوش مربع تحيط به الأسوار السميكة المزودة بحلقات الحديد لربط الحيوانات، وهناك على إحدى جوانبه الداخلية عنبر واسع لإيواء الرجال، وبالقرب من باب الدخول حجرة لحراس المكان، فضلاً عن أفران بدائية صغيرة لطهي القهوة إلى المارة. وكانت البهائم المربوطة من كل مرتبة وصنف تزدحم بهذا الخان الواقع على طريق أريحا، وكانت تدخل وتخرج منه في كل لحظة بضعة جياد، وهناك خيول السيّاح بسروج إنجليزية وخيول جميلة ذات سروج عربية عريضة ثقلت جوانبها وصدورها بسجف من كل الألوان، وجمل بسنام طويل، وبغال عليها عدة مبرقشة باللؤلؤ والقواقع، وحمير صغيرة تعود للحجاج الفقراء تحمل على ظهورها قطعة عتيقة من الكتان، خروجاً بالية، لقد اختلطت هذه البهائم ببعضها، وانعقدت أقدامها، وجنت وصرخت.

Twitter: @alqareah

كان هنالك تحت الغبار المواجه للحوش ما يقارب المائة شخص، كانوا يتعجلون تناول الغداء، والمؤلف بطبيعة الحال مما جلبوه معهم من مؤن، إذ كان الخان لا يقدم سوى الماء البارد والقهوة والنارجيلة والحماية تحت سقفه. وكان البعض يأكل فوق الموائد، والبعض الآخر لم يوفق في الحصول عليها فيتدبر أمره على الأرض. كانت هناك مجموعات أنيقة إلى حد ما من السيّاح الإنكليز أو الأمريكان، ومجموعات أكثر تواضعاً من الحجاج اليونانيين، وأكوام من الحجاج الروس برؤوس الشجعان القدامى، وهم يضعون الميداليات على صدورهم، ويقومون بغلي الحساء بالخبز الأسود على الأرض فوق نار الأغصان، وثمة عدد من الأدلاء الجميلين من السوريين بملابسهم المطرزة بالحرير، وشعورهم المنسدلة من تحت العمامة على طريقة سكان كابول، يتصنعون الحركات المغناجة مع سائحات الوكالات. وفضلاً عن ذلك كان هناك الأتراك والصرب. وكان القساوسة يتناولون الغداء ممسكين بحميرهم الصغيرة من لجامها، كما كان هناك قساوسة بيض وقساوسة سمر، وكان البدو يأكلون بأصابعهم كما في الصحراء، يمزقون بأسنانهم الجميلة قطعاً قذرة من الدجاج.

وعلى المائدة المجاورة لمائدتنا جلست فتيات مارونيات كان بعضهن يلبس بذلات محلية نوعاً ما، ومعطفاً طويلاً من المخمل والفرو القاتم، وقد عقصن شعورهن بمنديل مزركش، أما الأخريات فقد كن ولسوء الحظ يضعن قبعات مزهرة ويرتدين على طريقة الشابات في فرنسا قبل خمسة أو ستة أعوام. ورغم هذا كنّ جميلات لشدة طراوتهن واتساع عيونهن، ووقع تبادل ودي للتمر والبرتقال بيننا، كما أعطينا قطعاً من الخبز الأبيض إلى بعض الفلاحين الروس الطيبين المقرفصين عند أقدامنا. حقاً لو أردت أن تلتقي بقيم مثيرة وحميمية للغاية فعليك المجيء وقت الحج لرؤيتها على طرق فلسطين، فبعد أعياد الفصح سيغدو هذا الخان ولأشهر طويلة خالياً تحت الشمس الحارقة.

Twitter: @alqareah

إلى القبر المقدس

كما هو الحال في كل مساء بدأ السكون يخيم على الدهليز الحالك للقبر المقدس، غادر باعة الشموع المكان، لذا ينبغي النظر إلى ما تحت أقدامنا، وأن نسير متلمسين الطريق كي لا نعثر بإحدى البلاطات العالية، أو نسقط في المنحدرات من على الدرجات المشوهة. وعند بعض الأماكن كان يدلنا قليل من الضوء الساقط من القبعات على تهدم هذه الحيطان التي انسلخت وتآكلت حتى مستوى قامة الإنسان من جراء مسح الأيدي المتسخة والقبلات.

كما كان هناك المتسولون، المتسولون المأتميون وهم واقفون نصف عراة تحت الأسمال، يجلسون القرفصاء لصق الأعمدة، متخذين أوضاع البهائم. كان هناك أحدهم عجوزاً بلا عينين، سحبني من يدي وصار يلاحقني بشكواه، ويتلمسني ليجد طريقه بيديه المخيفتين، ومن خلف أحد الأعمدة دوى صوت سعال أجوف رهيب، إنه صوت امرأة قوقازية عجوز ـ حاجّة ـ انهارت مريضة في ذلك الركن محتضرة تمسك بعصاها ومسبحتها الوردية بيدها وترتشف حساء من قصعةٍ قربها.

وفي الأعلى كانت هناك مجموعة من المصابيح القدسية تلمع بغموض كما لو أنها ندى من الفضة والذهب تسقط من السقوف المقوسة. وفي كل مكان من الظلمة التي كانت تزداد سمكاً كان الرخام والأيقونات وأحجارها والأشياء العبثية الرائعة تلتمع لتجعل من هذا المكان قصراً لحلم متاح إلى من هم أشد بؤساً على هذه الأرض.

كان الحجاج يصعدون جماعات جماعات، ويسيرون بلا ضجة، وبغاية الاحترام إلى الأماكن البعيدة والمظلمة من هذا المكان المقدس، وهم يستديرون بلا انقطاع مرات عديدة يلقون التحية ويرسمون شارة الصليب ثم يعودون على أعقابهم كما لو أنهم لم يحمدوا بما فيه الكفاية السماء والمخلّص. كانوا يسجدون كيفما

Twitter: @alqareah

اتفق ليقبلوا شيئاً إضافياً في هذا المكان المقدس: بلاطة أو مرمرة في مصلى، أو قاعدة عامود تكمن تحت سحابة النحور الواقفة عند منتصف ارتفاع الأعمدة الرائعة، وهناك رائحة بشرية تشبه الكارثة، إنها رائحة البؤس والتعفن والجثث التي تمتلئ بها هذه السطوح على الدوام، والتي تزداد ثقلاً في موسم الحج الكبير مثل الرائحة التي تسود ساحات الحرب في اليوم التالي للاندحار.

إنها هنا تذكرنا بعدميتنا، هذه الرائحة المدنسة لهذا الجلال، وتذكرنا بالدنس الذي اندعكت به أجسادنا، إنها موحية بأشد أفكار الموت ظلاماً.

ومن جهة أخرى فإن أي وميض مهما قلت عذوبته لم يتسرب هذا المساء على ظلام محنتي اللامتناهية، ولم أعد أرى في هذا المكان سوى التراكم السحيق في القدم للتقاليد البيزنطية ومن ثم الرومانية، ولم يعد هناك ما يتحرك في داخلي سوى رثاء عميق نحو هؤلاء البسطاء الواثقين، هؤلاء الشيوخ والعجائز اللواتي لا غد لهن، والذين يأتون طوال النهار كي يصلوا ويبكوا ويتمنوا، والذين يجرّون معهم سلفاً نتانة المقابر.

انتهى أول الأمس عيد البيرم لدى المسلمين، وأصبح الهلال الرفيع للشهر القمري الجديد يضيء الليل.

بيير لوتي

Twitter: @alqareah

المحتويات

* استهلال 5
* المقدمة 11
* فرانسوا دو شاتوبريان 37
الطريق من باريس إلى مدينة بيت المقدس
* رحلة إلى مهد المسيحية 39
* الوصول إلى المدينة المقدسة 41
* لوي أوغست كونت دو فوربان 79
رحلة إلى بلاد المشرق
* النهب المنظم للآثار الشرقية 81
* رحلة إلى بلاد المشرق 83
* الفيكونت دو مارسيليوس 89
ذكريات من الشرق
* حاج الأراضي المقدسة 91
* تأمل في الآثار الباقية 93
* ألفونس دو لامارتين 97
ذكريات من الشرق
* الرحلة إلى الشرق والغرب المستعمر 99
* الرحلة إلى الشرق 103

Twitter: @alqareah

* الكونتيسة دو غاسبران 155
يوميات رحلة إلى بلاد المشرق

* مذكرات بابل المسيحية 157
* في القبر المقدس 159

* أوجين ميلشيور دو فوغويه 169
رحلة إلى بلاد الماضي

* التصوير الإثنوغرافي للشرق 171
* رحلة إلى بلاد الماضي 173

* غوستاف فلوبير 197
رحلة إلى الشرق

* الشرق والشفاء من الروح الرومانطيقية 199
* مدينة بيت المقدس 201

* إدوارد شوره 213
مزارات الشرق

* قدسية الشرق والبحث عن المصير 215
* مزارات الشرق 217

* آرنست رينان 223
حياة المسيح

* الاستشراق وروح المسيحية 225
* الغنوصيون 227

* بيير لوتي 231
مدينة بيت المقدس

* الرحالة المبرأ من السحر 233
* مدينة بيت المقدس 235

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

Description of the East Description of the East

Voyageurs et Romantiques

The Holy Land in the travel accounts of the
French writers & orientalists in the 19th century

يحملنا هذا الكتاب على معرفة المكانة التي احتلتها الأماكن المقدسة في أعمال الرحالة الأدباء والمستشرقين الفرنسيين في القرن التاسع عشر، وهي مادة مهمة لنا في الزمن الحاضر كي نتعرّف على الطبيعة الاجتماعية والإثنوغرافية والتاريخية للحياة العربية في تلك الفترة، من خلال يوميات حجاج، شعراء، جنود، تجار، روائيين، فلاسفة، مغامرين، مبشّرين، عشاق فاشلين، سياسيين، وعدد ضخم من السياح الذين أجّجتهم الروح الرومانطيقية، أو دفعهم «الفضول التطهري» نحو الشرق